#19

رواية

برنار فيربير

النّمل

29.9.2018





ترجمة: أيف كادوري - حازم عبيدو

برنار فيربير

النّمـل

ترجمها عن الفرنسية

أيف كادوري - حازم عبيدو



النّمل



المؤلف: برنار فيربير
عنوان الكتاب: النّمل
ترجمة: أيف كادوري - حازم عبيدو
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
الناشر: دار المدى
الطبعة الاولى: 2016

Author: **Bernard Werber**
Title: **Les Fourmis**
Translator: **Ève Cadoret - Hazem Obedo**
cover designed by: **Majed Al Majedy**
P.C.: **Al-Mada**
First Edition: **2016**

جميع الحقوق محفوظة

Copyright © Al-Mada
Éditions Albin Michel – Paris 1991, 1994
©



للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نؤاس-محلة 102-شارع 13-بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102-13 Street-Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

إلى أبَوَيّ.

إلى جميع أولئك،

الأصدقاء والباحثين، الذين حملوا عيدانهم إلى هذا المبنى.

في غضـون اللحظات القصـيرة التـي تسـتغرقها قراءتكم لهذين السطرين:

– سيولد على الأرض، 40 إنساناً و700 مليون نملة.

– سيموت على الأرض، 30 إنساناً و500 مليون نملة.

الإنسَـان: حيوان مـن الثدييّات يـتراوح طوله: مـن 1 إلى 2 متراً. الـوزن: بين 30 و100 كيلوغرام. فترة الحمل عند الإناث: 9 أشـهر. نمـط الغذاء: قـارت (نباتي ولاحم). يقدّر عدد السـكان: بأكثر من 5 مليارات نسمة.

النّملة: حشرة يتراوح طولها: من 0،01 إلى 3 سـنتمترات. الوزن: من 1 إلى 150 ميلّغراماً. البيض: بحسب الرغبة تبعاً لمخزون الحيوانات المنوية. نمط الغذاء: قارت (نباتي ولاحم). عدد السكان المحتمل: أكثر من مليار مليار نسمة.

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

(1)

المُوقِظ

سترى حضرتك بأنّ الأمر ليس كما توقّعت أبداً.

أوضح كاتب العدل بأنّ العمارة مصنّفة كأثر تاريخيّ وأنّ بعضاً من حكماء قدماء ينتمون لعصر النهضة قد أقاموا فيها، غير أنّه لا يتذكّر أيّاً منهم.

أخذا الدرج نزولاً حتّى وصلا إلى ممرّ معتم، حيث أخذ كاتب العدل يبحث متلمّساً الجدار لمدّة طويلة. ضغط زرّاً دون جدوى، قبل أن يعرض عنه:

- تباً! إنّه معطّل.

غاصا معاً في الظلمة، وهما يتحسّسان الجدران محدثين جلبةً. أخيراً، لمّا عثر كاتب العدل على الباب فتحه وكبس، بنجاح هذه المرّة، الزرّ الكهربائيّ. عندئذ تنبّه إلى ملامح زبونه المفزوعة.

- ألست على ما يرام، سيد ويلز؟

- إنّها حالة من الرّهاب. الأمر لا يقلق.

– أهو الخوف من الظلمة؟

– هو كذلك، لقد أصبحت بحالة أفضل.

تفحّصا أرجاء المكان. كان شقّة في طبقة تحت الأرض بمساحة مائتي متر مربّع، لا يصلها مع الخارج سوى كوى ضيّقة ونادرة عند حافّة السقف، غير أنّها أعجبت جوناثان. صحيح أنّ الجدران كانت مغطّاة بورق رماديّ مُصْمَت، والغبار في كلّ مكان... إلّا أنّه لم يكن في وضع يسمح له أن يتطلّب أو يتمنّع.

شقّته الحالية لا تزيد عن خمس هذه الشقّة. فضلاً عن ذلك لم يعد بمقدوره دفع إيجارها؛ إذ أنّ شركة الأقفال التي كان يعمل بها قرّرت منذ مدّة وجيزة الاستغناء عن خدماته.

لذا كان إرث العم إدمون هذا بمثابة فرصة تفوق كلّ توقّع.

انتقل بعد يومين إلى الإقامة في الرقم 3، شارع السيباريت مع زوجته لوسي، وابنهما نيكولا وكلبهم «ورزازات»، كلب مخصيّ صغير.

– لا تضايقني كل هذه الجدران الرماديّة، أعلنت لوسي وهي ترفع شعرها الأصهب الغزير. سنغيّر ديكور الشقّة بما يتلاءم مع ذوقنا. كل ما فيها يحتاج إلى إعادة تأهيل، كما لو أنّنا نحوّل سجناً إلى فندق.

– أين غرفتي؟ سأل نيكولا.

– عند نهاية الشقّة في الجهة اليمنى.

– واف، واف، نبح الكلب، وبدأ يعضّض لوسي من ربلتي ساقيها غير مكترث بالأواني الزجاجيّة التي كانت تحملها بين ذراعيها، والتي تعود إلى جهاز عرسها.

ممّا توجّب وضعه داخل المرحاض على الفور والإقفال عليه بالمفتاح، إذ كان باستطاعته القفز إلى مقابض الأبواب وفتحها.

– هل كنت تعرف هذا الخال السخيّ جيداً؟ أردفت لوسي.

– الخال إدمون؟ في الواقع، كل ما أتذكّره أنّه كان يلاعبني لعبة الطائرة حين كنت صغيراً، ومرّة، أرعبني ذلك جداً، لدرجة أنّي بلت عليه.

ضحكوا.

– كنت خوّافاً منذ ذلك الحين؟ علّقت لوسي مداعبةً.

تظاهر جوناثان بأنّه لم يسمع شيئاً.

– لم يلمني على ذلك. لكنّه توجّه إلى أمي قائلاً: «حسناً، نعلم منذ الآن أنّنا لن نجعل منه طيّاراً...» فيما بعد، كانت أمّي تخبرني، بأنّه يتابع مسيرة حياتي باهتمام، غير أنّي لم أره بعدها.

– ما كانت مهنته؟

– كان عالماً. بيولوجيّاً، على ما أظنّ.

لبث جوناثان ساهماً. فهو بالمحصّلة، لم يكن يعرف فاعل خيره.

على مسافة

تبعد 6 كيلومترات من هناك:

بيل – أو – كان،

بارتفاع 1 متراً.

50 طبقة تحت الأرض.

50 طبقة فوق الأرض.

أكبر مدينة في المنطقة.

يقدّر عدد قاطنيها بنحو: 18 مليوناً.

الإنتاج السنويّ

– 50 ليتراً من عُسَيل الأزْقة.

– 10 ليترات من عُسَيل القرمزيّة.

– 4 كيلو غرامات من فطر الغاريقون.

– كميّة الحصى المستخرج من الأرض: 1 طناً.

- 120 كيلومتراً من المسالك الصالحة للمرور.

- مساحة الأرض 2 م^2.

عبر شعاع ضوء. تحرّكت رِجْلٌ للتوّ. إنّها أوّل حركة منذ دخول السبات الشتويّ قبل ثلاثة أشهر مضت. رِجْلٌ أخرى تتقدّم ببطء، في نهايتها مخلبان ينفرجان رويداً رويداً. تمتدّ رِجْلٌ ثالثة. يظهر صدر. ثمّ كائن كامل. ثمّ اثنا عشر كائناً.

إنّهم يبدؤون بالارتعاش لتمكين دمهم الشفّاف من الجريان داخل شبكة شرايينهم. دمهم الذي ينتقل من حالته العجينيّة إلى اللّزجة وصولاً إلى السيولة. تعود مضخة القلب للعمل تدريجيّاً دافعة السائل الحيويّ إلى نهايات الأطراف. يتسلّل الدفء داخل الميكانيكا الحيويّة. تدور المفاصل المفرطة التعقيد حول محاورها. تتحايل الرضفات مع واقياتها، ساعيةً في كافة أنحاء الجسد، للوصول إلى أقصى التواء ممكن.

ينهضون، تستردّ أجسادهم أنفاسها. لا تزال حركاتهم مفكّكة، وأشبه برقص بطيء. يهتزّون بتؤدة، ثمّ ينتفضون. أرجلهم الأماميّة تلتقي أمام الأفواه كما لو كانت للصلاة، ولكن لا، هم فقط يبلّلون مخالبهم لكي يلمّعوا قرونهم.

الاثني عشر الذين استفاقوا أخذوا يدلّكون بعضهم بالتناوب، ثمّ حاولوا إيقاظ جيرانهم. إلّا أنّ قواهم لا تكاد تكفي ليحرّك أيّاً منهم جسده، إذ لا طاقة لديهم ليقدّموها. فأعرضوا عن الفكرة.

إذاً، أخذوا يتلمّسون طريقهم بمشقّة متقدمين وسط أجساد إخوتهم المتصلّبة. وجهتهم صوب العالم الرحب، فأجسامهم التي يجري فيها الدم البارد تحتاج إلى التقاط سعرات الحرارة من كوكب النهار.

إنّهم يمضون قدماً، منهكين. وفي كلّ خطوة ألم. تغالبهم رغبة كبيرة في العودة إلى النّوم والتنعّم بالراحة كما الملايين من نظرائهم! ولكن لا. هم طلائع المستيقظين، وعليهم العودة الآن لإيقاظ المدينة بأكملها.

يعبرون أديم المدينة. ضياء الشّمس يغشّي أبصارهم، إلّا أنّ ملامسة الطاقة الصافية تشعرهم بالارتياح.

أدخلي أيتها الشمس إلى هياكلنا المجوّفة،

حرّكي عضلاتنا المتوجّعة

ووحّدي شَتات أفكارنا المتفرّقة

هذه هي أهزوجة الفجر القديمة عند النّملة الصهباء والتي تعود إلى مائة ألفية مضت. منذ ذلك الزمن البعيد الغابر وهم يرغبون أن يصدحوا بها في عقولهم عند أوّل ملامسة مع الدفء.

بعد أن يصبحوا خارجاً في العراء يبدؤون تنظيف أنفسهم بعناية فائقة. يفرزون لعاباً أبيض ويطلون به فكوكهم وأرجلهم.

داخل طقس احتفاليّ مكتمل لا يتغيّر، يأخذون بفرك أجسادهم. تكون البداية في العيون. يمسحُ الغبار عن الألف والثلاثمائة فتحة دقيقة التي تتكوّن منها كلّ واحدة من عيونهم الكرويّة، ترطّب بالسائل، ثمّ تجفّف. والعمليّة ذاتها تتكرّر مع قرون الاستشعار، ثمّ الأطراف، الدنيا والوسطى والعليا. وفي الخاتمة يلمّعون دروعهم الصهباء الجميلة إلى أن تبرق كنقاط من نار.

كان ثمّة بين النمال الاثنتي عشرة التي استيقظت ذكر مُخصب. هو أصغر قليلاً من متوسط أقرانه من الشعب البيلوكاني. ضيّق الفكّين ومعدٌّ كيلا يعيش أكثر من بضعة أشهر، إلّا أنّه يحوز على ميزات غير معهودة عند أبناء جنسه.

امتيازه الأول، كذي جنس، داخل طبقته، أنّه يمتلك خمسة عيون؛ اثنتان مكورتان كبيرتان تمنحانه رؤية واسعة تمتدّ على زاوية قدرها 180°، وثلاثُ عُيينات صغيرة متموضعة بهيئة مثلث على الجبين. ولهذه العيون الزائدة وظيفة استكشافيّة إذ أنّها تستقبل الأشعّة تحت الحمراء، ممّا يمكّنها من التقاط أيّ مصدر للدفء عن مسافة بعيدة، وحتى في الظلمة الحالكة.

وتكتسي هذه الصفة أهميةً بالغةً في واقع أنّ غالبيّة سكان المدن الكبيرة في هذه الألفيّة المائة ألف، باتوا عمياناً بالكامل جرّاء قضاء حياتهم تحت الأرض.

ولكن ليس ذلك فقط ما يفرده. فهو علاوة على ذلك يمتلك (أُسوة بالإناث) أجنحةً ستسمح له بالطيران يوماً ليمارس الحبّ.

كما أنّ صدره محميٌّ بصفيحة درع خاصّ من جهة الظهر يدعى: الدرع الظهريّ الأوسط.

أمّا قرنا استشعاره فهما أكثر طولاً وحساسيّةً ممّا لدى سائر السكان.

يظل هذا الفتى المخصّب لبرهة طويلة في أعلى القبّة يغرف من الشمس. ثمّ يلج المدينة، بعد أن يكون قد تدفّأ جيّداً، ليصبح مؤقتاً جزءاً من فصيلة النمال التي تقوم بمهمة «رسولات حراريّة».

يتنقل داخل ممرّات الطبقة الثالثة السفلى. لا يزال جميع من في المكان يغطون في نوم عميق، أجسادهم متجلّدة متصلّبة وقرونهم متهدّلة.

لا تزال النمال تحلم.

يدني الذكر الفتى رجله صوب عاملة يريد إيقاظها بحرارة جسده. التلامس الدافئ يثير شحنةً كهربائيةً مبهجةً.

تناهى إلى السمع دبيب فأرة، عندما قُرِعَ الجرس للمرّة الثانية. فُتح الباب، استغرق فتحه برهةً إلى أن سحبت الجدّة أوغستا سلسلة الأمان.

منذ موت ولديها وهي تعيش معزولةً داخل هذه المساحة الصغيرة والتي لا تتعدّى الثلاثين متراً مربّعاً، مجترّةً الذكريات القديمة. بالطبع ذلك لم يكن نافعاً لها، إلّا أنّه لم ينتقص شيئاً من لطفها.

– وإن بدا طلبي سخيفاً، ولكن استعملْ خفّي زلّاجة التلميع، فقد لّمعت الأرضيّة الخشبيّة.

أطـاع جوناثان، تقدّمت أمامه مهرولةً، وهي تشـير له إلى حجرة الصـالون التي كانت الأغطيـة تغلّف مجمل أثاثها. بـذل جهداً، وهو يتّخذ مكانـه على حافّة الكنبة الكبيرة، كيلا يزقزق البلاسـتيك تحته، لكن بلا طائل.

– إنّي سعيدة جداً بمجيئك... قد لا تصدّقني، كنت أنوي الاتّصال بك خلال الأيّام القادمة.

– آه حقّاً؟

– تخيّل أن إدمون ترك شيئاً لأجلك، رسالةً. وقد أبلغني: إذا متُّ، يجب إعطاؤها إلى جوناثان مهما كلّف الثمن.

– رسالة؟

– بلى رسـالة، رسـالة... همم. لم أعد أعلم أين وضـعتها. انتظر قليلاً... لقد أعطاني الرسـالة، وقلت له: إنّي سأحفظها في مكان آمن، ووضعتها في علبة. أرجّح أنّها في إحدى العلب المعدنيّة داخل الخزانة الكبيرة.

نهضـتْ وأخذت تتحرّك فوق خفّي زلّاجـة التلميع، توقّفتْ عند الزحلقة الثالثة.

– أوه انتظــر، يــا لغبائي! انظر كيف أســتقبلك! أتأخــذ قليلاً من اللويزة؟[1]

– بسرور.

غاصت في المطبخ وبدأت تحرّك الطناجر. ثمّ هتفت من مكانها.

– أخبرني عن أحوالك، جوناثان!

– أوه، ليست جيدة. لقد صرفوني من عملي.

أطلّــت الجدّة للحظة من الباب برأســها الشــبيه بفأرة بيضــاء، ثمّ ظهرت بالكامل، مكتسيةً هيئةً جادّة، مسربلةً بوزرة طويلة زرقاء.

– صرفوك؟

– بلى.

– لماذا؟

– تعلمين، أنّ بيئة صانع الأقفال بيئة خاصّة. وأنّ شركتنا "طوارئ الأقفــال" تقدّم خدماتها على مدار الأربع والعشرين ســاعةً وفي كافّة أحيــاء باريس. ولكن منــذ أن تعرّض أحد زملائي للضرب، رفضــت التنقّل مساءً في الأحياء المشبوهة، لذا طردوني.

– لقــد تصرّفْتَ كما ينبغي. يستحســن أن تكون عاطلاً عن العمل وبصحة جيّدة على أن يكون العكس.

1. Verveine: نبتة معروفة عربيّاً باســم لويزة أو مليســة، ويعــدّ مغلي أوراقها من المشروبات الشائعة لتأثيره المهدّئ.

– وفضلاً عن ذلك، لم أكن على وفاق مع رئيسي المباشر في الشركة.

– وإلى أين وصلت تجاربك مع التجمّعات الطوباوية؟ كنّا في أيّامي ندعوها بتجمّعات New Age (العصر الجديد)، (أخذت تضحك بالخفاء، إذ كانت تلفظها «Nouillage».)

– أقلعتُ عن المشروع بعد فشل مزرعة البيرنيه. ضجرت لوسي من الطهي والجلي للجميع. كما أنّ خصاماً قد حصل بسبب تواجد متطفّلين بيننا. أعيش حالياً مع لوسي ونيكولا فقط... وأنت، يا جدّتي، كيف تمضي أحوالك؟

– أنا؟ أعيش. وهذا بحد ذاته انشغال متواصل.

– يا لك من محظوظة! لقد عشت الانتقال إلى الألفيّة...

– أوه! أتعلم، أكثر ما يدهشني أنّ لا شيء تغيّر. في السابق، حين كنت فتاةً صغيرةً، كنّا نقول أنّ أشياء خارقةً ستحدث بعد الانتقال إلى الألفيّة، وكما ترى لا شيء تطوّر. إلى الآن ثمّة عجائز تعيش في عزلة، ثمّة عاطلون عن العمل، وسيّارات تنفث غاز عوادمها. حتّى الأفكار لم تتحرّك. انظر، في العام الماضي أعدنا اكتشاف السرياليّة، في العام الذي سبقه الروك أند رول، والصحيفة تعلن منذ الآن عن العودة الكبيرة للتنانير القصيرة في الصيف القادم، وإذا استمرّ الأمر على هذا النحو فإنّنا سنستعيد عمّا قريب أفكار بداية القرن الماضي من الشيوعيّة إلى التحليل النفسي، والنسبيّة...

ابتسم جوناثان

– ومع ذلك حصل بعض التطوّر؛ ارتفع معدّل عمر الإنسان، كثرت حالات الطلاق، زادت نسبة التلوث في الهواء، وامتدت خطوط المترو مسافات أبعد...

– وما الخارق في الأمر! كنت أعتقد أنّه سيكون لدى الجميع طائرات خاصّة وأنّنا سنقلع من الشرفة... أتعلم، حين كنت شابّةً كانت الناس تخشى الحرب الذرّية. كان خوفاً رائعاً. الموت بعمر المائة سنة داخل جمرة الفطر النووي الهائلة، الموت مع كوكب الأرض... كان ذلك خوفاً يستحقّ. والآن عوضاً عنه سأموت مثل حبّة بطاطا قديمة متعفّنة، ولن يبالي أحد بذلك.

– لا، لا تقولي هذا الكلام يا جدّتي.

مسحت جبينها

– وما يزيد الطين بلّة، الجوّ الحار، الحرارة لا تتوقّف عن الارتفاع. لم تكن تصل إلى هذا الحدّ في أيّامي. كان لدينا شتاءات حقيقيّة وأصياف حقيقيّة. الآن موجة الحرّ تبدأ مع آذار.

ذهبت إلى مطبخها، وأخذت تتقافز برشاقة غير عادية لتتناول ما يلزم من الأدوات لتحضير فنجان حقيقيّ من اللويزة الشهيّة. حكّت عود الثقاب وتناهى صوت الغاز ينفث داخل أنابيب الطبّاخ العتيقة، ثمّ عادت بادياً عليها الارتياح.

– بالمناسبة، لا بدّ أنّك أتيت لغاية محدّدة، لا أحد في أيّامنا هذه يزور العجائز دون سبب.

– جدّتي، لا تكوني متهكّمة.

– أنا لست متهكّمة، لكنّني أعلم في أيّ عالم أعيش، هذا كلّ ما في الأمر. يكفيك رياءً، أخبرني ما الذي أتى بك.

– أودّ أن تكلّميني «عنه». أوصى لي بشقّته وأنا لا أعرفه حتّى...

– إدمــون؟ ألا تتذكّر إدمون؟ مع أنّه كان يحبّ كثيراً أن يطيّرك في الهواء وأنت صغير، حتى أذكر مرّةً...

– بلى، وأنا أذكرها أيضــاً، لكن خارج هذه الطرفة لا شيء أذكره البتّة.

عدّلت من جلستها على الأريكة مداريةً ألّا تجعّد الغطاء تحتها.

– إدمون، إنّه... همم، كان شخصاً غريب الأطوار. منذ طفولته، وخالــك يجلب لي المتاعب. فلم يكن ســهلاً علــيّ أن أكون أمّه، على ســبيل المثــال كان يكسر باســتمرار ألعابــه ليفكّكها، ونــادراً ما يعود لتركيبهــا. وليت أنّه يكسر الألعاب فقط! بل كان يتفحّص كل شــيء: ســاعة الحائط، مشغّل الأسطوانات، فرشاة الأســنان الكهربائيّة. وقد وصل به الأمر في إحدى المرّات إلى تفكيك البرّاد.

وكما لــو أنّها تؤكّد أقوالها، أخذت ســاعة الصــالون القديمة ترنّ بغمّة. فهي قد ذاقت أيضاً على يد إدمون الصغير ألواناً من العذاب.

– شيء آخر كان مولعاً به، هو الأوكار. فقد كان يقلب البيت رأساً على عقب لكي يبني مخابئ لنفسـه. بنى واحداً من الأغطية والمظلّات

داخـل العُلّية، وآخـر في حجرته من الكراسـي ومعاطف الفرو. كان يحبّ أن يظلّ محشـوراً هناك وسـط كنوزه التي كان يكدّسها. ألقيت نظـرةً عليه مرّة، كان الملاذ مليئاً بالوسـائد وبخـردة القطع التي كان ينزعها عن الآلات. بدا المكان مريحاً ودافئاً.

- جميع الأولاد يفعلون ذلك...

- ربّمـا، غير أنّ الأمر يتّخـذ لديه حجماً مبالغاً فيـه. فقد أقلع عن النـوم في سريره، وبات لا ينام إلّا في أحد أعشاشـه تلك. كان يمكث فيهـا أحياناً أياماً متواصـلة دون حراك. كما لـو أنه دخل في حالة من السبات. كانت أمّك تردّد أنّه ربّما كان سنجاباً في حياة سابقة.

ابتسم جوناثان ليشجّعها على المواصلة.

- أراد في أحـد الأيـام أن يقيم كوخه بين قوائم طاولة الصـالون. وكانـت هي النقطة التي طفح لها الكيل، فانفجر جدّك بغضـب كان نادراً ما يعتريه. ضربه على مؤخرته، وهدّ جميع أعشاشه وأجبره على النوم في سريره.

تنهّدتْ.

- ومنـذ ذلك اليـوم، أفلت من يدنا تماماً. كما لـو أنّنا اقتلعنا حبل السـرّة. لم نعـد ننتمي إلى عالمه. ولكنّي أعتقـد أن تلك التجربة كانت ضروريّةً، كان عليه أن يعلم أنّ العالم لن يخضـع دوماً إلى نزواته. فيما بعد، وهو يكبر، أثار هذا الوضـع المتاعبَ. لم يكن يحتمل المدرسـة، سـتكرّر لي: «مثـل جميـع الأولاد»، لكن الأمر كان يصـل عنده إلى

أقصاه. هل تعرف الكثير من الأطفال الذين حاولوا شنق أنفسهم بالحزام داخل المرحاض لأنّهم تلقّوا تعنيفاً من مدرّسهم؟ هو حاول شنق نفسه في عمر سبع سنوات. وآذِنُ المدرسة هو الذي أنزله عن الحزام المتدلي.

– ربّما كان مفرط الحساسيّة.

– حساسيّة؟ هراء! في العام الذي تلاه حاول أن يغرز مقصّاً في أحد مدرّسيه، سدّد نحو القلب مباشرةً، ولكن لحسن الحظّ لم يخترق سوى العلبة التي يضع فيها سجائره.

ارتفعت ببصرها نحو السقف. ذكريات متناثرة بدأت تتساقط مثل ندف الثلج على ذهنها.

– أخذت الأمور لاحقاً تميل للتحسّن بعض الشيء، إذ تمكّن بعض المعلمين من إثارة شغفه. فكان يحصل على درجة عشرين في المواد التي تهمّه وصفر في سائر المواد الأخرى. إمّا صفراً أو عشرين كذلك كان على الدوام.

– كانت أمّي تقول: إنّه كان مدهشاً.

– أمّك كانت مسحورة به، فقد شرح لها كيف أنّه يحاول الحصول على «المعرفة المطلقة». وبما أنّ أمّك كانت تؤمن منذ أن كانت في سنّ العاشرة، بالحيوات السابقة، فقد كانت تعتقد أنّه تقمّصٌ لأينشتاين أو ليوناردو دافنتشي.

– إضافة إلى السنجاب.

- لَمَ لا؟ «يلزم العديد من الحيوات لتكتمل الروح...» كما قال بوذا.

- هل أجرى اختبارات معدّل الذكاء.

- أجل. لكن نتائج ذلك الاختبار أتت مخيّبةً جداً. إذ حصل على علامة ثلاث وعشرين من مائة وثمانين، أي ما يعادل معتوهاً خفيفاً. عدّه التربويون مجنوناً وقالوا بضرورة وضعه في مركز متخصّص. مع أنّي كنت اعلم أنّه لم يكن مجنوناً على الإطلاق، كان فقط «خارج المتعارف عليه». أذكر مرّة، أوه! كان عمره لا يتجاوز إحدى عشرة سنة، تحدّاني بأن أتمكّن بستّة أعواد ثقاب فقط، تشكيل أربعة مثلّثات متساوية الأضلاع. الأمر ليس هيّناً، حاول بنفسك لترى...

ذهبتْ إلى المطبخ، ألقتْ نظرةً على غلّايتها وأحضرت ستّة عيدان ثقاب. تردّد جوناثان للحظة. بدا الأمر قابلاً للتحقيق. وضع عيدان الثقاب الستّة بوضعيّات مختلفة، ولكن ماهي إلّا دقائق حتّى يئس من المحاولة.

- ما هو الحلّ؟

حاولت الجدّة أوغستا تجميع أفكارها.

- في الحقيقة... أظنّ أنّه لم يعطني الحلّ أبداً. كلّ ما أتذكّره هو العبارة التي قالها لمساعدتي على إيجاد الحلّ: «يلزم التفكير على نحو مختلف، إذا فكّرنا بالطريقة التي اعتدنا على التفكير بها لن نصل إلى شيء.» أتتخيّل صبيّاً عمره أحدَ عشرَ عاماً يخرج بمثل هذه الأفكار!

آه! أظنّ أنّي أسمع صفّارة الغلّاية. لا بدّ أنّ الماء قد سخن.

عادت مع فنجانين ممتلئين بسائل مائل للصفرة له رائحة قويّة.

– أتعلم، يسعدني أن أراك تهتمّ بخالك. في أيّامنا هذه يموت الناس وننسى حتّى أنّهم ولدوا.

ترك جوناثان عيدان الثقاب وأخذ برهافة عدّة رشفات من اللويزة.

– وما الذي حدث لاحقاً؟

– لم أعد أعلم، منذ أن بدأ دراسته في جامعة العلوم لم نعد نسمع شيئاً عن أخباره، علمت من أمّك بطريقة مبهمة أنّه أنهى الدكتوراه بالمعيّة، وأنّه عمل لصالح شركة منتجات غذائيّة، ثمّ تركها ليغادر إلى أفريقيا، وبعد عودته سكن شارع السيباريت، حيث انقطعت أخباره تماماً حتّى مماته.

– كيف مات.

– آه! لا تعلم؟ قصّة لا تصدّق. تناولتها جميع الصحف. تخيّل أنّه قتل من قبل الزنابير.

– زنابير؟ كيف ذلك؟

– كان يسير في الغابة بمفرده. وعلى الأرجح أنّه دفع سهواً حشداً من الزنابير، فسارعوا جميعاً بالانقضاض عليه. قال الطبيب الشرعي: «لم أر في حياتي يوماً هذا العدد من اللسعات على شخص واحد!». لقد مات بسمّ بلغت نسبته 0،3 غرام في كل ليتر دم. شيء لا نظير له!

– له قبر؟

– لا. لقد أوصى بأن يدفن في الغابة تحت شجرة صنوبر.

– ألديك صورة له؟

– انظر هناك، على ذلك الجدار، فوق الصوان. أمّك سوزي في يمين الصورة (هل رأيتها يوماً بهذه اليفاعة؟)، وإدمون إلى اليسار.

كان مقدّم رأسه خالياً من الشعر، وله شارب بطرفين مدبّبين، أذناه تشبهان أذني كافكا بلا شحمتين وترتفعان أعلى من مستوى الحاجبين. كان يبتسم بمكر. إنّه شيطان حقيقيّ صغير.

وإلى جانبه، كانت سوزي مشعّة في فستان أبيض. كانت قد تزوّجت بعد عدّة سنوات، إلّا أنّها أصرّت على الاحتفاظ باسم عائلة ويلز فقط. كما لو أنّها أرادت ألا يترك شريكها أثراً من اسمه على ذرّيتها.

حين اقترب أكثر، لاحظ جوناثان أنّ إدمون يرفع أصبعين فوق رأس شقيقته.

– لقد كان ولداً شقيّاً أليس كذلك؟

صمتت أوغستا. غشاوة الحزن غبّشت نظرتها حين التقت مجدّداً بوجه ابنتها الوضّاح. كانت سوزي قد ماتت قبل ستّ سنوات؛ شاحنةٌ تزن خمسة عشر طنّاً يقودها سائق ثمل قد ألقت بسيارتها إلى واد. امتدّت فترة الاحتضار يومين. طلبت رؤية إدمون، لكن إدمون لم يأت. لمرّة إضافيّة كان في مكان آخر...

– أتعرفين أشخاصاً آخرين بإمكانهم أن يكلّموني عن إدمون؟

– همم... كان لديه صديق منذ الطفولة وكان يلتقي معه باستمرار، حتّى إنّهما كانا في الجامعة معاً. يدعى جازون براجيل، وعلى الأرجح أنّ رقم هاتفه لايزال عندي.

بحثت أوغستا سريعاً في حاسوبها، وأعطت جوناثان عنوان ذلك الصديق. نظرت إلى حفيدها بحنان. كان آخر فرد على قيد الحياة من عائلة ويلز. إنّه شابٌّ طيب.

– هيّا، أنهِ شرابك قبل أن يبرد. إذا أردت، لديّ أيضاً كعك مادلين صغير. أعددته بنفسي ببيض السُمّان.

– لا، شكراً، عليّ الذهاب. زورينا في شقّتنا الجديدة، لقد أنهينا عملية النقل.

– موافقة، ولكن انتظر. لا تذهب دون أن تأخذ الرسالة.

وهي منهمكةٌ بالبحث داخل الخزانة الكبيرة وفي العلب المعدنيّة، عثرت أخيراً على ظرف أبيض مكتوب عليه بخطّ محموم: «إلى جوناثان ويلز» لسان الظرف كان ملصقاً بعدّة طبقات من الشريط اللاصق تجنّباً لأيّة محاولة فتح غير مرغوبة. فتحه بعناية، فسقطت منه ورقة مجعّدة مأخوذة من دفتر مدرسيّ. وقرأ الجملة الوحيدة المكتوبة عليها:

«إيّاكَ والنزولُ إلى القبو»

ترتجف النّملة من قرنيها. هي أشبه بمحاولة تشغيل سيّارة متروكة تحت الثلج لمدّة طويلة. يحاول الذكر مراراً، يدلّكها، يطليها بلعاب ساخن.

حياة. لقد تمّ الأمر، يعاود المحرّك دورانه. فصل وانقضى. كلّ شيء يبدأ من جديد كما لو أنّ ذلك «الموت القصير» لم تعرفه يوماً.

يواصل احتكاكه بها ليمدّها بسعرات حرارية. هي بحالة جيدة. وفيما كان يواصل بذل قصارى جهده، تمدّ قرنيها نحوه. تدغدغه بلطف، محاولة التعرّف عليه.

تلمسُ أوّل جزء له مبتدئةً بالجمجمة وتتعرّف على عمره: مائة وثلاثة وسبعون يوماً. في الجزء الثاني تحدّد العاملة العمياء فئته: ذكر مُخصّب. في الثالث، صنفه ومدينته: نملة صهباء من الغابات متحدّرة من المدينة الأم بيل - أو - كان. في الجزء الرابع، تكتشف رقم البيضة الذي خرج منها والذي هو بمثابة اسم: إنّه الذكر السابع والعشرون بعد المائة الثالثة والذي باضته أمّه منذ أوّل الخريف.

هناك تتوقف عن استعلامها الشمّي. بقية الأجزاء ليست باعثة للمعلومات. الجزء الخامس يفيد باستقبال جزئيات الإشارات الطرقية. السادس يستخدم لإجراء حوارات بسيطة. السابع لإجراء حوارات معقّدة من النوع الجنسي. الثامن مخصص للحوارات مع الأم. أمّا الأجزاء الثلاثة الأخيرة، فتستخدم كهراوات صغيرة.

ها هي قد انتهت من جولتها على الأجزاء الأحد عشر للنصف الثاني من قرن الاستشعار. ولكن ليس لديها ما تقوله له. فتبتعد لتتدفأ بدورها على سطح المدينة.

وهو يصعد كذلك. لقد انتهى عمل الرسول الحراري، وقد حان دور أعمال الترميم!

بعد وصوله هناك إلى الأعلى، يلاحظ الذكر 327 الأضرار الناجمة. لقد شيّدت المدينة على هيئة مخروطيّة للتخفيف من تبعات المناخ السيئة، إلّا أنّ هذا الشتاء كان مدمّراً. الريح والثلج والبَرَدْ نزعوا الطبقة الأولى من الغصينات الصغيرة. وسدّ زرق العصافير بعض المخارج. يجب البدء سريعاً في العمل. انقضّ الرقم 327 على بقعة صفراء كبيرة معملاً فكّيه في هذه المادّة القاسية والكريهة. تراءى له خيال حشرة من الجهة المقابلة تحفر من الداخل.

العين الساحرة أعتمت. ثمّة من ينظر خلالها وراء الباب.

– من؟

– السيد غونيه... أتيت بخصوص تجليد الأوراق.

انشقّ الباب. أخفض المسمّى غونيه بصره نحو صبيٍّ أشقر في نحو العاشرة من عمره، ثمّ خفّضه أكثر نحو كلب مفرط الصغر، أخذ ينخر حاشراً خطمه بين ساقي الصبيّ.

– أبي ليس هنا!

– أمتأكّد؟ كان ينبغي على البروفيسور ويلز أن يمرّ لرؤيتي و...

– البروفيسور ويلز هو خال أبي. لكنّه توفي.

همّ نيكولا بإغلاق الباب لكنّ الآخر قدّم رجله بإلحاح.

– أقدّم تعازيّ. لكن هل أنت متأكّد بأنّه لم يترك مغلّفاً سميكاً مليئاً بالأوراق؟ أنا مجلّد، وقد دفع لي مسبّقاً لأجلّد أوراق ملاحظات عمله بغلاف من الجلد. كان ينوي تأليف موسوعة، على ما أظنّ. وكان ينبغي أن يمرّ ولكن لم تعد تصلني منه أخبار منذ وقت طويل...

– مات، قلت لك.

قدّم رجله أكثر، وهو يضغط الباب بركبته كما لو أنّه يريد دفع الصبيّ والدخول عنوة. إلّا أنّه تجمّد حين انكمش الكلب وبدأ بنباح غاضب.

– أتمنّى أن تفهمني، يحرجني كثيراً ألا أفي بوعدي له، حتى لو بعد الممات. تأكّد من فضلك. لا بدّ أن ثمّة مصنّف أحمر كبير في مكان ما.

– موسوعة، أتقول موسوعة؟

– بلى، كان هو نفسه يدعو هذه المجموعة: «**موسوعة العلم النسبيّ والمطلق**»، ولكنّي أستبعد أن يكون العنوان مخطوطاً على الغلاف...

- لو كانت هنا لوجدناها.

- أعذرني على الإصرار ولكن...

أخذ الكلب الصغير ينبح. فتراجع الرجل بعض الشيء إلى الخلف، بما يكفي ليطبق الصبيّ الباب في وجهه.

المدينة الآن مستيقظة بأكملها. الممرّات تعجّ بالنمال -الرسولات الحراريّة المنهمكة في تدفئة سائر القطيع. ومع ذلك لا يزال يوجد عند بعض المفارق مواطنات متصلّبات. مهما حرّكتهنّ الرسولات أو لطمتهنّ، لا يتحرّكنَ.

وسوف لن يتحرّكْنَ. لقد متن. كانت فترة السبات قاضية لأجلهن. إذ لا يمكن البقاء ثلاثة أشهر بقلب لا يكاد يخفق دون المجازفة بالحياة. لم يتعذبْنَ. انتقلن من النوم إلى الموت أثناء موجة ريح عاتية اجتاحت المدينة. تمّ التخلص من جثثهن برميها في مكبّ النفايات. بهذه الطريقة، كانت المدينة ترفع كل صباح خلاياها الميّتة مع باقي النفايات.

بعد أن تنظف شرايين المدينة من أوساخها، تبدأ الحياة تنبض فيها مجدّداً؛ الأرجل المسرعة تنطلق في كافة الأنحاء، الفكوك تحفر دون كلل، وقرون الاستشعار ترتجف بالمعلومات. كلّ شيء يعود إلى سابق عهده. كما كان قبل الشتاء المُخدّر.

بينما كان الذكر 327 ينقل غصيناً صغيراً يفوق وزنه بنحو ستين ضعفاً، تقترب منه محاربة يزيد عمرها عن خمسمائة يوم. تطرق على

جمجمته بأجزاء -هراوتها لتلفت انتباهه. يرفع رأسه. تضع قرنيها الاستشعاريّين على قرنيه.

تريد منه أن يترك عمله في ترميم السطح ليرحل مع مجموعة من النّمال في... رحلة صيد استكشافيّة.

لمس فمها وعينيها.

أيّة رحلة صيد استكشافيّة؟

شمّمته المحاربة رائحة قطعة لحم جافّة قليلاً كانت تخبئها طيّ مفصل صدرها.

يحكى أنّه عُثر عليها قبيل الشتاء بقليل، في المنطقة الغربية عند الزاوية 23° من مسقط شمس الظهيرة.

يتذوّق. لا بدّ أنّها خنفساء. من خنافس الأوراق على نحو أدق. أمر غريب فالخنافس على العموم لا تزال في مرحلة السبات. وكما يعلم الجميع، فإنّ النّمل الأصهب يستيقظ عندما تبلغ حرارة الهواء 12°، فيما يستيقظ نمل الأرَضَة في الحرارة 13°، والذباب في الحرارة 14°، أمّا الخنافس فعند الحرارة 15°.

لا تأخذ المحاربة العجوز بهذه المبررات. إذ أنّ هذه القطعة قادمة من منطقة غير عادية، مدفأة بشكل اصطناعي بوساطة نبع ماء يجري تحت الأرض. وهناك، لا يوجد شتاء. إنّه مناخ خاصّ تطوّرت فيه أنواع محليّة من الحيوانات والنباتات.

خلا ذلك، تكون المدينة –القطيع عند الاستيقاظ خائرة من الجوع ويلزمها بروتينات كي تستعيد قواها، فالحرارة وحدها لا تكفي.

وافق.

تضمّ الرحلة الاستكشافيّة ثمانٌ وعشرون نملة من طبقة المحاربات. معظمهنّ، مثل صاحبة الأمر، سيدات عجوز بلا جنس. الذكر 327 هو الوحيد من طبقة الجنسيين. يتفحّص عن بعد رفيقاته عبر غربال عينيه.

مع آلاف الأوجه العينيّة، لا ترى النمال الصورة مكرّرة لآلاف المرّات، بل ترى صورة شبكيّة. تجد هذه الحشرات صعوبة في تمييز التفاصيل، غير أنّها بالمقابل تلتقط أدقّ الحركات.

تبدو جميع المستكشفات في هذه الرحلة من اللواتي اعتدن على الأسفار البعيدة. بطونهنّ الثقيلة متخمة بالحمض، رؤوسهنّ مدجّجة بالأسلحة الفتّاكة، والخدوش تغطي دروعهنّ جرّاء ضربات المخالب أثناء المعارك.

انقضت عدّة ساعات وهنّ يمضين قدماً إلى الأمام. اجتزنَ عدّة مدن من الفيدراليّة، التي تنتصب عالياً في السماء أو تحت الأشجار. مدن بنات سلالة الني: يودو – لو – بيكان (أكبر منتجة للحبوب)، جيو – لي – أيكان (والتي هزمت فيالق قاتلاتها منذ عامين تحالف أعشاش الأرَضة الجنوبيّة)، زيدي – باي – ناكان (مشهورة بمختبراتها الكيميائية القادرة على إنتاج أحماض قتالية شديدة التركيز)، لي – فيو – كان (المشهورة بخمور الحشرة القرمزية الذي له طعم صمغ فاخر).

فالنّمل الأصهب لا ينتظم داخل مدن فقط وإنّما أيضاً ضمن ائتلاف مدن، فالقوّة تكمن في الوحدة. في إقليم الجورا الفرنسي، يمكن رؤية فيدراليّة تضمّ 15000 عشّاً من النّمل الأصهب على مساحة 80 هكتاراً وعدد سكانها يزيد عن 200 مليون فرد.

لم تبلغ بيل – أو – كان هذا الشّأْوُ بعد. هي لم تزل فيدراليّة شابّة، أسّست سلالتها الأصلية قبل خمسة آلاف سنة. وترجح أسطورة محليّة، أنه ربما تاهت ابنة في الماضي أثناء عاصفة هوجاء ألقت بها هنا. وبما أنّها لم تتمكّن من العودة للالتحاق بفيدراليّتها، أسّست بيل – أو – كان، ومن بيل – أو – كان تحدّرت الفيدراليّة الكبرى ومئات الأجيال من ملكات النمي اللواتي يؤلّفنها.

كان اسم تلك الملكة الأولى بيلو – كيو – كيوني. والذي يعني «النّملة التائهة» وجميع الملكات اللواتي تبوّأن عرش العشّ المركزي أخذن اسمها.

حتّى الآن لا تتألف بيل – أو – كان إلّا من مدينة مركزيّة كبيرة و64 مدينة متحدة موزّعة في الأرجاء. إلا أنّها استطاعت فرض نفسها منذ الآن كأكبر قوّة سياسيّة في هذا القطّاع من غابة فونتينبلو.

بعد اجتياز المدن الحليفة ولاسيّما لا – شولا – كان، المدينة البيلوكانية التي تقع في أقصى الجهة الغربية، تصل المستكشفات أمام كتل طينية صغيرة: عشوشٌ صيفيّة أو «مواقع متقدّمة». لا تزال خاوية، إلّا أنّ الرقم 327 كان يعلم أنّه عمّا قريب، مع بداية الصيد والحروب، ستعجّ بالجنديّات.

يواصلن مسيرهنّ بخطّ مستقيم. تنحدر فرقتهنّ صوب مرج فيرويّ واسع ثمّ تهبط تلّاً محاطاً بالأشواك. يغادرن منطقة أراضي الصيد. في البعيد، باتجاه الشمال، تظهر مدينة أعدائهم، شي - غا - بو. لا بدّ أنّ قاطنيها لا يزالون نياماً في مثل هذه الوقت.

يستأنفن طريقهنّ. لا تزال معظم الحيوانات حولهنّ مأخوذةً بالنعاس الشتويّ. بعض الذين استفاقوا باكراً يمدّون رؤوسهم خارج الجحور المتناثرة هنا وهناك. وما إن يلمحوا زيّ المحاربات حتّى يرتدّون مذعورين. لا يمكن الادعاء بأنّ النّمل معروف بودّه. وعلى الأخصّ حين يتقدّم على هذا النحو مدجّجاً بالسلاح حتّى قرون استشعاره.

تصل المستكشفات الآن إلى نهاية حدود الأراضي المعروفة. لم يبق أمامهنّ أيّة مدينة ابنة، ولا يلوح في الأفق أيّ موقع متقدّم، ولا أيّ درب محفور بأرجل مدبّبة. بالكاد بضعة آثار طفيفة لطريق قديم تشي رائحته بأنّ بيلوكانيات في الماضي مررن من هناك.

يتردّدن. ترتفع أمامهنّ أوراق أشجار غير مسجّلة ولا على أيّة خريطة شميّة لديهنّ. مشكّلة سقف معتم لا يخترقه الضوء. هذه الكتلة النباتيّة منثورة بدوابّ بدت أنّها مستعدّة لافتراسهنّ.

كيف يمكن تحذيرهم بعدم النزول إلى ذلك المكان؟

ألقى بسترته وقبّل عائلته.

– هل أفرغتما الأمتعة؟

– أجل، أبي.

– جيد. على فكرة، هل رأيتما المطبخ؟ يوجد باب في نهايته.

– بالمناسبة، كنت أريد أن أكلّمك عنّه، قالت لوسي، لابدّ أنّه قبو. حاولت فتحه لكنّه مغلق بمفتاح. فيه فجوة كبيرة. من القليل الذي يُرى منها يبدو أنّه عميق إلى الداخل. يتوجب علينا كسر القفل. دعنا نستفيد، على الأقل، من أنّ زوجي خبير أقفال.

ابتسمت، وألقت بنفسها بين ذراعيه. لوسي وجوناثان يعيشان معاً منذ ثلاثة عشر عاماً. تقابلا في المترو. في أحد الأيّام رمى شقيّ قنبلة مسيلة للدموع في المقصورة، لمجرّد أنّه كان يشعر بالسأم. وجد الركّاب أنفسهم على الأرض دموعهم منهمرة ورئاتهم تكاد تتمزّق من السعال. سقط لوسي وجوناثان فوق بعضهما. ولمّا انتهيا من نوبة السعال والدموع، عرض جوناثان أن يرافقها إلى بيتها. ثمّ دعاها إلى إحدى أوائل تجمّعاته اليوتوبيّه: كان المكان قرب «محطّة الشمال» في باريس. وبعد ثلاثة أشهر قرّرا الزواج.

– لا.

– ما الذي تقصده بـ «لا»؟

– لا، لن نكسر القفل ولن نستعمل هذا القبو. ولا ينبغي أن نأتي على ذكره، لا ينبغي حتّى الاقتراب منه، حذار من التفكير بفتحه.

- هل تمزح؟ أفصح!

لم يفكّر جوناثان في إيجاد مبرّر مقنع يحول دون النزول إلى القبو. ودون أن يقصد أثار عكس ما أراده، فأثار فضول زوجته وابنه. ما الذي يسعه فعله؟ أيشرح لهما أنّ ثمّة لغز حول الخال السخيّ، وأنّ هذا الخال قد حذّرهم من خطر النزول إلى القبو؟

هذا ليس مقنعاً. يبدو خرافةً بأحسن الأحوال. البشر يحبون المنطق، وحجّة كهذه لن تنطلي على لوسي ونيكولا.

غمغم:

- كاتب العدل هو الذي حذّرني.

- ممّ حذّرك؟

- هذا القبو يعجّ بالجرذان!

- جرذان؟ مقرف! ولكن لا بدّ أن يتسلّلوا عبر الفجوة، احتجّ الصبيّ.

- لا تخشيا ذلك، سنسدّ كافّة الفجوات.

أحسّ جوناثان بشيء من الرضا للتأثير الصغير الذي أحدثه. كان محظوظاً بأن خطرت له فكرة الجرذان.

- حسناً، اتفقنا، لن يقترب أحد من القبو، أليس كذلك؟

اتّجه إلى الحمّام. وتبعته لوسي على الفور.

– ذهبت لزيارة جدّتك؟

– بالضبط.

– والزيارة استغرقت منك الصبيحة كلّها؟

– وأيضاً بالضبط.

– لكنّك لن تقضـي وقتك بالتسـكّع هنا وهناك. أتتذكّر ما الذي كنت تقوله لرفاقك في مزرعة البيرنيه: «البطالة أمّ الموبقات» ينبغي أن تجد عملاً جديداً. مدخراتنا آخذة بالهبوط!

– ورثنا للتوّ شقّة بمساحة مائتي متر في حيّ راق على أطراف الغابة، وأنت تتكلّمين عن عمل! ألا يسعك الاستمتاع باللحظة الراهنة؟

أراد ضمّها، فارتدّت إلى الخلف.

– بلى، أعرف، وأعرف أيضـاً كيف أفكّر في المستقبل. ليس لديّ وظيفة، وأنت عاطل عن العمل، أخبرني كيف سنعيش بعد عام؟

– لا يزال لدينا مدّخرات.

– لا تكن غبيّاً، لدينا ما يكفي لنمضي بضعة أشهر مع التقتير، وبعد ذلك...

وضعت يدها على خصرها ونفخت صدرها.

– اسـمع جوناثان، لقد خسرت عملك لأنّك رفضت الذهاب إلى الأحياء الخطرة مسـاءً. حسـناً، أتفهّم ذلك، ولكنك تسـتطيع أن تجد عملاً في مكان آخر!

– بالطبع، سـأبحث عن عمل، ولكن دعيني فقط أجدّد أفكاري. وأعدك بأنّني لاحقاً، لنقل بعد شـهر، سأبحث في إعلانات الصحف عن وظيفة.

برز رأس أشـقر متبوع بكتلة من الصوف تنهض على أربع قوائم. نيكولا وورزازات.

– أبي، أتى رجل منذ قليل من أجل تجليد كتاب.

– كتاب؟ أيّ كتاب؟

– لا أعرف، تكلّم عن موسوعة كبيرة كتبها الخال إدمون.

– آه حقّاً... دخل البيت؟ هل وجدتموها؟

– لا، لم يبدو لي طيّباً، وبما أنّه لا يوجد كتاب على أيّة حال...

– أحسنت بنيّ، تصرّفت كما ينبغي.

تـرك هذا الخـبر جوناثان في حـيرة من أمـره، ثمّ ما لبـث أن أثار فضـوله. بحـث في الطبقة السـفليّة دون جدوى. بقـي بعدها لوقت طويـل في المطبخ، يتفحّص باب القبو، قفله الكبير وفجوته الواسـعة. أيّ لغز ينطبق عليه هذا الباب؟

يجب اختراق هذا الدّغل الشائك.

اقترحت أكبر المستكشفات سنّاً بأن تتّخذ المجموعة تشكيل «أفعى

ذات رأس كبير»، فهي الطريقة الأمثل للتقدّم داخل أرض غير مرحّبة. حظـي المقترح بإجماع فوري، إذ تبادرت الفكرة للجميع في اللحظة ذاتها.

تموضعت خمس مستطلعات في المقدمة على شكل مثلّث معكوس يمثّل عيون الفرقة. بخطوات قصيرة وحـذرة، أخذت تجسّ الأرض، تشمّ السماء، تتفحّص الطحالب. إذا كان كلّ شيء على ما يرام، تبعث برسالة شميّة تقول: «لا شـيء أمامنا!» ثمّ يرجعن إلى مؤخرة الموكب ليحلّ مكانهنّ أفراد «جدد» هـذا النظام التناوبي يمنح المجموعة هيئة حيوان طويل يظلّ «خطمه» على الدوام مفرط الحساسيّة.

«لا شـيء أمامنا!» تـتردّد عشرين مرّة بوضـوح. في المرّة الواحدة والعشريـن تنقطع بصـوت منفّر وكريـه. كانت إحدى المسـتطلعات قـد اقتربت بتهوّر من نبتة آكلة اللحوم. والتي تدعى مصـيدة فينوس. جذبتها إليها برائحتها المسكرة، ودبقها قيّد أرجلها.

انتهى كل شـيء في حينه. ملامسة الشـعيرات فعّل الآليّة المفصليّة العضويّة. الورقتان العريضتان ذوات المفاصل أطبقتا بإحكام. أهدابها الطويلة تكون بمثابة أسـنان، وحينما تتقاطع تتحوّل إلى قضبان متينة. وعندما تسحق الضحية يفرز النبات الوحشيّ أنزيماته المفرطة الشراهة، والقادرة على هضم أقسى القواقع.

هكذا تذوب النّملة. يتحوّل جسـدها بأكمله إلى نسغ فوّار. تطلق نداء استغاثة.

لكـن ما من شـيء يمكـن عمله لأجلهـا. في مثل هـذه الرحلات

الاستكشافيّة الطويلة لا يمكن تفادي مخاطر كهذه. أقصى ما يمكن فعله هو الإعلان «انتباه، خطر» في محيط المصيدة الطبيعيّة.

يستلمن الطريق الشمّي مجدّداً متناسيات الحدث. فيرومونات الإشارات الطرقيّة تدلّ على الاتجاه المطلوب. بعد اجتياز الأجمات، يواصلن السير قدماً باتّجاه الغرب. محافظات دوماً على زاوية 23° من مسقط الأشعة الشمسية. بالكاد يرتحن قليلاً حين يكون الطقس قارس البرودة أو قائظاً. ينبغي إنجاز عملهن بأسرع وقت إذا أردن العودة قبل نشوب الحرب.

حصل في السابق أن عادت المستكشفات فوجدن مدينتهنّ محاصرةً بفرق عدوّة. ولا يمكن القول إنّ كسر الحصار كان في يوم أمراً هيّناً.

تمّ الأمر، وجدن للتوّ فيرومون إشارة الطريق الذي يدلّ على مدخل الكهف. تتصاعد الحرارة من الأرض. يغصن أعمق داخل الأرض المحصبة.

كلّما كنّ يغرنّ أعمق كان يتناهى إلى سمعهن بصورة أوضح خرير خافت لمجرى مائي. إنّه نبع ساخن. يتصاعد منه بخار ورائحة كبريتية قويّة.

ترتوي النّمال.

يلاحظن في إحدى اللحظات وجود دابّة غريبة: كما لو أنّها كرة تنهض على أرجل. في واقع الأمر هو الجعران يدفع كرة من الروث والرمل يخفي بيوضه في داخلها. يحمل عبء «عالمه» مثل أطلس

الأسـطورة[2]. حـين يكون المنحـدر مؤاتياً تتدحرج الكـرة من تلقاء ذاتها ويتبعها. بينمـا في الاتجاه المعاكس، يلهث من التعب، يزلق وفي أغلب الأوقات يعاود النزول لإحضارها. من الغريب رؤية الجعران في الجوار، إذ أنّ معظم تواجده يكون في المناطق الحارّة.

تسـمح له البيلوكانيـات بالمرور، فلحمه على أيّـة حال ليس لذيذ الطعم، علاوة على أن درعه الثقيل يجعل من حمله أمراً شاقّاً.

ترمح هيئة سوداء عن يسارهنّ محاولة الاختباء في تجويف صخري. إنّه أبو مقص. وهذا بالمقابل شـهيّ الطعم. كانت أكبر المستكشـفات سـنّاً هي الأسرع، لوت بطنها تحت عنقها آخذة وضعيّة الرمي متوازنة برجليهـا الخلفيتين، تسـدّد غريزيّاً وتطلق من بعيـد قطرة من حمض النّمليـك. العصـارة المدمّرة والمركّزة بنسـبة تزيد عن 40 بالمئة تشـقّ الهواء.

إصابة محقّقة.

صـعق أبو مقصـ أثناء جريـه. حمضـ النّمليك المركّـز 40 بالمئة ليس حليب أطفال. نسـبة 40 بالألف حارقة جداً، فكيف 40 بالمئة، يـا له من أثر! هوت الحشـرة، واندفع الجميـع لأكل اللحم المحروق. مستكشـفات الخريف أعطين فيرومونات جيدة. يبدو أنّ هذه الناحية غنيّة بالطرائد وستكون منطقة صيد وفير.

ينزلن جوف بئر ارتوازي مثيرات الذعر بين جميع صنوف الهوام

---

2. Atlas: أحـد العمالقة من سـلالة التيتان الذيـن حاربوا الآلهـة الأولمبية، فعاقبه كبيرهم زيوس بأن يحمل قبّة السماء على كتفيه إلى الأبد.

الجوفيــة المجهولــة إلى الآن. يحاول خفّاش إنهاء زيارتهــنّ، لكنّهنّ يجبرنه على الفرار بغمامة من حمض النّمليك على وجهه.

يواصــلن في الأيــام التالية تمشــيط المغــارة الحــارّة، وتجميع جثث حيوانات صــغيرة بيضــاء وبقايا فطور خضراء فاتحة. يزرعن من الغدد الشرجيّــة فيرومونات إشــارات طرقيّــة جديدة، ستســمح لأخواتهن مستقبلاً بأن يأتين ليصطدن في هذا المكان دون مشقّة.

نجحت المهمّة. واتسعت الأرض ذراعاً إلى هناك، خلف الأجمات الغربية. بينما يتهيأن لأخذ طريق العودة، محمّلات بمؤونة ثقيلة، يرفعن علــم الفيدراليّة الكيميائي في تلك المنطقــة، حيث أخذ عطره يرفرف خفّاقاً في الهواء: «بيل – أو – كان!»

– لو تكرّمت أعد ما قلت؟

– ويلز، أنا ابن أخته لإدمون ويلز.

انشقّ الباب عن رجل طويل، يقارب المترين.

– الســيد جازون براجيل؟... عــذراً على الإزعــاج، أودّ التكلم معك بخصــوص خالي. لم أعرفــه غير أنّ جدّتــي أخبرتني أنّك كنت أعزّ أصدقائه.

– تفضّل لو سمحت... ما الذي تريد معرفته عن إدمون؟

– كل شيء. لم أعرفه سابقاً وآسف لذلك...

– همم. فهمت. بأيّة حال، إدمون من الأشخاص الذين يمكن أن نعدّهم ألغازاً حيّة.

– كنت تعرفه جيّداً؟

– من بإمكانه أن يدعي معرفته بأي شخص أياً يكن؟ فلنقل كنّا نسير جنباً إلى جنب و لم يجد أيٌّ منّا ضيراً في ذلك.

– كيف تعارفتما؟

– في كلّية البيولوجيا. كنت أعمل على النباتات وهو كان يعمل على البكتيريا.

– عالمان متوازيان أيضاً.

– بلى، غير أنّ عالمي أكثر وحشية، أردف جازون براجيل، وهو يشير إلى خليط فوضويّ من النباتات الخضراء التي تحتلّ حجرة سفرته. أتراها؟ جميعها تتنافس وهي مستعدات لقتل بعضها بعضاً لأجل شعاع ضوء أو نقطة ماء. فأوّل ما تكون ورقةً في الظلّ حتّى تتخلى النبتة عنها وتتوسّع الأوراق المجاورة لها على حسابها. حقّاً، عالم النباتات هو عالم بلا رحمة...

– وبكتيريا إدمون؟

– هو ذاته كان يصرّح أنه لا يفعل أكثر من دراسة أسلافه. لنقل أنّه كان يعود في شجرة العائلة أبعد قليلاً من الطبيعيّ...

– لماذا البكتيريا؟ وليس القرود أو الأسماك؟

– كان يريـد فهم الخليّة في مرحلتها البدئيّة. بما أن الإنسـان بنظره لا يعـدو أن يكون تكتّل خلايا، فكان لزاماً عليه فهم «سـيكولوجيا» الخليّـة بعمق ليسـتخلص منها عمل المجموع. فقـد كان يأخذ حرفيّاً بمقولة «قضـية ضـخمة ومعقّدة ليست في الواقع سـوى مجموعة من القضايا الصغيرة والبسيطة».

– ألم يعمل إلّا على البكتيريا؟

– لا، لا. كان نوعاً من المتصـوّفة، عالم شـموليٌّ بحق، كان يودّ لو يعرف كلّ شـيء. وكان له أيضاً نزواته... فكان مثلاً يحاول التحكّم بخفقات قلبه.

– ولكنّ هذا مستحيل!

– يقال أنّ بعض ممارسـي اليوغا مـن الهنود والتبتيين يمتلكون هذه المهارة.

– وما الغاية؟

– لا أعلم... أمّا بالنسبة له، فقد أراد أن ينجح بإيقاف قلبه بشكل إرادي ليتمكّـن من الانتحار. كان يظـنُّ أنّه بهذه الطريقة يمتلك حرّية الخروج من اللعبة ساعةَ يشاء.

– ما الفائدة؟

– ربّما كان يخاف آلام الشيخوخة.

– همم... وماذا فعل بعد أن نال الدكتوراه في البيولوجيا؟

– توجّه للعمل في القطّاع الخاص، في شركة «Sweetmilk Corporation» التي تنتج بكتيريا حيويّة تدخل في تصنيع الألبان، أحرز فيها نجاحاً جيّداً. وقد اكتشف بكتيريا قادرةً ليس على إظهار الطعم فحسب، وإنّما الرائحة العطرة أيضاً! وحصل لقاء ذلك على جائزة أفضل ابتكار للعام 1963...

– ومن ثمّ؟

– من ثمّ تزوج من امرأة صينيّة تدعى لينغ مي. فتاة ناعمة، ضحوك. وسرعان ما ألان هذا الزواج طبعه النزق والمتذمّر، لقد كان متيّماً بها. ومنذ ذلك الحين لم أعد أراه إلّا نادراً. كما يحصل عادةً.

– سمعت أنّه سافر إلى أفريقيا.

– بلى، ذهب فيما بعد.

– بعد ماذا؟

– بعد المأساة. إذ أن لينغ مي أصيبت باللوكيميا. سرطان الدم الذي لا يرحم. فارقت الحياة بعد ثلاثة أشهر. المسكين... هو الذي أعلن جهاراً أنّ الخلايا مثيرة للاهتمام فيما البشر عديمي الأهمّية... كان الدرس قاسياً. وعجز عن فعل أيّ شيء. وبموازاة هذه الفاجعة، حدثت مشاحنات مع زملائه في «Sweetmilk Corporation». ترك على إثرها عمله لكي يبقى منهاراً في شقّته. كانت لينغ مي قد منحته ثانية الإيمان بالإنسانية، وفقدانها جعله يرتدّ إلى بغضه للبشر.

– غادر إلى أفريقيا لينسى لينغ مي؟

– ربّما. لكنه أراد بأيّة حال لأمَ الجرح باستغراقه في عمله كبيولوجي إلى أقصى الحدود. ولا بدّ أنّه وجد موضوعاً آخر استحوذ على ولعه. لا أعرف ما هو بالضبط، ولكن ليس البكتيريا. استقرّ في أفريقيا على الأرجح لأنّ معالجة موضوعه ستكون هناك أسهل. أرسل لي بطاقةً بريديةً، لم يخبرني بها إلّا أنّه كان مع فريق من المركز الوطني للبحث العلمي (CNRS)، وأنّه يعمل مع أحد، لا أعرفه، يدعى البروفيسور روزنفلت.

– عدت والتقيت بإدمون لاحقاً؟

– بلى، مرّة واحدة بالمصادفة، في الشانزليزيه. تحادثنا قليلاً. كان يبدو أنّه قد استعاد رغبته في الحياة. لكنّه ظلّ على مراوغته، وتملّص من جميع أسئلتي المهنيّة.

– يقال أيضاً أنّه كان يعدّ موسوعةً.

– هذا موضوعه الأقدم، إذ كانت غايته الكبرى تجميع كافّة معارفه في كتاب.

– هل سبق ورأيته؟

– لا. لا اعتقد أنّ أحداً رآه قطّ. وكما أعرف إدمون فلا بدّ أنّه خبّأه في أقاصي ألاسكا بحماية تنّين نافث للنار. عند هذه النقطة يتّضح وجه «الساحر الكبير» أكثر جلاءً.

كان جوناثان قد همّ ليستأذن بالانصراف.

– آه! سؤال آخر: هل تستطيع تشكيل أربعة مثلّثات متساوية الأضلاع بستّة أعواد ثقاب؟

– بالطبع. هذا اختباره المفضّل للذكاء.

– فما حلّها إذاً؟

انفجر جازون ضاحكاً.

– أمّا في هذا الخصوص، بلا شكّ، لن أعطيك الحلّ! كما كان يقول إدمون: «على كل شخص أن يجد طريقه بمفرده» وسترى عندئذ متعة الاكتشاف مضاعفةً.

مع كلّ كمّية اللحم المحمّلة على الظهور، بدا طريق العودة أطول من طريق الذهاب. تتقدّم الفرقة بخطو سريع مخافة أن تدهمهم مشقّات الليل.

تستطيع النّمال العمل أربعاً وعشرين ساعة على أربع وعشرين ساعة، ومن آذار إلى تشرين الثاني دون كلل أو تعب؛ ولكن أيّ هبوط سريع لدرجة الحرارة يدفعهنّ للنوم. لهذا السبب نادراً ما نشهد رحلة استكشافية تستغرق أكثر من يوم.

بقيت مدينة النّمال الصهباوات لزمن طويل تعمل على حلّ لهذه المشكلة. كانت تعلم أنه من الملحّ توسيع رقعة أراضي الصيد ومعرفة البلاد البعيدة. حيث تنمو نباتات أخرى وتعيش حيوانات أخرى وفق تقاليدَ مختلفة.

في الألفيّة الثمانمائة والخمسين، كان لدى ملكة صهباء تدعى بي - ستين - غا من سلالة الغا (سلالة شرقيّة، اندثرت منذ مئة ألف سنة) طموح مجنون لمعرفة «الحدود القصوى» للعالم. وقد أرسلت لهذه الغاية مئات الرحلات الاستكشافية إلى أربع جهات الريح. ولكن أيّاً منها لم يرجع.

الملكة الحالية، بيلو - كيو - كيوني، لم تكن مغاليةً إلى هذا الحدّ. فضولها لا يتعدى اكتشاف تلك الخنافس الذهبيّة التي تشبه أحجاراً كريمة (والتي نجدها في أقصى الجنوب)، أو بتأمل نباتات آكلة اللحوم والتي تأتيها أحياناً حيّة مقتلعة من جذورها، والتي كانت ترغب بالنجاح يوماً ما في تدجينها.

كانت بيلو - كيو - كيوني تعلم أنّ الطريقة المثلى لاكتشاف أراض جديدة هو توسيع الفيدراليّة أكثر. وتكثيف رحلات استكشافيّة لمسافات طويلة، تشييد مدن بنات أكثر، والاستمرار في زيادة المواقع المتقدّمة، وشنّ حرب على كلّ من تسوّل له نفسه الوقوف في وجه هذا التقدّم.

لا بدّ أنّ الاستيلاء على أقاصي العالم يستغرق وقتاً طويلاً، ولكنّ هذه الخطوات الصغيرة العنيدة تأتي متوافقةً مع الفلسفة العامة للنّمل، والقائمة على مبدأ «ببطء، ولكن دوماً إلى الأمام».

تضمّ اليوم فيدرالية بيل - أو - كان 64 مدينة ابنة، 64 مدينة تخضع لذات الرائحة. 64 مدينة تتواصل بشبكة مسالك محفورة يبلغ طولها 125 كيلومتراً ومسارات شميّة تبلغ 780 كيلومتراً. 64 مدينة متضامنة في الحروب كما في المجاعات.

مفهوم الفيدراليّة يسمح لبعض المدن بالتخصّص. وكانت بيلو - كيو - كيوني تحلم أن ترى يوماً مدينة لا تعالج إلّا الحبوب، وأخرى لا تتكفّل بغير باللحوم، وثالثة لا تكترث سوى بالحرب.

كان هذا الحلم لا يزال بعيداً.

وبأيّة حال، يتطابق هذا المفهوم مع مبدأ آخر من مبادئ الفلسفة الشاملة للنمل. «المستقبل للمتخصّصين».

لا تزال المستكشفات بعيدات عن المواقع المتقدّمة. يرفعن من وتيرة سرعتهنّ. عندما وصلن ثانية بالقرب من النبتة آكلة اللحوم، عرضت إحدى المقاتلات نزعها من جذورها وأخذها إلى بيلو - كيو - كيوني.

يعقدن حلقة نقاش قرني. يتحاورن مُرسِلات ومُستقبلات جزيئات مفرطة الصغر، أثيريّة وشمّية. إنّها الفيرومونات، هي في الواقع هرمونات قادرة على الخروج من أجسادهن. يمكننا أن نتصوّر كل جزئية كما لو أنّها حوض وتكون كل سمكة داخله بمثابة كلمة.

وبفضل الفيرومونات، يمكن للنّمال إجراء حوارات بمستويات غير نهائية. بالنظر إلى نزق حركة القرون، يبدو النقاش محتدماً.

ذلك عبء ثقيل.

أمّنا لا تعرف هذا الصنف من النبت.

سنجازف بتكبّد خسائر مما سيقلّل من عدد الأيدي التي تحمل الغنيمة.

حين ندجّن نباتات آكلة اللحوم ستتحوّل إلى أسلحة بكلّ معنى الكلمة، بمجرد زرعها على صفّ واحد سنتمكن من فتح عدّة جبهات.

إنّا متعبات والليل سيهبط.

توصــلن إلى التخلي عــن الفكرة، اجتزن النبتــة وأكملن طريقهنّ. حين اقتربت فرقتهنّ من غيضــة صغيرة مزهرة، لمح الذكر 327، الذي كان في المؤخرة، زهرةً حمراء تدعى (اللؤلؤية الصـغرى). لم ير مثيلاً لهذا الصنف في حياته. لم يتردّد.

لْم نأخذ مصيدة فينوس معنا لكنّ هذه سنأخذها.

ابتعد للحظة عن رفيقاته وقصّ بعناية ســاق الزهرة. تشــلك! شــدّ على اكتشافه وخفّ للّحاق برفيقاته.

غير أنّ زميلاته قد اختفين. الرحلة الاستكشــافية رقم واحد للسنة الجديـدة هي بالفعل أمامه، ولكن بأيّة حال... صــدمة عاطفيّة هائلة. تغلّب عليه التوتّر، وأخذت أرجله ترتجف. جميع رفيقاته جثث ملقاة على الأرض.

ما الذي يمكن أن يكون قد حدث؟

كانت غارةً صــاعقةً على الأرجح. لم يتح لهنّ أن يتّخذن وضــعيّة الاشتباك، كان الجميع لا يزلن بتشكيل «أفعى ذات رأس كبير».

يتفحّص الأجساد. ولا نقطة من الحمض قد أطلقت. لم يتح للنّمال الصهباوات حتّى إطلاق فيرومونات إنذارهنّ.

بدأ الذكر 327 بالتحقيق.

يفتش قــرني إحدى جثث أخواتــه. يقوم بتلامس شــمّي. ولا أيّ صورة كيميائيّة قد سجلت. كنّ يسرن ثمّ بغتة: انقطاع.

يجب الفهم، يجب الفهم. لا بدّ من وجود تفسير. يتطلّب ذلك أولاً تنظيف الأداة الحسّية. بمساعدة المخلبين المعكوفين لرجله الأماميّة، يقشط ساقيها الجبهيين، وهو يسحب رغوة حمض النّمليك التي أفرزته في بداية توترها. يطويهما إلى فمه ويلعقهما. ثمّ يجفّفهما على مهماز فرشاة صغيرة وضعتها الطبيعة ببراعة في أعلى مرفقه الثالث.

ينزل قرنيه الاستشعاريين إلى مستوى عينيه ثمّ يشغّلهما بتردّد بطيء تبلغ سرعته 300 ذبذبة / ثانية. لا شيء. يزيد السرعة تدريجيّاً: 500، 1000، 2000، 5000، 8000 ذبذبة / ثانية. تجاوز ثلثي قدرة استقباله. يبدأ على الفور بالتقاط أدقّ رائحة تحوم في المحيط: بخار الندى، غبار الطلع، أبواغ، ورائحة صغيرة شمّها من قبل ولكنّه يجد صعوبة في تمييزها.

يزيد السرعة إلى حدودها القصوى: 1200 ذبذبة / ثانية. وهو يحوم، قرناه الاستشعاريان أحدثا تيارات صغيرة من الهواء أخذت تشفط إليه كل ذرّات الغبار.

تمّ الأمر: ميّز هذه الرائحة الخفيفة. رائحة المتّهمات. لا يمكن أن يكونوا إلّا هنّ، جارات الشمال القساة والذين سبّبن في السنة الماضية الكثير من المشاكل.

إنّهنّ: نمال شي – غا – بو القزمات...

إذاً هنّ أيضاً، قد استيقظن منذ الآن. على الأرجح نصبن كميناً واستخدمن سلاحاً جديداً صاعقاً.

لا يمكن تبديد لحظة، يجب إنذار الفيدراليّة بأكملها.

«شعاع الليزر الخارق، هو الذي قضى عليهم جميعاً يا سيدي.

– شعاع الليزر؟

– أجل، سلاح جديد قادر أن يذيب عن مسافة بعيدة أكبر سفننا الفضائية. سيدي...

– تعتقد أنّهم...

– بلى، سيدي، سكّان الزّهرة ولا أحد غيرهم يستطيع توجيه مثل هذه الضربة. بصمتهم واضحة.

– في هذه الحال سيكون الردّ قاسياً. كم صاروخاً مقاتلاً بقي لدينا في نطاق الجوزاء؟

– أربعة، سيدي.

– ذلك لن يكفي أبداً، يجب طلب المدد بفرق من...»

– اترغب أن أضيف لك بعض الحساء؟

– لا شكراً، قال نيكولا وهو مأخوذ تماماً بالمشاهد.

– هيّا، انتبه إلى ما تأكله وإلا سنطفئ التلفزيون!

– أوه! أمي، أرجوك...

– ألم تملّ إلى الآن من هذه القصص عن أفراد صغار خُضر وكواكب بأسماء ماركات مساحيق الغسيل؟ سأل جوناثان.

– هذا يهمّني. وأنا واثقٌ أنّنا سنلتقي يوماً ما بسكّان الفضاء.

– هيهات، منذ زمن يتكلّمون عنهم!

– أرسلوا مِسْبَاراً إلى أقرب النجوم، يدعى ماركو بولو، وقد نعرف عمّا قريب من هم جيراننا.

– سيفشل كما فشلت المسابير الأخرى التي أرسلت لتلويث الفضاء. أؤكد لك أنّ هذا أمر بعيد المنال.

– ربّما، ولكن ما أدراك ألّا يكونون، سكان الفضاء، هم من سيأتون للقائنا؟ وبالمحصلة، لم يجدوا إلى الآن تفسيراً للشهادات التي صرّحت عن رؤيتها لأجسام غريبة.

– وإن يكن. ماذا سنستفيد من لقاء شعوب ذكيّة أخرى؟ حتماً سننتهي يوماً ما إلى محاربة بعضنا بعضاً، ألا توافق بأن ثمّة بين سكّان الأرض ما يكفي من المشاكل؟

– قد يكون الأمر شيّقاً. وربّما نجد أماكنَ جديدةً لقضاء العطلة.

– بالأحرى، سيكون لدينا مشاكل إضافيّة.

أمسك بذقن نيكولا.

– سترى غداً يا بني، حين تكبر، وستفكّر مثلي بأنّ الحيوان الوحيد المثير للولع حقّاً، الحيوان الوحيد الذي يمتاز ذكاؤه حقّاً عن ذكائنا، هو... المرأة!

احتجّت لوسي تكلّفاً، وضحكا معاً. بدا الامتعاض على نيكولا. على ما يبدو هكذا يكون مزاح الكبار... وأخذت يده تفتّش عن فروة الكلب المهدّئة.

لم يعثر على شيء تحت الطاولة.

– أين ذهب ورزازات؟

ليس في حجرة السفرة.

– ورزي! ورزي!

بدأ نيكولا يصفّر بأصابعه. كان الصفير عادةً يعطي نتيجة فوريّة: يُسمع النباح ويتبعه دبيب القوائم. صفّر ثانية. دون جدوى. أخذ يبحث في غرف الشقّة. لحق به أبواه. لم يعد للكلب وجود. كان الباب مغلقاً. لن يسعه الخروج بمفرده، فلم تتعلم الكلاب بعد استخدام المفاتيح.

تلقائياً اتّجهوا جميعاً إلى المطبخ وعلى وجه الدقّة إلى باب القبو. لم تكن الفجوة قد سدّت بعد. علاوة على أنّها واسعة بما يكفي ليمرّ منها حيوان بحجم ورزازات.

– إنّه هناك في الداخل، أنا متأكّد من أنّه هناك في الداخل! صرخ نيكولا. يجب أن نخرجه.

وكما لو أنّها إجابة على هذا المطلب، سُمِع نباحٌ متقطّع، ورغم أنه أتى من القبو بدا بعيداً جداً.

أقترب الجميع من الباب المحرّم. تدخّل جوناثان.

– سبق وقلت: لا أحد ينزل إلى القبو!

– لكن حبيبي، قالت لوسي، يجب أن نخرجه، ربّما هاجمته الجرذان، أنت قلت أنّ ثمّة فيه جرذان...

أظلم وجهه.

– الكلب غير مهمّ. غدا نشتري آخر.

بدا الصبيّ مذهولاً.

– ولكنّي لا أريد «آخر» يا أبي. ورزازات صديقي، لا يمكنني تركه يموت هكذا.

– ما الذي حصل لك؟ أضافت لوسي، أتركني أنزل أنا إذا كنت خائفاً!

– هل أنت خوّاف يا أبي، أأنت جبان؟

لم يعد جوناثان يتمالك نفسه، تمتم «حسناً سألقي نظرة»، وذهب يحضر مصباحاً يدويّاً، أضاء الفجوة. كان القبو معتماً، عتمةً دامسةً، عتمةً تبتلع كل شيء.

ارتعد، كان متحرّقاً للفكاك من هذه الورطة. إلّا أن زوجته وابنه كانا يدفعانه دفعاً نحو تلك الهاوية. أغرقت رأسه أفكار حارقة. رهابُ الظلمة كان يتغلّب عليه.

انفجر نيكولا منتحباً.

– مات! لا بدّ أنّه مات! وبسببك.

– ربّما كان مجروحاً، حاولت لوسي تهدئته، ينبغي النزول لنرى.

عاد جوناثان للتفكير برسالة إدمون التحذيرية. كانت نبرتها آمرةً. ولكن مَاذا عَسَاهُ يفعل؟ لا بدّ أنّ أحدهما سيفقد صبره في يوم ما وينزل ليرى. يجب إمساك الثور من قرنيه. فإمّا الآن أو أبداً. مسح بكفّه جبينه المتعرّق.

لا، لن يمرّ الأمر هكذا. أخيراً لديه الفرصة لمجابهة مخاوفه، عليه اتخاذ القرار، وتحدّي الخطر. تريد العتمة ازدراده؟ ليكن. كان مستعدّاً للذهاب إلى عمق الأشياء. على أيّة حال لم يبق لديه ما يخسره.

– سأنزل!

أحضر أدواته، ثمّ كسر القفل.

– لا تغادران مكانكما، مهما حدث، ولا تحاولان، على الأخصّ، أن تتبعاني أو تتصلا بالشرطة. انتظراني!

– تتكلم على نحو غريب إنّه مجرّد قبو، قبو كالموجود في سائر المباني.

– لستُ على هذه الدرجة من اليقين...

مضاء بقرص الشمس البرتقالي ساعة الغروب، كان الذكر 327، الناجيَ الوحيد في أوّل رحلة صيد لهذا الربيع، يركض بمفرده، وحيداً وحدةً لا تحتمل.

مرّ وقت طويل وأرجله تخوض في البرك والطين وتتعثّر بالورق

العفن. يبّست الريح شفاهه، وغلّف الغبار جسده بمعطف من كهرمان. لم يعد يشعر بعضلاته، وتكسّرت بعض مخالبه.

لكن بعد مدّة وجيزة، عند نهاية الخطّ الشميّ المندفع خلاله، تمكّن من تمييز هدفه. بين الكثبان التي تشكّل المدن البيلوكانية، أخذ شكل يكبر مع كل خطوة من خطواته، الهرم الضخم لمدينة بيلو - أو - كان، المدينة الأمّ، منارة شمّية تجتذبه وتشدّه إليها.

أخيراً، يصل الرقم 327 أسفل عشّ النّمل المهيب. رفع رأسه، لقد كبرت المدينة. فقد بُدئ بتشييد طبقة جديدة لحماية القبّة. قمّة جبل الغصينات كانت تداعب القمر.

يبحث الذكر الفتيّ لبرهة، فيعثر على مدخل سويّة الأرض لا يزال فاغراً، وسرعان ما يختفي داخلة.

وصل في اللحظة المناسبة. فقد عادت جميع العاملات والمحاربات اللواتي يعملن في الخارج، وكانت الحارسات يتهيّأن لسدّ المخارج للمحافظة على حرارة الداخل. ما إن اجتاز العتبة حتى سارعت البناءات بإغلاق الثقب وراءه، بصفقة تقريباً.

تمّ الأمر، ما عاد يظهر شيء من العالم الخارجي البارد والبربري. غاص الذكر 327 ثانية في الحضارة. بإمكانه من الآن فصاعداً الذوبان في القطيع المريح. لم يعد وحيداً، أصبح عديداً.

تقترب الحارسات اللواتي لم يتعرّفن عليه تحت غلاف الغبار، فيبثّ على الفور روائحه الشخصية، فيعود لهن الهدوء.

لاحظت عاملة روائح تعبه، فاقترحت عليه «التطاعم»، أي طقس وهب الجسد.

لكلّ نملة في بطنها شيء أشبه بالجيب، هو في الواقع معدة إضافيّة لا تهضم الطعام. معدة اجتماعيّة، بإمكانها تخزين الطعام داخلها، حيث يظلّ لأجل غير مسمّى سليماً وطازجاً. ثم بوسعها لاحقاً تجشّؤه وإرساله إلى معدتها «الهاضم الطبيعي»، أو استعادته ثانية ومنحه إلى أحد من أبناء جلدتها.

تتكرّر الحركات ذاتها دوماً. تبادر النّملة الواهبة بالاقتراب إلى موضوع رغبتها للتطاعم وهي تربّت على جمجمته، فإذا قبلت النّملة المعنية تخفض قرني استشعارها، أمّا إذا رفعتهما للأعلى فهي علامة رفض، أي أنّها ليست جائعة.

لم يتردّد الذكر 327. إذ أنّ مخزونه من الطاقة قليل إلى درجة شارف فيها على أن يصاب بالإغماء التصلّبي. يدخلان الفم بالفم، وتبدأ عملية إخراج الطعام. تستعيد الواهبة اللعاب أولاً، ثمّ العُسيل، فعصيدة الحبوب. إنّه لذيذ الطعم ومجدّد فعّال للقوى.

انتهت عملية الوهب، يفكّ الذكر عن العاملة. فجأةً يستعيد كلّ ما مرّ به، الأموات، الكمين. لا وقت يبدّده. يرفع قرنيه الاستشعاريين وبقطرات صغيرة يبثّ المعلومة في المحيط.

إنذار. إنّها الحرب. القزمات قضت على رحلتنا الاستكشافية الأولى. لديهم سلاح جديد أثره مدمّر. استعدوا للمعركة، لقد أعلنت الحرب.

تنسـحب الحارسـة، إذ أنّ روائح الإنذار تشوّش عقلها. سرعان ما تحلّق حشد حول الذكر 327.

ما الذي حدث؟

ما الذي يجري؟

يقول إنّ الحرب أعلنت؟

هل لديه أدلّة؟

هرعت النمال إليه من كلّ حدب وصوب.

يتكلّم عن سلاح جديد وعن رحلة استكشافيّة هلكت.

هذا خطير

هل لديه أدلّة؟

أصبح الذكر وسط خثرة من النّمل.

إنذار، إنذار، الحرب أعلنت، استعدوا للمعركة!

هل لديه أدلّة؟

أخذ الجميع يردّد هذه الجملة الشميّة.

لا، ليس لديه أدلّة. من هول صـدمته نسـي إحضـار أدلّة. تتحرّك قرون الاستشعار، وتهتزّ الرؤوس مشكّكة.

أين حصل هذا؟

في غـرب لا – شـولا – كان، بـين مدننا ونقطة الصيد الجديـدة التي وجدها المستطلعون. هناك حيث تقوم القزمات بدوريّات متكرّرة.

هـذا مستحيل، فقـد عادت عيوننا من هناك وأكّـدوا: أنّ القزمات لم تستيقظ بعد!

قرن استشـعار مجهول الهويّة هو من بثّ تلك الجملة الفيرومونية. تفرّق الحشـد على إثرها، صـدّقت تلك الجملة، فيما هو لم يصـدّق. صـحيح أن نبرته صـادقة، لكنّ حكايته غير قابلة للتصديق. فحروب الربيع عادة لا تبدأ مبكرة إلى هذا الحدّ. ومن الجنون أن تهجم القزمات ولّما يسـتيقظن جميعاً بعد. ينفضّ عنه الجميـع، ويعود كلٌّ إلى وظيفته دون اكتراث لما نقل الذكر 327.

الناجـي الوحيـد لأوّل رحلة صـيد استكشـافيّة أصـابه الوجوم. فأولئـك الأموات، يا للعنـة، لم يختلقهم! وفي النهاية سـيلحظن بأنّ عدد عناصر طبقة المحاربات ليس كاملاً.

يتهاوى قرناه على جبينه بيأس. يشـعر بالخزيّ وبأنه ما من سـبب لوجوده. كمـا لو أنّه لم يعد يعيش لأجل الآخرين، وإنّما فقط من أجل نفسه.

ارتعد مشـمئزاً من هذه الفكرة، فهـرع مندفعاً إلى الأمام محموماً، يجمّع العاملات ليشـهدهن. إلّا أنهنّ ترددن حتّى بالوقوف وهو ينثر العبارة المكرّسة:

مستكشفاً، كنت الرّجْلَ

عند الواقعة كنت العين

وعند العودة، أنا المحفّز الموتور.

لم يبال أحد. سمعنَه دون اكتراث. ثمّ استكملن طريقهنّ دون ذعر. إذاً فليوقف التحفيز!

كانت قد مضت أربع ساعات على نزول جوناثان. بدأت حالة قلق تجتاح زوجته وابنه.

– أمي، هل نتصل بالشرطة؟

– لا، ليس بعد.

اقتربت من باب القبو.

– هل مات أبي؟ أخبريني أمي، هل مات أبي كما مات ورزي؟

– لا، لا، حبيبي لا تتلفّظ بالحماقات!

كانت لوسي متآكلة من القلق. انحنت لتفحّص الفجوة بمصباح

هالوجين قويّ، اشترته من مدّة وجيزة، بدا أنّها ميّزت إلى أبعد قليلاً... سلّماً حلزونيّاً.

شعر الرقم 327 باليأس. كما لو أنّه يتخبّط في الماء. يتحرّك دون تقدّم.

وقرّر أن يتكلّم مع بيلو - كيو - كيوني شخصياً. عمر الأمّ أربعة عشر شتاءً، ولديها خبرة لا تضاهى، بينما النمال اللواتي بلا جنس والذين يشكّلن غالبية الشعب يعشن ثلاث سنوات في الحدّ الأقصى. هي وحدها فقط تستطيع مساعدته على إيجاد طريقة لإيصال المعلومة.

أخذ الفتى الطريق السريع المفضي إلى قلب المدينة. بضعة آلاف من العاملات المثقلات بالبيض تهرول عبر ذلك النفق الواسع. تنقل أحمالها صُعداً من الطبقة الأربعين تحت الأرض إلى قاعة الحاضنات الشمسيّة الموجودة في الطبقة الخامسة والثلاثين فوق الأرض. تدفّق غزير من البيوض المحمولة عالياً تتحرّك من الأسفل إلى الأعلى ومن اليمين إلى اليسار.

يتوجب عليه أخذ الاتّجاه المعاكس، ليس الأمر بهذه السهولة، يدفع الرقم 327 بعض المربّيات اللواتي يسارعن إلى الصراخ بأنّ ثمّة مخرّب. هو ذاته يتعرّض للاصطدام، للدهس، للدفع، وللخرمشة. من طيب حظّه أنّ الممرّ لم يكن مكتظاً بأكمله، فتمكّن من شقّ طريق له وسط الكتلة التي كانت في حالة من الغليان.

يدلف لاحقاً داخلِ الأنفاق الضيقة، طريق أطول لكنّه أقلّ شقاء. يهرول بسرعة. متنقلاً من الشرايين إلى الشرايين الأصغر، ومنها إلى الأوردة والعروق الدقيقة، هكذا يجتاز كيلومترات، يعبر جسوراً، وأقواساً، يجتاز ساحات خالية وأخرى مكتظة.

بفضل عُيينات جبينه الثلاث، والتي تتيح له الرؤية بالأشعة تحت الحمراء، يتقدّم بيسر وسط الظلمات. وهو يقترب من المدينة المحرّمة، كانت رائحة الأمّ المائلة للحلاوة تزداد عبقاً، والحارسات يزددن عدداً.

كان يوجد من كلّ فئات طبقة المحاربات، من كلّ الأحجام، ومن كلّ الأسلحة. من أصغر الفكوك المسنّنة إلى أطولها، من الأجساد القويّة المجهزة بدروع صدريّة قاسية كالخشب، إلى الرُّبَعُات بقرون استشعاريّة قصيرة، حتّى المدفعيّات ببطونها الرهيفة والطويلة، مذخّرة بشتّى أنواع السموم القاتلة.

ودون مشقّة، يجتاز الذكر 327 حواجز التصفية، مزوّداً بروائح جواز مروره الصالحة. الجنديّات في حالة من الهدوء، إذ يشعرن بأنّ الحروب الإقليمية الكبرى لا تزال بعيدة.

بات على مقربة من هدفه، يبرز تعريفاته للنمال البوّابات ثمّ يلج الممرّ النهائيّ المفضي إلى المقصورة الملكيّة.

توقف عند العتبة، مأخوذاً بسطوة الجمال المنبعث من فرادة المكان. قاعة مستديرة واسعة مشيّدة وفق قوانين المعمار والهندسة الدقيقة التي تورّثها الأمهات الملكات عبر الأجيال إلى بناتها من قرن استشعار إلى آخر.

ترتفع القبّة الرئيسية اثني عشر رأساً وقطرها ستّة وثلاثون (الرأس هو وحدة القياس المتداولة في الفيدراليّة، ويساوي الرأس 3 ميلِّمترات من المتداول عند البشر). أعمدة من الإسمنت الفريد يقوم عليها هذا المعبد الحشراتي، والذي تتخذ أرضيّته شكلاً مقعّراً لكي ترتدّ الجزيئات الشميّة المنبثّة من الأفراد لأطول وقت دون أن تمتصّها الجدران. حقّاً إنّه مدرجٌ شميٌّ مدهش.

ترتاح في الوسط سيّدة ضخمة مستلقية على بطنها. وبين الفينة والأخرى، تمدّ رجلاً نحو زهرة صفراء، فتطبق هذه الأخيرة بجفاء، إلّا أنّه سرعان ما تكون الرجل قد سحبت.

هذه السيدة، هي بيلو - كيو - كيوني.

بيلو - كيو - كيوني آخر ملكات النّمل الأصهب في المدينة المركزيّة.

بيلو - كيو - كيوني، البيّاضة الوحيدة، والدة سائر الأجساد وسائر الأرواح في القطيع.

بيلو - كيو - كيوني، التي تولّت الحكم قبل الحرب الكبرى مع النحل، إبّان احتلال أعشاش الأَرَضَة في منطقة الجنوب، وأثناء تهدئة مناطق العناكب، وخاضت حرب الاستنزاف المرعبة التي فرضتها زنابير السنديان، ومنذ العام الماضي هي من يتولّى تنسيق جهود المدن لمقاومة ضغط النمال القزمات عند الحدود الشماليّة.

بيلو - كيو - كيوني، هي من كسرت الرقم القياسي للعمر المديد.

بيلو - كيو - كيوني، أمّه.

هذا الصرح الحيّ هو الآن أمامه، على مقربة منه، كما في الماضي. إلّا أنّها الآن مرطّبة وتواظب عشرون من الوصيفات الشابّات على الاعتناء بها، بينما في الماضي كان هو الرقم 327 من يعتني بها بأرجله الصغيرة التي كانت تفتقر للخبرة.

تطبق النبتة الشابّة آكلة اللحوم فكيها فتبثّ الأمّ شكوى شمّية صغيرة. ما من أحد يعلم من أين أتاها هذا الولع بالنباتات المفترسة.

يدنو الرقم 327 منها. ليست الأمّ عن قرب مفرطة الجمال. لديها رأس متطاول إلى الأمام، مزوّد بعينين كرويتين ضخمتين تبدوان كأنّهما تنظران إلى كل مكان في الوقت عينه. عُييناتها التي ترى بالأشعة تحت الحمراء متقاربة وسط جبينها، بعكس قرني الاستشعار المزروعين بتباعد مبالغ به. هما طويلان وشديدي الخفّة ويهتزّان بذبذبات قصيرة تبدو مضبوطة ومحسوبة بدقّة بالغة.

منذ أيّام قليلة استفاقت بيلو - كيو - كيوني من نومها الكبير، ومنذ ذلك الحين وهي تبيض. اختلاجات مستمرّة تعبر بطنها، الذي أصبح أكبر من حجمه الطبيعيّ بعشرة أضعاف. في هذه اللحظة، تنزل ثمان بيضات هزال، بلون رماديّ فاتح له بريق لؤلؤي، آخر جيل بيلوكاني يبصر النور. المستقبل البيضويّ اللزج يهرب من أحشائها متدحرجاً في القاعة، فتستلمه المربّيات مباشرة للعناية به.

تعرّف الذكر الفتى على رائحة هذه البيوض. إنهنّ جنديّات عاقرات وذكور. لا تزال الحرارة منخفضة، و لم تنشط بعد غدة إنجاب

«الإناث». وأوّل ما يصبح الطقس مؤاتيا ستبيض الأمّ الاحتياجات المحدّدة للمدينة من شتى الطبقات. ستأتي عاملات ويقلن لها: «ينقص ساحقات حبوب أو مدفعيّات»، وهي ستزودهنّ حسب الطلب. ومن الوارد أيضاً أن تخرج بيلو - كيو - كيوني من مقصورتها وتذهب لاستنشاق الممرّات. لديها قرنا استشعار دقيقان لالتقاط أيّ عجز في هذه الطبقة أو تلك. وعلى الفور تكمل هذا النقص بالعناصر.

تنجب الأم بعد خمس بيضات ضعيفات قبل أن تلتفت إلى زائرها. تلمسه وتلعقه. على الدوام تكون لحظة التلامس مع اللعاب الملكيّ لحظة خارقة. ليس ذلك اللعاب مطهر شامل فحسب وإنّما أيضاً البلسم الشافي لكافّة الجروح باستثناء الأضرار داخل الرأس.

صحيح أنّ بيلو - كيو - كيوني لا يمكنها التعرّف بشكل شخصيّ على أيّ أحد من أبنائها الذين لا يحصون، إلّا أنّ ما يظهره هذا التمرين اللعابي أنّها تمكّنت من تمييز روائحه. وعرفت أنّه ابنها.

والآن يمكن للحوار القرني أن يبدأ.

أهلاً بك في فرج القطيع. تركتني ولكنك لا تستطيع منع نفسك من العودة إليّ.

جملة الأمّ الطقسية لأبنائها. بعد أن أوصلتها، تشتمّ فيرومونات أجزاء قرنيه الأحد عشر برصانة أثارت إعجاب الفتى 327... لقد فهمت أسباب زيارته... الرحلة الاستكشافيّة الأولى إلى منطقة الغرب أبيدت بأكملها، وكان يطفو إلى جوار الكارثة روائح للنمال القزمة، وعلى الأرجح أنهنّ اكتشفن سلاحاً سرّياً.

مستكشفاً، كان الرِجل.

وعند الواقعة، كان العين،

وعند العودة، أصبح المحفّز الموتور.

حسناً. إلّا أنّه قد عجز عن تحفيز القطيع. روائحه لم تقنع أحداً. ويعتقد أنّ بيل - كيو - كيوني هي الوحيدة التي ستعرف كيف توصل الرسالة وتعطي الإنذار.

تشمّه الأمّ بعناية مضاعفة، وتلتقط أدقّ الجزئيات المنطلقة من مفاصله وأرجله. يوجد هناك بالفعل آثار للموت وآثار لغز. وقد يكون هذا نذير حرب... وقد لا يكون...

تخبره أنّها بكلّ الأحوال لا تملك أيّة سلطة سياسية بهذا الخصوص. ففي القطيع عادة، تؤخذ القرارات بعد مشاورات مستمرّة، من خلال تشكيل مجموعات عمل موجّهة على مشاريع منتقاة بشكل حرّ. فإذا عجز عن توليد إحدى هذه المراكز العصبية، بالمختصر تشكيل مجموعة، فإنّ خبرته لن تفيده بشيء.

هي لن تستطيع حتّى تقديم العون له.

يصرّ الذكر 327. لا يريد تفويت فرصة وجوده أمام محاورة مستعدّة لسماعه حتّى النهاية، يبثّ مجموع قوى جزئياته الأكثر جاذبية.

وبحسبه، ينبغي أن تولّى هذه الكارثة الأولويّة القصوى، وينبغي على الفور إرسال عيون لمحاولة معرفة حقيقة هذا السلاح السرّي.

تجيب بيلو - كيو - كيوني بأنّ القطيع يرزح تحت العديد من «القضايا ذات الأولوية». ليس فقط أنّ الاستيقاظ الربيعيّ لم يكتمل بعد، ولكن غلاف المدينة ما زال في طور الإنشاء. وطالما أنّ طبقته الأخيرة من العيدان الصغيرة لم توضع بعد فسيكون من المجازفة الذهاب إلى الحرب. علاوةً على ذلك، معظم القطيع يعاني من نقص في البروتينات والسكّر. وأخيراً، يلزم التحضير منذ الآن لحفل الانبعاث. وكلّ ذلك يتطلّب طاقات كبيرة من كل فرد. حتى الجاسوسات يعملن فوق طاقتهن. وهذا ما يفسّر لماذا لم تجد رسالته القلقة أحداً يصغي إليها.

مرّت هنيهات، وهو لا يسمع إلّا شفاه العاملات تلعق قوقعة الأمّ، والتي هي بدورها تداعب نبتتها آكلة اللحوم. تلتوي إلى أن تضع بطنها تحت صدرها فيما تتدلّى رجلاها الخلفيتان. وما أن يطبق الفكان النباتيان ثانية حتى تسحب الرجل برشاقة، ثمّ تشهده على هذا السلاح الذي يمكن أن يكون مدهشاً.

بالإمكان أن نرفع جداراً من النباتات آكلة اللحوم لكي نحمي الحدود الغربيّة الشماليّة. المشكلة الوحيدة أن هذه الوحوش النباتيّة لا تفرّق إلى الآن بين أبناء المدينة والغرباء...

يعود الرقم 327 إلى موضوع هاجسه. سألته بيلو - كيو - كيوني عن عدد الأشخاص الذين قضوا في «الحادثة». يجيبها ثمانية وعشرون. وهل جميعهنّ من فئة المحاربات المستكشفات؟ أجل،

كان الذكر الوحيد في الرحلة الاستكشافية. إذاً تجمّع زخمها وتبيض بتتابع ثمان وعشرين لؤلؤة، العدد عينه من الأخوات السائلة.

ثمان وعشرون نملةً ماتت، هذه ثمانٍ وعشرون بيضةً لتحلّ مكانها.

سيجيء يوم بلا ريب: سيجيء يوم، بلا ريب، تلمس فيه أصابع هذه الصفحات، ويقع بصر على هذه الكلمات، وسوف تجهد عقول باستجلاء معناها.

لا أودّ لذلك اليوم أن يأتي مبكراً، فقد تكون النتائج مرعبةً. لا زلت أصارع، في لحظة تدوّيني هذه الكلمات، من أجل المحافظة على سرّي.

لكن، لا بدّ لنا أن نعرف يوماً ما الذي حصل، حتى الأسرار المدفونة في أقاصي الداخل سيأتي يوم وتطفو على وجه البحيرة. فالوقت عدوّ الأسرار اللدود. بدايةً وقبل أيّ شيء، بغضّ النظر عمّن تكونون، أحييكم. قد يكون مضى على موتي حين ستقرؤنني نحو عشر سنوات أو حتّى مائة سنة. هذا ما أرجوه على أية حال.

أحياناً ينتابني الندم جرّاء حصولي على هذه المعرفة. لكنّي إنسان وأدرك، وإن كان تعاطفي مع الجنس البشري في هذه الأثناء في مرتبته الدنيا، كافّة واجباتي المفروضة كوني خلقت يوماً بينكم، أناسَ هذه الأرض.

لذا يتوجّب عليّ أن أبلغكم قصّتي.

مع قليل من التعمّق، نجد أن جميع القصص تتشابه. ففي البداية ثمّة موضوع نائم «داخل صيرورته». يتعرّض لأزمة. هذه الأزمة تجبره على التصرّف. وبحسب تصرّفه، يموت أو يتطوّر. أوّل قصة سأرويها لكم هي قصّة عالمنا. إذ أنّنا نعيش في

داخلـه ولأنّ الأشيـاء، صغيرة كانـت أم كبـيرة، تخضع للقوانـين ذاتها وتعيش الروابط التكافليّة عينها.

مثـلاً، أنتم الذين تقلّبون هذه الصفحة، تحفّون سبابتكم على نقطة من سليلوز الـورق. تتولّـد عن هذا التلامس حـرارة ضئيلة. لكنّها حـرارة حقيقيّة مع ذلك. وإذا أرجعناها إلى الصغر اللامتناهي، فإنّ هذه الحرارة ستؤدي إلى قفزة إلكترون، سيترك ذرّته ويصطدم بجسيم آخر.

لكنّ هذا الجسيم حقيقة، «بشكل نسبي» يرى نفسه هائل الضخامة. إلى الحدّ الذي يجعل صدمته مع الإلكترون تمثّل انقلاباً حقيقياً. فقد كان في السابق جامداً، وفارغـاً، وبارداً. وها هو الآن أصبح، بسبب قلـب صفحتكم، في أزمة. تخطّطه الشـرارات الكبيرة. وبمجرّد هذه الحركة، حرّضتم شيئاً لا يسعنا يوماً التنبّؤ بكافّة عواقبـه. ربّمـا عوالم خلقـت، وخلق أناس معهـا، وسيكتشف هـؤلاء الناس علم المعـادن، والأطباق البروفانسيـة، ورحلات النجوم. وقد يتضـح أنهم أكثر ذكاء منّـا. ولولا إصبعكم التي حرّضت حرارةً، وتحديـداً في هذا المكان من الورقة، ما كان سيكون لهم وجود.

بموازاة ذلك، عالمنا يجد مكانه أيضاً في زاوية صفحة في كتاب، في نعل حذاء أو في رغوة صفيحة بيرة لحضارة أخرى عملاقة. على الأرجح لن يتمكّن جيلنا من إثبـات ذلك. لكنّ ما نعرفـه، أنّه منذ زمن غابر كان عالمنا أو الجسيم الذي يحتوي على عالمنا، فارغاً، وبارداً، ومظلماً، وساكناً. ثمّ أحد ما أو شيء ما حرّض الأزمة. قُلبـت صفحـة، مُشِي على حجر، كُشِطـت رغوة عن صفيحة البـيرة. بالمحصلة حدثـت الصدمـة، واستيقظ جسيمنا. نحن نعلم أنه حـدث عندنا انفجار ضخم. سُمّي «بيغ بانغ».

كل ثانيـة، في الكبـير اللانهائي، في الصغـير اللانهائي، في البعيـد اللانهائي،

يمكن أن يوجد عالماً كما وجد عالمنا منذ خمسة عشر مليار سنة. نحن لا نعرف العوالم الأخرى. ولكن بالنسبة لعالمنا فإنّنا نعرف أنه بدأ بانفجار الذرّة «الأصغر» و«الأبسط»: الهيدروجين.

تخيّلوا إذاً هذا الفضاء الشاسع من الصمت قد أيقظه انفجار عملاق. لماذا قُلبت الصفحة، هناك في الأعلى؟ لماذا كشطت رغوة البيرة؟ ليس هذا مهمّاً. بالمحصلة الهيدروجين يحترق، وينفجر، ويتوهج. ضوء هائل يخدش نقاء الفضاء. تحدث أزمة. وتبدأ الأشياء الساكنة بالتحرّك، والباردة بالسخونة، والصامتة بالطنين.

في الحريق الأول يتحوّل الهيدروجين إلى هليوم، ذرّة الهليوم بالكاد أكثر تعقيداً من ذرّة الهيدروجين. ولكن يمكننا أن نستنتج من هذا التحوّل أوّل قاعدة كبيرة لعالمنا:

لا يلبث أن يزداد تعقيداً.

تبدو هذه القاعدة من البداهة. ولكن لا شيء يبرهن بأنّ العوالم المجاورة ليست مختلفة. ربما تتحوّل في أماكن أخرى لتكون أكثر دفئاً، أكثر قسوةً، أو أكثر لطفاً.

لدينا أيضاً تصبح الأمور أكثر دفئاً وأكثر قسوةً وأكثر لطفاً، ولكن ليس هذا القانون البدئي. هذه هوامش فقط، أمّا القانون الجذريّ، والذي تنتظم حوله الأشياء الأخرى فهو على الدوام: نحو الأكثر تعقيداً.

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

يهيم الذكر 327 في دهاليز جنوب المدينة. لم يهدأ. ولا يزال يجترّ جملته المشهورة إيّاها:

مستكشفاً، كان الرِجل.

وعند الواقعة كان العين،

وما إن عاد حتّى أصبح المحفّز الموتور.

لمـــاذا لا تؤتي هذه الجملــة أُكلها؟ أين يكمن الخلل؟ جســـده يفور بالمعلومة غير المستجابة. خلاصة الأمر بالنسبة له، أنّ القطيع قد جرح دون أن يلحظ ذلك. إلّا أنّه وهو محفّز الألم، واجبه يقتضي جعل المدينة تتفاعل.

أوه، ما أصعب أن تحمل في داخلك رسالة ألم ولا تجد قرن استشعار يســتقبلها! كـــم كان يتمنى لو يُنــزل هذا العبء عن كاهله، ويشـــارك الآخرين هذه المعرفة الفظيعة.

مرّت على مقربة منه نملة من الرسولات الحراريّة. أحسّت بكآبته، فظنّته لم يصـــحُ جيداً من ســـباته، فمنحتهُ سعرات شمســيّة. ممّا أعطاه بعض القوّة التي استخدمها على الفور في محاولة إقناعها.

إنذار، رحلة استكشافيّة قضي عليها في كمين نصبته القزمات، إنذار.

لكنّ نبرات الصدق التي كانت له في البداية لم تعد لديه. تمضي الرسولة الحراريّة في طريقها كما لو أنّها لم تسمع شيئاً. الرقم 327 لا يستسلم. يركض في الممرات ناثراً رسالته التحذيريّة في الأرجاء.

كانت بعض المحاربات يقفن من حين لآخر، يصغين إليه، ويحاورنه أحياناً، غير أنّ قصّته عن السلاح المدمّر يصعب تصديقها. وليس من مجموعة مستعدّة للقيام بتشكيل يؤدي مهمّة عسكريّة.

يمضي، خائر القوى.

فجأةً، وبينما كان يجتاز سرداباً خاوياً في الطبقة الرابعة تحت الأرض، يلتقط صوتاً خلفه. ثمّة من يتبعه.

يلتفت الذكر 327. ويفتّش الممرّ بعُييناته التي تلتقط الأشعة تحت الحمراء. يرى بقعاً حمراء وسوداء. ولكن لا أحد. غريب. قد يكون مخطئاً. غير أنّ الصوت لا يلبث أن يتردّد وراءه ثانية. سكريتش... تس... سكرتش... تس. لا بدّ أن أحداً يعرج برجلين من أرجله الستّة، وهو يقترب.

لكي يتأكّد من الظاهرة، بدأ ينعطف عند كلّ تقاطع، ثمّ يتوقف لهنيهة، فينقطع الصوت. وأوّل ما يعاود السير يعود الصوت يتردّد ثانية: سكريتش... تس، سكرتش... تس، سكرتش... تس.

أحد يتبعه بلا ريب.

أحد يتوارى ما إن يلتفت. سلوك غريب، وأمر لم يحدث من قبل. لماذا تتبع خليّة من القطيع خليّة أخرى دون التعريف عن نفسها؟ كل واحد في هذه المدينة جزء من الجميع وليس لدى أحد ما يخفيه.

لا يزال «الحضور» قائماً. ولا تزال مسافة تفصله عنه، ولا يزال يتخفّى سكريتش... تس، سكرتش... تس. كيف ينبغي أن يتصرّف؟ حينما كان لا يزال يرقة، علّمته المربّيات أنّ عليه دوماً مواجهة الخطر. توقف وتصنّع التشاغل بتنظيف نفسه. لم يعد الحضور بعيداً عنه. يشعر به فيحرّك قرنيه مقلّداً حركات التنظيف. تمّ الأمر، لمح جزئيات شميّة للذي يطارده، إنّها محاربة صغيرة عمرها سنة. تفوح منها رائحة غريبة، تحجب تفاصيل تعريفها المتداولة، ليس من السهل تحديد الرائحة، تبدو كأنّها رائحة صخر.

لم تعد المحاربة الصغيرة تحرص على الاختباء. سكريتش... تس، سكرتش... تس... يراها الآن جيداً بالأشعة تحت الحمراء. بالفعل لديها رجلان ناقصتان. ورائحة الصخر التي لها تزداد عبقاً.

يرسل.

من هناك؟

لا جواب.

لماذا تتبعيني؟

لا جواب.

يحاول تناسي الأمر، فيستأنف طريقه ولكنّه يكتشف مباشرة حضوراً آخر آت من الجهة المقابلة. محاربة ضخمة هذه المرّة. الرواق ضيّق ولن يتمكّن من المرور.

هل يستدير على عقبه؟ وهذا يعني مواجهة مع العرجاء، التي أخذت تغذّ الخطى باتجاهه.

لقد علق.

الآن يشعر بذلك: إنّهما محاربتان وتحملان رائحة الصخر ذاتها. تفتح الضخمة مقصّاتها الطويلة.

إنّه فخٌّ!

من غير الوارد في المدينة أن تقدم نملة على قتل نملة أخرى. هل ثمّة خلل يا ترى في الجهاز المناعي؟ ألم تتعرّفا على روائحه الثبوتيّة؟ هل ظنّتا أنّه جسم غريب؟ لا يعقل ذلك مطلقاً، وكما لو أنّ معدته قرّرت التخلّص من أمعائه... يزيد الرقم 327 من قوّة بثه:

إنّي مثلكم خلية من قطيع. نحن ننتمي إلى الجسم عينه.

إنّهما جنديتان فتيّتان، لا بدّ أنّهما أساءتا الفهم. إرسالاته لم تجد أذناً صاغية. وثبت الصغيرة وأمسكته من الجناحين فيما أخذت الضخمة تضغط على رأسه بالفكّين. ثمّ بدأتا تسحبانه وهو مقيّد بإحكام على هذا النحو باتجاه مكبّ النفايات.

أخذ الذكر 327 يقاوم. ويبثّ من جزئه الخاص بالحوار الجنسي

شتّى أنواع المشاعر، والتي لا يعرفها عديمو الجنس، عابراً من حالة اللافهم إلى حالة الذعر.

وكيلا تتلوث العرجاء بهذه الأفكار «المجرّدة» تبدأ، وهي ملتصقة بدرعه الظهري الأوسط، قشط قرنيه الاستشعاريين بفكيّها. بهذه الحركة كانت تنزع عنه كافة الفيرومونات، وعلى الخصوص روائح جواز مروره. وبأيّة حال لن تفيده بشيء حيثما هو ذاهب...

يتقدّم الثلاثي الفظيع جرّاً في الممرات الأقلّ اكتظاظاً. تواصل العرجاء الصغيرة عملها التنظيفيّ بدقّة كأنّها لا تريد ترك أيّة معلومة على رأسه. يكفّ الذكر عن المقاومة. يستسلم، ويهيئ نفسه للإنطفاء بإبطاء ضربات قلبه.

«لماذا كلّ هذا العنف يا أخوتي، لماذا كلّ هذه الكراهيّة؟ لماذا؟

نحن واحد، نحن جسد واحد، جميعنا أبناء الأرض وأبناء الله.

فلنكفّ الآن عن شجاراتنا عديمة الجدوى. القرن الثاني والعشرون إمّا سيكون روحانيّاً أوفلن يكون. فلنترك خلافاتنا القديمة المؤسّسة على الكبرياء والنفاق.

الفردانية، هنا مكمن عدوّنا الحقيقيّ! رُبّ أخ في الحاجة، تتركونه يموت من الجوع، لم تعودوا جديرين بالانتماء إلى مجتمع العالم الواسع. إذا أتاكم شخص ضائع يطلب العون والمساعدة، تغلقون الباب في وجهه. أنتم لستم منّا.

أعرفكم، أصحاب الضمائر التي ترفل بالحرير! لا تفكرون إلّا براحتكم الشخصيّة، لا ترغبون إلّا بأمجادكم الفرديّة، بالسعادة، أجل، ولكن سعادتكم الشخصيّة فقط وسعادة عائلتكم الصغيرة.

أعرفكم، أقول لكم. أنت، وأنت، وأنت أيضاً، وأنت! كفوا عن الابتسام أمام شاشاتكم، إني أحدثكم عن أخطار جدّية، أكلّمكم عن مستقبل الإنسانيّة. لا يمكن الاستمرار بهذا الشكل. طريقة الحياة على هذا النحو ليس لها معنى. نبذّر كل شيء، ندمّر كل شيء. دمرت الغابات من أجل مناديل ترمى بعد الاستعمال. كل شيء بات يرمى: أدوات الطعام، الأقلام، الملابس، آلات التصوير، السيارات، ودون أن تلحظوا أنتم أيضاً أصبحتم تُرمَون بعد الاستعمال. دعوا هذا النمط من الحياة السطحيّة. عليكم أن تتخلوا عنه اليوم قبل أن يأتي غداً من يجبركم على التخلي عنه.

انضموا إلينا، التحقوا بجيشنا من المؤمنين. نحن جميعنا يا أخوتي جنود الله.»

تطلّ المذيعة على الشاشة. «قدمنا إليكم البرنامج الإنجيلي، والذي خاطبكم خلاله الأب ماكدونالد أب كنيسة «مجيئيو اليوم الخامس والأربعين» الجديدة، وبرعاية شركة «Sweetmilk» للمواد المجمّدة. وقد بثّ عبر القمر الصناعيّ المباشر إلى أنحاء عدّة من العالم. والآن، وقبل أن نعرض لكم مسلسل الخيال العلمي «كائن الفضاء وأعتزّ بذلك» نترككم مع الفقرة الإعلانيّة»

كانت لوسي كما نيكولا مشغولة بالتفكير وهي تشاهد التلفزيون. ثمان ساعات مضت وجوناثان لا يزال في القبو دون أيّ خبر!

اقتربت يدها من الهاتف. كان قد طلب منها بألّا تقوم بأيّ فعل، ولكن ماذا لو كان ميّتاً، أو عالقاً تحت أحجار متهدّمة؟

لم تكن تملك الشجاعة بعد على النزول. أخذت يدها سمّاعة الهاتف، وطلبت شرطة النجدة.

– ألو، الشرطة؟

– طلبت منك أن لا تتصلي، تناهى صوت ضعيف وخافت من المطبخ.

– أبي! أبي!

أغلقت بينما السمّاعة كانت تصدر: «ألو، تكلموا، أعطونا العنوان» كلاك، نقرة الإقفال.

– بلى، بلى، هذا أنا، لا داع للقلق. طلبت منكم أن تنتظروا بهدوء.

– لا داع للقلق؟ هذا كلام سهل!

ليس فقط أنّ جوناثان يحمل بيديه الجثة التي كانت ورزازات والذي ما عاد سوى كومة لحم ملطخة بالدماء، لكن الرجل ذاته تغيّر. يصعب التمييز إذا كان خائفاً أو مرهقاً، بالأحرى بدا مبتسماً. لا لم يكن الأمر كذلك، كيف يمكن القول؟ شعور بأنّه تقدّم في السنّ أو أنّه مريض. نظرته بدت محمومة، وشاحباً، كان يرتجف وبدا كما لو أنّه يلهث.

حين رأى نيكولا جسد كلبه المعذّب، انفجر بالبكاء. كما لو أنّ

جسد الكلب المسكين قد شرّط بمئات الضربات القصيرة من شفرة حلاقة.

وضع على جريدة مفرودة.

لم يتوقف نيكولا عن الانتحاب على فقدان صديقه. كلّ شيء انتهى. لن يعود يوماً إلى رؤيته يقفز على الجدار حين يلفظ كلمة «هرّ». لن يعود يوماً إلى رؤيته وهو يفتح مقبض الباب بقفزه المرح. لن ينقذه أبداً بعد اليوم من كلاب (الراعي الألماني) مثليّة الجنس.

ورزازات مات.

– غداً سنأخذه إلى مقبرة بير – لاشيز للكلاب، قال جوناثان مستسلماً. سنشتري له تابوتاً بأربعة آلاف وخمسمائة فرنك، تعرفه، ذاك الذي يمكن وضع صورة أعلاه.

– أوه بلى! أوه بلى! قال نيكولا بين شهقتين، أقلّ ما يستحقّه.

– ثمّ سنذهب إلى SPA (جمعية حماية الحيوان) وستختار حيواناً آخر. لماذا لا تختار كلباً مالطيّاً هذه المرّة؟ إنّه لطيف أيضاً.

كانت لوسي في حالة ذهول. لا تعرف بأيّ سؤال تبدأ. لماذا غاب طوال هذه المدّة؟ وما الذي حصل للكلب؟ وما الذي حصل له؟ هل هو جائع؟ هل فكّر بقلق أسرته؟

– ماذا يوجد هناك في الأسفل؟ قالت أخيراً بصوت خافت.

– لا شيء، لا شيء.

- أترى بأيّة حالة قد رجعت؟ والكلب... يبدو كما لو أنّه وقع في مفرمة كهربائية. ما الذي حدث له؟

مرّر جوناثان يده المتسخة على جبينه.

- كان كاتب العدل محقّاً، القبو في الأسفل يعجّ بالجرذان. تقطّع ورزازات من قبل جرذان هائجة.

- وأنت؟

ضحك ضحكة مكتومة.

- أنا حيوان أكبر، يخافونني.

- هذا جنون! ماذا فعلت في الأسفل طيلة الساعات الثماني؟ ماذا يوجد في قاع هذا القبو اللعين؟ انفجرت غاضبة.

- لا أعرف ماذا يوجد في قاعه. لم أصل إلى النهاية.

- لم تصل إلى النهاية!

- لا، إنّه عميق جداً جداً.

- ثماني ساعات و لم تصل إلى نهاية... قبونا!

- لا. وقفت حين رأيت الكلب. كان الدم يلطخ كل الأمكنة. أتعلمين صارع ورزازات ببسالة. مدهش أنّ كلباً بهذا الحجم تمكّن من المقاومة طوال ذلك الوقت.

– ولكن أين وقفت؟ في منتصف الطريق؟

– كيف لي أن أعلم؟ على أيّة حال لم يكن بوسعي المواصلة. أنا أيضاً كنت خائفاً. أنت تعلمين أنّي لا أحتمل الظلمة والعنف. أيّ أحد كان سيقف في مكاني. وعلى العموم لا يمكننا الاستمرار في المجهول إلى ما لانهاية. وفكّرت بك أيضاً، فكرت بكما. لا يمكنك أن تتصوّري كم هو... حالك. إنّه الموت.

وهو ينهي هذه الجملة ارتفعت زاوية فمه اليسرى بحركة غير إراديّة. لم تره يوماً بهذه الحالة. ففهمت أنّه ينبغي ألّا تضغط عليه أكثر. طوّقت خصره وقبّلت شفتيه الباردتين.

– أهدأ، انتهى الأمر. سنقفل الباب ولن نعود إلى إثارة هذا الموضوع مجدّداً.

ارتدّ إلى الوراء.

– لا. لا، لم ينته الأمر بعد. توقفت الآن بسبب تلك المنطقة الحمراء. أيّ أحد مكاني كان سيقف حيث وقفت. نحن دوماً مرعوبون من العنف، حتى حين يمارس على الحيوانات. ولكن لا أستطيع البقاء هكذا، ربّما كنت قريباً من الهدف...

– لا تقل لي بأنّك ستعود إلى هناك!

– بلى، إدمون اجتازها، وأنا سأجتازها أيضاً.

– إدمون، خالك إدمون؟

– عمل شيئاً هناك في الأسفل وأريد معرفة ما هو.

خنقت لوسي تنهيدة.

– إذا سمحت، لأجل حبّنا أنا ونيكولا، لا تعاود النزول.

– ليس لديّ الخيار.

عاد وظهر التشنّج اللاإراديّ ذاته في فمه.

– طوال حياتي لم أكمل عملاً بدأته. دائماً كنت أقف حين ينبئني عقلي بخطر قريب. وانظري ما أصبحت عليه. الرجل الذي لم يعرف الخطر، هذا صحيح، ولكنّه أيضاً لم ينجح في حياته. من كثرة ما مشيت نصف الطريق، لم أتوغل في حياتي إلى أعماق الأشياء. كان عليّ البقاء في مهنة الأقفال، وأن أتعرّض للاعتداء، ليكن، لا تهمّ الكدمات. لكان ذلك سيكون تعميداً، لكنت عرفت العنف وتعلّمت إدارته. ولكنّي بدلاً عن ذلك، من كثرة ما تجنبت المشاكل، بقيت مثل طفل رضيع بلا خبرة.

– أنت تهذي.

– لا، لا أهذي. لا يمكن العيش دوماً داخل الشرنقة. مع هذا القبو فرصتي الوحيدة لأجتاز الخطوة. إذا لم أفعل ذلك، فلن أستطيع أبداً النظر إلى نفسي في المرآة، لن أرى فيها غير شخص جبان. وعلى أيّة حال، أنت ذاتك دفعتني إلى النزول، تذكّري.

نزع قميصه الملطخ بالدم. وأردف:

– لا تصرّي، قراري غير قابل للتغيير.

– حسناً، سآتي معك إذاً! أعلنت وهي تمسك المصباح اليدويّ.

– لا، تبقين هنا!

أمسك معصمها بحزم.

– أتركني، ما الذي حصل لك؟

– اعذريني، ولكن عليك أن تفهمي، هذا القبو هو شيء لا يخصّ غيري. إنّه غوصي، طريقي. ولا ينبغي لأحد أن يتدخّل. هل تسمعيني؟

خلفهما كان نيكولا لا يزال يبكي عند جثّة ورزازات. حرّر جوناثان معصم لوسي واقترب من ابنه.

– هيّا، تماسك بني!

– مللت، ورزي مات، وأنتما لا تفعلان إلّا المشاجرة.

أراد جوناثان صرف انتباهه، فأخذ علبة ثقاب وأخرج منها ستّة أعواد ووضعها على الطاولة.

– حسناً، انظر، سأريك لغزاً. يمكن تشكيل أربعة مثلّثات متساوية الأضلاع مع هذه الأعواد الستّة. أبحث جيّداً، تستطيع أن تجد الحلّ.

جفّف الصبيّ، مندهشاً، دموعه ونشق مخاطه. وبدأ على الفور يضع الأعواد بطرق مختلفة.

- لا زال لدي نصيحة أعطيها لك. لكي تعثر على الحلّ، يجب التفكير بطريقة مختلفة. إذا فكّرنا بأسلوب تفكيرنا المعتاد فلن نصل إلى شيء.

تمكّن نيكولا من تركيب ثلاثة مثلّثات وليس أربعة. رفع عينيه الزرقاوين الكبيرتين، رفّ جفنيه.

- هل وجدت الحلّ أبي؟

- لا، ليس بعد ولكنّي أشعر انّه لم يبق أمامي الكثير لأجده.

كان جوناثان قد هدّأ ابنه بشكل مؤقت، ولكن ليس زوجته. كانت لوسي ترمقه بنظرات شديدة الغضب. وعند المساء تشاجرا بشكل عنيف جداً. إلّا أن جوناثان رفض أن يبوح لها بشيء عن القبو وأسراره.

في اليوم التالي، استيقظ باكراً وأمضى الصبيحة في تركيب باب حديديّ على مدخل القبو مع إضافة قفل كبير. وعلّق مفتاحه الوحيد في عنقه.

أتى السلام على هيئة هزّة أرضيّة غير متوقّعة.

بداية، تعرضت الجدران إلى هزّة عنيفة، وبدأ التراب ينهمر من السقوف. تبعتها هزّة ثانية ثمّ ثالثة، فرابعة... تتابعت الهزّات المكتومة بتسارع مقتربة أكثر فأكثر من الثلاثي غير العادي. هدير ضخم لا يتوقّف وكل ما تحته بدأ يهتزّ.

منتعشاً بهذا الارتجاج، يعيد الذكر الفتى تسريع قلبه، ويوجه ضربتين من فكّيه مباغتاً جلادتيه ويفرّ مسرعاً عبر نفق مصدّع. يحرّك جناحيه الجنينيين ليسرّع من فراره، موسّعاً قفزاته فوق الأنقاض.

كلّ هزّة أقوى تجبره على الوقوف والانتظار ملتصقاً بالأرض منتظراً نهاية انهيال التراب. مساحات كاملة من جدران الممرّات تتداعى وسط ممرّات أخرى. تنهار جسور، وقناطر وسراديب، آخذة في سقوطها ملايين الهيئات الواجمة.

أخذت روائح الإنذار الأولي بالتدفق والانتشار. في المرحلة الأولى، تشوّش الفيرومونات المثيرة الأروقة العليا. كلّ من يشمّ هذه الرائحة يبدأ بالارتجاف على الفور، والركض في كل الاتجاهات منتجين فيرومونات أشدّ حرقة. ممّا جعل الارتباك يزداد ويكبر مثل كرة الثلج.

تنتشر غيمة الإنذار مثل الضباب، وتسيل في كافّة عروق المنطقة المتألّمة، حتى تصل إلى الشرايين الرئيسية. ينجح الجسم الغريب الذي تسلّل إلى جسم القطيع ببثّ ما عجز الذكر الفتى عن بثّه: سموم الألم. فيبدأ الدم الأسود المتشكّل من حشود البيلوكانيين بالخفقان بصورة أسرع. أخلى السكّان البيوض القريبة من المنطقة المنكوبة. وأخذت الجنديّات ينتظمن في وحدات قتاليّة.

فيما يجد الذكر 327 نفسه معرقلاً بالتراب والحشد عند تقاطع واسع، تتوقّف الهزّات. يتبع ذلك صمت قلق. يسود الوجوم الجميع، كلٌّ منقبض من تبعات الأحداث. تهتزّ القرون المنتصبة. الجميع ينتظر.

فجأةً، تتبدل النقرة الملّحة التي كانت قبل قليل بزمجرة كتومة.

أحسّ الجميع بأنّ فروة المدينة من الغصينات ثقبت للتوّ. شيء هائل يخرق القبّة، ويسحق الجدران، متسللاً خلل الغصينات.

مجسّ ورديّ دقيق انبجس وسط التقاطع. وأخذ يجلد الهواء ويمرّ بسرعة جنونيّة بمحاذاة الأرض باحثاً عن أكبر عدد من المواطنين. تشكّل في نهايته عنقود أسود ضخم من الجنديّات اللواتي قفزن لتعضّه بفكوكها. ممتلئاً بما يكفي، ينسحب اللسان إلى الأعلى ويختفي، موقعاً أفراد الحشد في وادٍ، ثمّ يصوّب ثانية، بعمق أكثر، وبنهم أكثر، مثل صاعقة.

أعلن إنذار المرحلة الثانيّة. أخذت العاملات تقرع الطبول على الأرض بنهايات بطونها، لتحرّض جنديّات الطوابق السفلى، اللواتي لم يريْنَ بعد شيئاً من الكارثة.

تتردّد ضربات تلك الطبلة البدائيّة في أرجاء المدينة. كما لو أنّ «جسد المدينة» يلهث: تاك، تاك، تاك! أجاب الغريب الذي عاد يطرق القبّة ليلج أعمق: توك... توك، توك. التصق الجميع بالجدران محاولين الهرب من تلك الأفعى الحمراء الهائجة التي تجلد الأروقة. حين تقدّر اللعقة بالقليلة، يمتدّ اللسان أبعد. يظهر منقار، ثمّ يتبعه رأس هائل.

إنّه النقّار الأخضر! رعب الربيع... هذه الطيور النهمة آكلة الحشرات تحفر سطوح مدن النّمل بحفر قد تصل إلى ستين سنتمتراً، مُتخمةً نفسها بسكّانها.

حان وقت إطلاق إنذار المرحلة الثالثة. أصاب بعض العاملات

مسٌّ، وبدأن مأخوذات بالهياج غير المعبّر عنه بالأفعال يرقصن رقصة الخوف، بحركات متقطّعة؛ بالقفزات، وطقطقة الفكوك، والبصاق... أخريات وصلن إلى قمّة الهستيريا، وأخذن يتراكضن في الممرّات منهالات بالعضّ على كلّ من يظهر في طريقهنّ. تأثير مضاد للخوف: المدينة التي لا تستطيع تدمير المعتدي تنحو في النهاية إلى تدمير نفسها.

انحصرت الكارثة في الجهة الغربية من الطبقة الخامسة عشرة فوق الأرض، ولكن بما أنّ الإنذار عبر مراحله الثلاث، فإنّ المدينة بأكملها الآن مستعدّة للحرب. تنزل العاملات إلى الطبقات الأعمق تحت الأرض لتضع البيوض في مكان آمن. تصادف في طريقها صفوف الجنديّات المستعجلات، مشرّعات فكوكهنّ.

تعلمت مدينة النّمل عبر أجيالها التي لا تحصى، كيف تدّافع عن نفسها ضد إزعاجات مماثلة. وسط هياج الفوضى، أخذت تتشكّل من نمال فئة المدفعيّات فرق خاصّة تتوزّع الأولويات فيما بينها.

أحطن نقّار الخشب الأخضر في المنطقة الأكثر ضعفاً: رقبته. ثمّ أخذن وضعيّة الرمي. تصوّب بطونهنّ إلى الطير. ثمّ نارا! ترمي بكل قوة مصرّات أشراجهنّ رشقاتٍ من حمض النّمليك فائق التركيز.

ينتاب الطير شعور مفاجئ ومزعج بأنّ ثمّة ياقة من الدبابيس تطبق على خناقه. يقاوم، ويحاول التملّص. غير أنّه كان قد بالغ في الخوض

فعلــق جناحيه بالــتراب وعيدان القبّة. يلقي لســانه ثانيــة ليقتل أكبر عدد يستطيع من خصومه مفرطي الصغر.

تســتلم النوبة موجة جديدة مــن الجنديّات. نار! ارتعــد الطائر، هذه المــرة، حالــت الدبابيس إلى أشــواك. فأخــذ منقاره يضــرب بهياج. نار! ويقــذف الحمض مجدّداً. يرتجف الطائر، ويعاني صــعوبة في التنفّس. نار! تبدأ أعصابه بالتآكل من تأثير الحمض وهو عالقٌ تماماً.

يتوقف الإطلاق، وتتراكض الجنديّات ذوات الفكوك العريضة من كلّ الأنحاء، لتعضّ في الجروح الناجمة عن حمض النّمليك. فيما تندفع فرقة أخرى صــاعدةً إلى الخارج، علــى ما تبقّى من القبّة، تحــدّد ذنب الحيوان وتبدأ بثقب الموضــع الأكثر شمّية: الشرج. جنديّات الهندسة هؤلاء تمكّنّ سريعاً من توسيع فتحة ودلفن داخل أمعاء الطائر.

تمكّنــت الفرقة الأولى من ثقب جلد الحنجرة. حين ســالت أوّل قطرة دم توقّف إرســال فيرومونات الإنذار. تعدّ الجولة كما لو أنّها حســمت. فتحت الحنجرة بشكل واسع، واندفعت داخلها كتائب بأكملها، حرّرت نمال كانت لا تزال حيّة في حنجرة الحيوان.

ثمّ تلج جنديّات داخل الرأس، باحثة عن فوّهات تسمح لها بالوصول إلى الدمــاغ. تعثر نملــة على ممرّ: الشريان الســباتي. ولكن ينبغي أن يكون الممــرّ الصــحيح، أيّ الذاهب مــن القلب إلى الدماغ وليس العكس. ها هو! أربع جنديّات تشــقُقْنّ القناة وتلقين بأنفســهن في الســائل الأحمر. محمــولات على التيار القلبيّ، مندفعات بسرعة إلى وســط فصــي الدماغ. هنّ الآن على أهبة الاستعداد لحفر المادة الرماديّة.

يتمرّغ نقّار الخشب الأخضر، مجنوناً من الألم، يميناً ويساراً، عاجزاً عن فعل أيّ شيء لصدّ أولئك المحتلين الذين يمزقونه من الداخل. تقتحم كتلة من النّمل الرئتين وتصبّ الحمض بداخلهما، فيسعل الطير بشكل مخيف.

يدلف جيش بأكمله داخل المري ليحقّق الوصل في الجهاز الهضميّ مع زميلاتهن الآتيات من الشرج، والصاعدات بسرعة عبر القولون الضخم، معطّلات في طريقهنّ كل أجهزة الجسم الحيويّة التي تقع في متناول فكوكهن. ينبشن اللحم الحيّ كما يحفرن الأرض عادةً. يهجمن على مراكز القوّة مخرّبات لها واحداً تلو الآخر: الحوصلة، الكبد، القلب، الطحال والبنكرياس.

يحدث من حين لآخر أن ينبجس الدم أو السائل اللمفاوي على نحو مباغت، مغرقاً بعض النمال قليلات الخبرة واللواتي لا يعرفن كيف يقطّعن بمهارة ولا أين.

تتقدّم الأخريات بدقة بالغة وسط اللحوم الحمراء والسوداء، يعرفن كيف يتجنبنّ سحق تشنّج مباغت. متفادين ملامسة المناطق المليئة بالمرارة أو الحموضة الهضميّة.

في النهاية، يلتقي الجيشان عند مستوى الكليتين. لم يمت الطير حتى الآن. لا يزال قلبه، المخطّط بضربات الفكوك، يرسل الدم عبر قنواته المثقوبة.

ودون انتظار أن تلفظ ضحيتهم أنفاسها الأخيرة. أخذت العاملات اللواتي انتظمن في صفوف، تمرير قطع اللحم التي لا تزال تنبض من

رجل إلى أخرى. لا شيء يقف بوجه الجرّاحات الصغيرات، حين بدأن بإفراغ المخّ. اختلج النقار الأخضر، اختلاجه الأخير.

ركضت المدينة بأكملها لقَصْب الوحش. وأخذت الممرّات تفور بالنّمال اللواتي يحتضنّ للذكرى، واحدة ريشةً وأخرى زغباً.

انضمّت فرق البنّاءات إلى العمل، لإعادة بناء القبّة والأنفاق المتضرّرة.

يمكن الظنّ لمن ينظر من بعيد أنّ مدينة النّمل تأكل طائراً. فبعد أن ابتلعته، هضمته، موزعةً لحومه وشحومه، ريشه وجلده على كل النقاط التي سيحقق فيها نفعاً أكبر للمدينة.

التكوين: كيف نشأت حضارة النّمل؟ لنفهم ذلك علينا العودة مئات الملايين من السنين إلى الوراء، أي إلى الوقت الذي بدأت فيه الحياة تتطوّر على الأرض.

وكانت الحشرات من أوائل من درج عليها.

بدا عليها عدم التكيّف مع عالمها. صغيرة، وضعيفة، كانت الضحيّة المثاليّة لجميع المفترسين. ولكي تحافظ على بقائها حيّة، اختار بعضها، كالجراد، طريقة التكاثر. فمن كثرة ما كان يبيض صغاراً كان لابدّ أن يظلّ منها على قيد الحياة.

أخريات، مثل الزنابير والنحل، اختارت السمّ، وقد اكتسبت على مرّ الأجيال إبراً سامّة جعلتها مهابة الجانب.

وأخرى، مثل الصراصير، اختارت أن تصبح غير صالحة للأكل. عبر غدّة خاصة تمنح لحمها طعماً شديد الكراهيّة لدرجة أنّ لا أحداً يريد تذوقه.

وأخرى، مثل أفراس النبي أو فراشات الليل، اختارت التمويه. متشبّهات بالعشب أو لحاء الشجر، وأصبح من المعتاد ألّا تلحظ في طبيعة غير مرّحبة. ولكن، في أدغال أولى الأيام، كثير من الحشرات لم يجد «وسيلة» ليظلّ على قيد الحياة وقد بدا أنّه محكوم بالانقراض.

أوّل ما نجد بين أولئك «عديمي الحظوة»، كانت الأرَضَة. إذ أنّها ظهرت على سطح الأرض قبل مائة وخمسين مليون سنة، يدعى هذا الصنف راعية الخشب والذي لم يكن لديه أية خطّة للاستدامة. ففي الأرض الكثير من المفترسين والقليل من القدرات الطبيعيّة التي تمكّن من المقاومة...

ماذا سيكون مصير الأرَضَة؟

الكثير منها مات والناجي كان محاصراً لدرجة أجبرته على إيجاد حلّ مبتكر قبل فوات الأوان: «عدم الصراع بشكل منفرد، وخلق مجموعات متكاتفة. ممّا سيجعل الأمر صعباً على المفترسين، فالهجوم على عشرين أرَضَة تقاتل سويّةً لن يكون بسهولة الهجوم على واحدة بمفردها تحاول الفرار» وبذلك فتحت الأرَضَة أحد الطرق الملكيّة للتعقيد: أي التنظيم الاجتماعي. بدأت تلك الحشرات بالعيش على شكل خلايا صغيرة، كانت هذه الخلايا عائليّة في البداية: حيث يلتفّ الجميع حول الأم البيّاضة. ثم أصبحت العائلات قرى، والقرى أخذت بالتضخم متحوّلة إلى مدن، وبعد قليل ارتفعت مدن من الرمل والإسمنت على كامل وجه الكرة الأرضيّة.

كانت الأرَضَة أوّل المعلمين الأذكياء لعالمنا، وأوّل مجتمع له.

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

لم يعد الذكر 327 يرى القاتلتين ذواتي رائحة الصخر. أضاعهما. وقد تكونا مع قليل من الحظ ماتتا تحت الانهيارات... لا ينبغي أن يغرق في التفاؤل كثيراً، فلن يكون في منأى عن التورّط، طالما لم تعد لديه أيّ من روائح جواز مروره. سيُقضى عليه إذا ما صادف أيّة محاربة. سيعدّ مباشرة جسماً غريباً من قبل أخواته. لن يتاح له ولو حتّى تبرير وضعه. إطلاق الحمض أو إعمال الفكوك دون إنذار، هو مصير من يعجز عن بثّ روائح جواز مروره الخاصّة بالفيدراليّة.

لا يعقل ذلك. كيف وصل إلى هذه الحالة؟ كلّه بسبب تلك المحاربتين اللعينتين ذواتي رائحة الصخر. ما الذي أصابهما؟ لا ريب أنّهما مجنونتان. مع أنّ حدوث أخطاء في البرمجة الجينية والتي تفضي إلى حوادث نفسيّة مماثلة يعدّ من الحالات النادرة؛ شيء أشبه بحالة النمال الهستيريّة حين أخذت تعتدي على الجميع في مرحلة الإنذار الثالثة.

لم يكن يظهر على تلك المحاربتين الهستيريا أو الجنون. علاوة على ذلك بدتا تعرفان بالضبط ما تفعلانه. كما لو... لا توجد غير حالة واحدة تدمر فيها خلايا عن وعي خلايا أخرى تنتمي لنظام الجسم عينه. المربّيات تدعو ذلك بالسرطان. كما لو... أنّهما خليتان مصابتان بالسرطان.

وقد تكون الرائحة الصخريّة إذاً رائحة المرض... إذا صحّ ذلك فعليه أن يعلن الإنذار أيضاً. وعلى ذلك بات لدى الذكر 327 لغزين يحتاجان إلى حلّ: سلاح القزمات السريّ، وخلايا بيلوكان السرطانيّة.

غير أنّه لا يستطيع التكلّم مع أحد. يجب التفكير. قد يكون في داخله سبل دفينة... لحلّ ما.

أخذ ينظّف قرنيه. بادئاً بالترطيب (يستغرب وهو يلعق قرنيه عدم التعرّف على الطعم المميّز لفيرومونات جواز مروره)، ثمّ التمشيط، فالتنعيم بفرشاة مرفقه، وأخيراً التجفيف.

ما الذي ينبغي فعله، اللعنة؟

يتوجّب عليه بدايةً، البقاء على قيد الحياة.

شخص واحد فقط يمكنه تذكّر صورته بالأشعة تحت الحمراء دون أن يحتاج إلى تأكيد روائحه الثبوتيّة: الأمّ. إلّا أنّ المدينة المحرّمة مكتظّةً بالجنديّات. ليكن. في النهاية، ألا تقول حكمة بيلو - كيو - كيوني القديمة: **في معظم الأوقات نكون أكثر أماناً في قلب الخطر؟**

- لم يترك إدمون ويلز ذكريات جميلة في هذا المكان. وبالمناسبة، حين غادر لم يتمسّك به أحد.

من يتكلم بهذه الطريقة رجل عجوز له وجه ودود، وهو أحد نواب مدير شركة «Sweetmilk Corporation».

- مع أنّه يقال بأنّه اكتشف بكتيريا غذائيّة جديدة، تعطي روائح طيّبة للألبان...

- ينبغي الاعتراف أنّه في اختصاص الكيمياء كان لديه طفرات عبقريّة. لكنها لم تكن تظهر دوماً، وإنّما من حين لآخر.

- حدث لك مشاكل معه؟

- بصدق، لا. لنقل بالأحرى إنّه لم يكن مندمجاً مع الفريق. كان يميل إلى الابتعاد. وحتى ولو أنّ بكتيرياه أكسبت الشركة الملايين، لا اعتقد أنّ أحداً هنا أحبّه بحقّ.

- أيمكنك أن تكون أكثر وضوحاً؟

- لا بدّ من وجود رؤساء في الفريق. إدمون لم يكن يطيقهم، ولا يحتمل أيّ شكل من أشكال السلطة الهرميّة. طوال حياته يحتقر المدراء، والذين لا يجيدون سوى «الإدارة من أجل الإدارة دون إنتاج شيء»، كما كان يقول. نحن جميعاً مجبرون على لعق حذاء من له منصب أعلى منّا. لا مشكلة في ذلك. هذه متطلّبات النظام. غير أنّ إدمون كان يترفّع عن ذلك. وأظنّ أن ذلك أغاظنا، نحن زملاؤه، أكثر مما أغاظ المدراء أنفسهم.

- كيف ترك عمله؟

- تشاجر مع أحد نوّاب المدير من أجل قضيّة، تقتضي الأمانة الاعتراف... أنّه كان لديه كلّ الحق فيها. كان ذلك النائب قد فتّش مكتبه، ما جعل إدمون يستشيط غضباً وخاصة بعد أن رأى الجميع يقفون في صفّ الآخر. حينئذ لم يكن أمامه سوى أن يغادر.

- لكنّك قلت للتوّ إنّ الحقّ كان معه...

- يفضّل التعامل بجبن لصالح أناس نعرفهم حتّى ولو كانوا غير

مرغوبين، على أن نظهر شجاعة لمصلحة مجهولين حتى ولو كانوا لطفاء. إدمون لم يكن لديه أصدقاء هنا. لم يكن يأكل معنا، لم يكن يشرب معنا، بدا كما لو أنّه يعيش على ظهر القمر.

– لماذا تعترف لي بهذا «الجبن» إذاً؟ لا شيء يجبرك على ذلك.

– أوه، منذ موته، وأنا أقول لنفسي إنّنا رغم كل شيءٍ أخطأنا بحقّه. أنت ابن أخته، وأنا أقول ما أقول، لأخفّف عنّي قليلاً...

يميّز قلعة خشبيّة في نهاية القناة المظلمة. المدينة المحرّمة. هذا المبنى هو في الواقع أرومة صنوبر أشيدت القبّة في محيطها. الأرومة هي بمثابة قلب وعامود فقريّ لبيلوكان. قلب لأنّها تحتوي المقصورة الملكيّة ومستودعات المؤونة الثمينة. وعامود فقريّ، لأنّها تسمح للمدينة بمقاومة العواصف والشتاءات.

حين تُرى عن قرب، يُلحظ زخارف مرصّعة ومعقّدة على جدران المدينة. تشبه نقوشاً لكتابات بدائية. ممرات حفرها في الماضي سكّان الأرومة الأصليين: الأرَضَات.

حين وصلت الملكة المؤسسة بيلو – كيو – كيوني إلى المنطقة، قبل خمسة آلاف عام، اصطدمت بهم مباشرة. وخاضت معهم حرباً طويلة، استمرّت أكثر من ألف عام، انتصر البيلوكانيين في نهايتها. واكتشفوا آنذاك بدهشة مدينة «صلدة» مزوّدة بممرّات خشبيّة لا تنهار أبداً. أرومة الصنوبر هذه فتحت أمامهم آفاقاً حضاريّة وهندسيّة جديدة.

السـطح في الأعلى، أشـبه بطاولة مرتفعة ومستوية، وفي الأسفل، تضرب جذورهـا الموزعة عميقاً في باطن الأرض. كان ذلك مثا – لي – اً ولكن، لن تكفي الأرومة بعد قليل لإيواء أعداد السـكّان المتزايدة من النمال الصـهباوات. فإذاً حفر باطن الأرض على امتداد الجذور. وكدّست الغصينات على مائدة الشجرة لتوسيع قمّتها.

في الوقـت الحالي تكون المدينة مقفرةً تقريبـاً. فما عدا الأمّ ونخبة حرّاسها، يقطن الجميع في محيطها.

يقـترب الذكر مـن الأرومة بخطوات حذرة وغـير منتظمة. إذ أنّ الاهتـزازات المنتظمة تلحظ على أنّها وجود لأحد يتجوّل، فيما تفسّر غير المنتظمة كانهيارات خفيفة. وما عليه فقط إلّا أن يأمل بألا تصادفه أيّة جنديّة. يبدأ الزحف. لم تعد تفصله عن المدينة المحرّمة سوى مائتي رأس. تظهر عليه عشرات المداخل التي تثقـب الأرومة؛ أو بالأحرى رؤوس النمال «البوّابات» اللواتي يسدّن المداخل.

لا يُعرف بأيّ انحـراف جيني تمّ تكوينها، إذ أنّهنّ مزوّدات برأس عريض مدوّر ومسطّح، ما يمنح البوّابة هيئة مسمار عريض مثبّت تماماً في مركز محيط الفوّهة المسؤولة عن مراقبتها.

قد برهنت هذه الأبواب الحيّة عن فعّاليتها في الماضـي. إبّان حرب نَبْتِ الفريز، قبل سـبعمائة وثمانين عاماً، حين اسـتولى النّمل الأصفر علـى المدينة. جميـع البيلوكانيـين الذين نجـوا التجأوا داخـل المدينة المحرّمـة. والنّمـلات البوّابات، دخلـن المدينة وهنّ منسـحبات إلى الوراء، مغلّقات مداخلها بإحكام.

احتاج النّمل الأصفر إلى يومين حتّى تمكّن من كسر هذه الأغلال. فالبوّابات لم تسدّ الثقوب فقط وإنّما كانت أيضاً تعضّ بفكوكها الطويلة. كانت كل مئة نملة صفراء تجتمع لمواجهة بوّابة واحدة. وفي النهاية تمكّنت من العبور حافرةً كيتين الرؤوس. لكنّ تضحية «الأبواب الحيّة» لم تذهب سدى، إذ تسنّى الوقت الكافي لمدن الفيدراليّة لكي ترسل تعزيزاتها، وما كانت إلّا ساعات قليلة حتّى تحرّرت المدينة بعدها.

بالتأكيد لم يكن في نيّة الذكر 327 أن يواجه البوّابة بمفرده، إلّا أنّه كان ينوي استغلال فتح أحد هذه الأبواب أثناء خروج مربيّة تحمل بيوض الأمّ مثلاً، عندئذ يمكنه الاندفاع قبل أن يُعاد إغلاقه.

ها هو الرأس يتحرّك، فُتِح الطريق... من أجل حارسة. فشل للأسف، لا يستطيع محاولة شيء، ستراه الحارسة وتعود لقتله.

حركة جديدة من رأس البوّابة، يثني أرجله الست، مستعداً للقفز. ولكن لا! إشارة خاطئة، كانت فقط تغير وضعيّتها. لا بدّ أن إبقاء رقبتها هكذا داخل طوق الخشب يؤدي إلى تشنّجات.

ليكن، لقد نفد صبره، يندفع صوب الحاجز. وأوّل ما يصبح في مدى قرن البوّابة، تلتقط غياب فيرومونات جوازه. فتعود إلى الوراء مغلقة الفوّهة بشكل محكم، ثمّ ترسل جزيئات الإنذار.

جسد غريب على المدينة المحرّمة! جسد غريب على المدينة المحرّمة! تكرّر مثل صفّارة الإنذار.

تدور كلّاباتها لترعب الشخص غير المرغوب به. كانت تودّ لو تتقدّم وتنازله إلّا أنّ التعليمات واضحة: سدّ الثقب أوّلاً!

ينبغي التصرّف بسرعة. يفوقها الذكر بميزة، فهو يمكنه الرؤية في الظلمة بينما البوّابة عمياء. ينطلق، متجنّباً الفكّين الهائجين اللذين يضربان خبط عشواء، وينقضّ ممسكاً منبتهما. ويبدأ بقصّهما واحداً تلو الآخر. سال الدم الشفّاف، وظلّت الجدعتين تلوّحان في الهواء بلا خطر.

ومع ذلك ليس بوسع الذكر 327 المرور، فجثّة عدوّته تمنع الدخول. إذ أن الأرجل بقيت متصلّبة وتضغط تلقائياً على الخشب. ما هو الحلّ! يضع بطنه على جبين البوّابة ويطلق. يرتعد الجسد، يتآكل الكيتين بتأثير حمض النّمليك ويبدأ بالذوبان مخلّفاً دخاناً رماديّاً. إلّا أنّ الرأس سميك. ما دعاه لأن يكرّر الإطلاق أربع مرّات قبل أن يتسنى له فتح طريق خلال الجمجمة المسطّحة.

بات بإمكانه المرور. يكتشف في الجهة المقابلة صدراً وبطناً ضامرين. النّملة لم تكن أكثر من باب، لا شيء سوى باب.

متنافسان: حين بدأ أوائل النّمل بالظهور، بعد خمسين مليون سنة، كانت الحكمة تقتضي عليها بأن تلازم أماكنها. فهؤلاء الأحفاد البعيدون للزنبور الوحشي والوحيد، التيفيد (tiphiide)، لم يكونوا مزودين بفكوك ضخمة أو إبر واخزة. ضئيلو الحجم وضعفاء، إلّا أنّهم ليسوا بلهاء وسرعان ما فهموا أنّ مصلحتهم تقتضي عليهم أن يأخذوا عن الأرَضة. كان عليهم أن يتحدوا.

ابتكرت قرى، وأشادت مدناً بدائية. هذا التنافس أقلق الأرَضة. والتي بحسبها لا تتّسع الأرض إلا لصنف واحد من الحشرات الاجتماعيّة.

فكانت الحروب منذ ذلك الحين فصاعداً أمراً لا مفرّ منه. اشتعلت بعض المواقع في أنحاء شتّى من العالم، على الجزر، وعلى الأشجار والجبال، نشبت معارك بين جيوش مدن الأرَضة وجيوش مدن النّمل الشابّة.

وهذا لم يكن له مثيلٌ أبداً في العهد الحيوانيّ. ملايين من الفكوك تتبارز بصفوف متلاصقة لغاية غير غذائيّة، هي بالأحرى غاية «سياسيّة»!

في البداية كانت الأرَضة، الأكثر خبرة، تكسب معظم المعارك، لكنّ النّمل تكيّف. وأخذ الأسلحة عن الأرَضة وزاد عليها أسلحة جديدة. الحروب العالمية بين الأرَضة والنّمل ألهبت الكوكب بأكمله، منذ ما قبل خمسين مليون سنة إلى ما قبل ثلاثين مليون سنة. إبّان تلك الفترة اكتشف النّمل سلاح حمض النّمليك، ما أدى إلى إحراز تفوق حاسم.

وإلى أيامنا هذه لا تزال المعارك مستعرة بين الفصيلين العدوّين، إلّا أنّه من النادر أن تحقّق فيالق الأرَضة انتصاراً.

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

– عَرَفتهُ في أفريقيا، أليس كذلك؟

– بلى، أجاب البروفسور. كان يشعر بالكآبة. أظنّ أن زوجته كانت ميتة. فألقى نفسه في خضمّ دراسة الحشرات.

– لماذا الحشرات؟

– ولما لا؟ منذ الأسلاف ولهذه الحشرات تأثير تمارسه. كان أجدادنا القدماء يخافون البعوض الذي ينقل الحُمَّيات، والبراغيث التي تسبّب الحكّة، ولدغات العناكب، والسوس الذي كان يلتهم مؤونتهم. وهذا كلّه قد خلّف أثراً.

كان جوناثــان في المخــبر رقــم 326 داخــل مركــز CNRS لعلم الحشــرات في فونتينبلو، برفقة البروفســور دانيــال روزنفيلد، عجوز جميل يردّ شعره إلى الخلف على هيئة ذيل حصان، بشوش وبليغ.

– الحشرة تربك، هي أصــغر منّا وأكثر هشاشــةً، ومع ذلك تسخر منّا وحتّى تهدّدنا. وبالمناســبة إذا فكّرنا أعمق بهذا الشــأن سنكتشف أنّنا جميعا ســننتهي في معد الحشرات. لأنّ النغفــة، أي يرقة الذباب، هي من ستستمتع بجثثنا...

– لم أفكّر بذلك.

– لقــد اعتبرت الحشرة لوقت طويل تجســيداً للشرّ. وليس من قبيل المصادفة، أنّ بعل زبوب مثلاً، أحد شركاء الشيطان يجسّد برأس ذبابة.

– لدى النّمل سمعة أفضل من سمعة الذباب.

– تتفاوت مكانته بحســب الثقافات، وتتعدّد دلالاته. فيرمز له في التلمود كرمز للاســتقامة. وفي المذهب البــوذي التيبيتي، يكون دلالة على تفاهة النشــاط المــادي. أمّا البواليين في ســاحل العاج فيعتقدون أنّ المرأة الحامل إذا عضــتها نملة فســتنجب طفلاً له رأس نملة. وبعض البولنزيين بالمقابل، يعتبرونها آلهة مفرطة الصغر.

– كان إدمون يعمل قبل ذلك على البكتيريا، فلماذا تخلّى عن ذلك البحث؟

– لا تشكّل البكتيريا غير جزء يسير من ولعه البحثي مقارنة مع الحشرات، والنّمل على الخصوص، وحين أقول «أبحاثه»، إنّما أقصد استغراقه الكامل. هو الذي أطلق بيانات مناوئة لبيع أعشاش النّمل كألعاب، هذه العلب البلاستيكية التي تباع في المراكز التجاريّة الكبرى، مع ملكة وستمائة نملة. وحارب أيضاً من أجل استخدام النّمل كمبيد للحشرات. لقد أراد أن نعتاد وضع مدن النّمل الأصهب في الغابات لتنظيفها من الطفيليات. وهذه الفكرة لم تكن غبيّة، ففي الماضي استخدم النّمل لمحاربة دودة الصنوبر في إيطالية وضد ذبابة شجر التنوب في بولونيا، وهما حشرتان خرّبتا الكثير من الأشجار.

– تعبئة الحشرات ضدّ بعضها بعضاً، أهذه هي الفكرة؟

– همم، إدمون كان يسمي ذلك «انتهاكاً في شؤونها الدبلوماسيّة» كم ارتكبنا من أخطاء في القرن السابق باستخدام المبيدات الحشريّة الكيميائية. لا ينبغي مطلقاً مواجهة الحشرات، أو الإنقاص من قدرها بمحاولة ترويضها كما فعلنا مع الثدييات. الحشرة، فلسفة أخرى، زمان ومكان مختلفان، بعد آخر. لدى الحشرة دفاع ضد كلّ السموم الكيميائية: المناعة. أنت تعلم، أنّنا لا نستطيع درء غزوات الجراد، لأنّ الأشقياء، يتأقلمون مع كل شيء. فعند رشّهم بالمبيد، يموت 99 بالمائة ولا ينجو مهم إلّا واحد بالمائة. وأولئك الناجون والذين يشكلون واحداً بالمائة لا يكتسبون المناعة فقط، وإنما يعوضون من مات بإنتاج جراد صغير «ملقّح» ضدّ هذا المبيد. بهذه الطريقة أخطأنا ونحن

منذ مائتي سنة نزيد كمّية السمّ في المواد. لدرجة أنّ هذه المواد قتلت بشراً أكثر مما قتلت حشرات. وولّدنا سلالات مقاومة جدّاً قادرة على استهلاك أسوأ السموم دون أيّ ضرر.

– هل تقصد أنّه ليس لدينا طريقة مجدية لمكافحة الحشرات؟

– تحقّق بنفسك. فحتى الآن لا يزال البعوض، والجراد، والسوس، وذبابة تسي تسي – والنّمل. تقاوم كلّ شيء. لاحظنا في سنة 1945، أنّ النّمل والعقارب هما فقط من نجا من التفجيرات النوويّة، تأقلمت حتّى مع ذلك!

أسال الذكر 327 دم خليّة من القطيع. مارس أسوأ عنف ضد نظام جسمه. هذا الشيء أشعره بالمرارة. ولكن هل كان لديه، هو، الهرمون الناقل للمعلومة، خيار آخر، ليتغلب على الموت ويواصل مهمّته؟

إذا كان قد قَتل، فلأنّه كان معرّضاً للقتل. إنّه التفاعل التسلسلي الذي يشبه السرطان. فالقطيع يسلك معه سلوكاً غير اعتيادي، فإذاً هو مضطرٌ لأن يتصرّف بالمثل. ينبغي عليه تقبّل هذه الفكرة.

لقد قتل خليّة أخت. وقد يقتل أخريات.

– ولكن ما الذي ذهب يفعله في إفريقيا؟ بما أنّ النّمل، كما تقول أنت نفسك، موجود في كل مكان.

– بالطبـع، ولكن ليس هو النّمل عينـه... وأظنّ أنّ إدمون لم يكن متمسّكاً بشيء بعد خسـارة زوجته، وأتساءل، بعد مرور الوقت، إذا لم يكن يسعى إلى «الانتحار» على يد النّمل.

– عفواً؟

– لقـد أوشـك أن يأكله، يا للهول! نمـل المانيـان الأفريقي... ألم تشـاهد أبـداً فيلـم Quand la Marabounta gronde (حـين تهدر المارابونتا)؟

هزّ جوناثان رأسه بالنفي.

– المارابونتـا هـي الجحافل الهائلـة من نمال المانيـان (magnans dorylines)، والتي تتقدّم في السهل مدمّرَة كل ما يأتي في طريقها.

نهض البروفسـور روزنفلت كأنّه أراد مواجهة موجة اجتياح غير مرئيّة.

– تسـمع في البداية جلبةً هائلةً من الأصوات المختلطة تتراوح بين صراخ وزقزقة وخفق أجنحة ودبيب كافّة الدواب الصغيرة التي تحاول الفرار. في هذه المرحلة، لا يكون نمل المانيان قد ظهر بعد. ثمّ لا يلبث أن تـبرز بعض المحاربـات من وراء مرتفع. أولئك هنّ المسـتطلعات، الأخريات يلحقن بهم سريعاً، ويصـلنَ على شكل صفوف ممتدّة على مدّ النظر. يكتسـي المرتفع باللون الأسود. الأمر أشبه بسيل من الحمم تذيب كلّ ما تلمسه.

كان البروفسـور يمضـي جيئةً وذهابـاً، وهو يتكلـم ملوّحاً بيده، مأخوذاً بموضوعه.

– إنّه الدمّ الأفريقيُّ الســام. هو حمض حــيٌّ. عددهم مرعب. تبيض مســتعمرة نمل نحو خمســة آلاف بيضــة في اليــوم، أي ما يكفي لملء دلاء بأكملها... فإذاً، يســيل حمض الكبريتيك الأسود هذا، ويتسلّق المنحدرات والأشــجار، لا شــيء يوقفه. كل من يجــازف بالاقتراب منــه، ســواء أكان طيراً أم ســحالي أو ثدييات آكلــة للحشرات، يتفتّت على الفور. مشــهد مــن نهاية العا لم! ولا أيّة دابّــة تخيف نمل المانيان. في إحدى المرّات رأيت هرّاً فضولياً أذيب في لمحة بصر. حتّى الجداول يجتازها مشــيّداً جسوراً طافية من جثث أمواته!... في ساحل العاج، في منطقــة بجــوار مركز لامتــو للإنمــاء البيئــي (Lamto) حيث كنّا ندرسه، لم يجد السكان إلى الآن وسيلةً لمقاومة اجتياحه. فما أن نعلن بأنّ هؤلاء «الأتيلا»[3] المفرطين بالصــغر ســيجتازون القرية، حتى تفرّ الناس حاملةً معها ما خفّ وزنه وغلا ثمنه. يضــعون أرجل الكراسي والطاولات في دلاء الخلّ متضرعين لآلهتهم. وعند عودتهم لا يجدون شيئاً، كما لو أنّ إعصاراً قد ضربهم. لا تبقى ذرّة من شيء يؤكل أو أثر من مادة عضويّة، أو أيٍّ من الهوام. في النهاية، لا طريقة أفضل من نمل المانيان لينظف المرء كوخه من أعلاه إلى أسفله.

– كيف كنت تدبّر أمر دراستهم، وهم على هذا القدر من الشراسة؟

– كنّا نترقّب الثانية عشرة ظهراً. ليس لدى الحشرات نظام التحكّم بالحرارة مثلنا، فحين تكون الحرارة °18 تكون حرارة أجسامهم °18 أيضــاً. وعند حدوث موجة حرّ يغلي دمهم. وهذا يشقّ عليهم تحمّله.

---

3. Attila: ملك هوني عاش بين عامي (395 – 453)، أســس في روســيا وأوروبا إمبراطورية واسعة، عاصمتها ما يسمى اليوم المجر. من شدة هوله وقسوته أطلق عليه اسم (عقاب الله).

وبالتالي، مع أوّل شعاع ملتهب، يبدأ النّمل المانيان بحفر عشّ موقّت للتخييم، يمكث داخله بانتظار طقس أكثر رحمةً. إنّه يشبه سباتاً جزئيّاً، إلّا أنّ الفرق في هذه الحالة أنّه يعلقُ من الحرّ وليس من البرد.

– وفيما بعد؟

في الحقيقة، لم يكن جوناثان بارعاً في فن المحادثة. كان يعتبر أنّ المحادثة تقوم على ما يشبه الأواني المستطرقة. فيكون الشخص الذي يعلم هو الآنية الممتلئة والآخر الذي لا يعلم، والذي يكون هو عادة، الآنية الفارغة. يفتح الذي لا يعلم أذنيه على وسعهما ويبث حماسة محاوره من حين لآخر بعبارات من قبيل «فيما بعد؟»، «كلّمني عن ذلك»، مع إيماءات الرأس.

إذا كان ثمّة أساليب أخرى للتواصل، فهو يجهلها. بالمناسبة، كان يظهر له من مراقبة أبناء جيله، أنّهم يمارسون مونولوجات موازية، يسعى خلالها كل واحد لاستخدام الآخر كمعالج نفسي مجانيّ. هو يفضّل أسلوبه على مثل هذه الحالات. ربّما يبدو أنّه لا يمتلك علماً، لكنّه على الأقل يتعلّم باستمرار. ألم يقل المثل الصيني: إنّ الشخص الذي يسأل سؤالاً يكون غبيّاً لخمس دقائق، بينما الذي لا يسأل يبقى غبياً طيلة حياته؟

– وفيما بعد؟ ذهبنا إليه، يا للهول! صدّقني، كان حدثاً مهولاً. كنّا ننوي إيجاد تلك الملكة اللعينة، الدابة الضخمة الشهيرة التي تبيض خمسة آلاف بيضة في اليوم. كنّا نريد رؤيتها فقط وتصويرها. انتعلنا جزمات سميكة ضخمة. لكنّ من سوء الحظ، كان قياس قدم إدمون 43 ولم يكن تبقى غير جزمة واحدة مقاسها 40. فذهب

بالباتوغاس (حذاء قماشي). أتذكّر ذلك كما لو كان البارحة. عند الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً، رسمنا على الأرض شكل عشّ التخييم المؤقت المحتمل، وبدأنا بحفر خندق حوله بعمق متر. في الواحدة والنصف وصلنا إلى الحجرات الخارجيّة. ما يشبه سيلاً أسود بدأ بالتدفق مخشخشاً، ملايين من الجنديّات المهتاجة أخذت تطقطق بفكوكها، والتي تكون عند هذا الصنف حادّة مثل شفرات الحلاقة. كانت تتسلّل إلى جزماتنا فيما نحن نواصل التقدّم بضربات الرفش والمعول صوب الخليّة الملكيّة. وأخيراً، وجدنا كنزنا، الملكة. حشرة يفوق حجمها عشرة أضعاف ملكاتنا الأوربيات. لا بدّ ونحن نلتقط صوراً لها من جميع الزوايا، كانت تصرخ بلغتها الشميّة God save the Queen... لم يتأخر الجواب، فسرعان ما وصلت المحاربات من كل حدب وصوب وتلاقت مشكّلة أكواماً تحت أقدامنا. تمكّن بعضهن من الصعود وهنّ يتسلّقن أخواتهن اللواتي سبق لهن التسلل في مطاط الجزم. ومن هناك كنّ يعبرن تحت البنطال إلى القميص. أصبحنا جميعاً أشبه بغوليفر، غير أنّ سكان ليليبوت الذين يخصّوننا لم يكونوا يحلمون بأكثر من تمزيقنا إلى إرب تؤكل! كان يجب الحيطة للحيلولة دون دخولهن في الفتحات الطبيعية على الأخصّ: الأنف، الفم، الشرج، طبلتا الأذنين. وإلّا قضي علينا، إذ أنّهنّ ما إن يصلن الداخل حتى يحفرن به!

بقي جوناثان صامتاً، ومبهوتاً. أمّا البروفسور فقد أخذ، وهو يستعيد المشهد، يجسّده بقوة شاب، الشاب الذي أصبح من الماضي.

– أخذنا نلطم أنفسنا بقوّة لنطردهنّ. كان عرقنا وأنفاسنا تدلّهنّ علينا. جميعنا مارسنا اليوغا لكي نبطّئ تنفسنا ولنتحكم بخوفنا.

حاولنا ألّا نفكر، أن نغض الطرف عن عناقيد تلك المحاربات التي أرادت قتلنا. التقطنا فيلمين من الصور، أخذ بعضها دون فلاش. حين انتهينا، قفزنا جميعاً خارج الخندق، ما عدا إدمون. كان النّمل يغطيه من رأسه حتى أخمص قدميه، ويتهيأ لأكله! سحبناه بسرعة من ذراعيه، وخلعنا ثيابه وقشطنا عنه كافّة الفكوك والرؤوس التي كانت مزروعة في جسده. كل منّا نال حصّته، لكن ليس بنفس درجته، بما أنّه لا ينتعل جزمة. وعلى الأخصّ، لأنّه ارتبك، وأرسل فيرومونات الخوف.

– فظيع.

– لا، من الجيد أنّه خرج حياً من هذه التجربة. وعلى فكرة لم تنفّره هذه الحادثة من النّمل. بل على العكس دفعته للاستغراق بإصرار أكبر على دراسته.

– ولاحقاً.

– عاد إلى باريس. وما عادت تصلنا أخبار عنه. حتّى أنّ الشقيّ لم يتصل مرّة بصديقه القديم روزنفلت. وأخيراً رأيت في الصحافة أنّه مات. الرحمة لروحه.

مضى يزيح ستارة الشبّاك ليتفحّص محراراً قديماً مغروزاً بصفيح مطليّ بالمينا.

– همم، ثلاثون درجة في ذروة شهر نيسان، مدهش. كل عام تزداد الحرارة. وإذا استمرّ هذا الشيء، ستصبح فرنسا بعد عشر سنوات بلداً استوائيّاً.

- إلى هذا الحدّ؟

- لا نلحظ ذلك لأنّه يحصــل بالتدريج. لكنّ نحن المتخصصــون بالحشـرات، نلحظ هذا الشــيء من خلال التفاصــيل الدقيقة: إذ بدأنا نجد في الحوض الباريســي أصــناف حشرات نموذجيّة خاصةً بالمناطق الاستوائيّة. ألم تلحظ أنّ الفراشات تزداد ألوانها زهواً؟

- بالفعل، حتى أنّي رأيت بالأمس فراشة بألوان فلوريسنت حمراء وسوداء على سيّارة...

- علــى الأرجح إنّها فراشــة الزيجــان zygène بخمس بقع. إنّها فراشة ســامّة، لم تكن تتواجد في السابق إلّا في مدغشقر. وإذا استمرّ هذا الشــيء... هل تتخيّل نمــل المانيان في باريس؟ يــا مرحباً بالذعر. سيكون المشهد هزلياً...

بعد أن نظّف قرنيه وأكل بضــع قطع فاترة من البوّابة «المشطورة»، يهرول الذكــر دون رائحة في الممرّات الخشــبيّة. قاعة الأمّ من هناك، يشــمّ ذلك. من حســن طالعه، أنّها في تمام 25° حــرارة –زمنيّة، ولا يوجــد في مثل هذا الطقس ازدحام داخــل المدينة المحرّمة. يفترض أن يتمكّن من التسلّل بسهولة.

فجــأة، يلحظ رائحة محاربتــين قادمتين بالاتّجــاه المعاكس. واحدة ضخمة وأخرى صغيرة. الصغيرة تنقصها رجلان...

يتبادلون شمّ روائحهم المنبثقة عن بعد.

لا يعقل إنّه هو!

لا يعقل، إنّهما المحاربتان!

يندفع الذكر 327 مسرعاً على أمل تضليلهما. يدور ويدور في هذه المتاهة ثلاثيّة الأبعاد. يخرج من المدينة المحرّمة. البوّابات لا تؤخره، بما أنّها مبرمجة فقط لتمنع المرور من الخارج إلى الداخل لغير المصرّح لهم. تدوس أرجله أرضاً طريّة. ماضياً في المنعطفات.

لكنّ الأخريات سريعات جداً أيضاً ولن يقبلن بأن يُسبقن. دفع الذكر عاملةً على الأرض تحمل عوداً، دون أن يقصد، ممّا أعاق ركض المحاربات ذواتي رائحة الصخر.

عليه أن يستغل هذه المهلة. فسارع للاختباء في تجويف. بدأت العرجاء تقترب. يلج أعمق في مخبئه.

– أين ذهب؟

– عاد إلى النزول.

– كيف عاد ونزل مجدّداً؟

أخذت لوسي أوغستا من ذراعها وأوصلتها إلى باب القبو.

– إنّه هناك في الداخل منذ مساء الأمس.

– ولم يصعد إلى الآن؟

– لا، لا أعرف ما الذي يحدث في الأسفل، لكنّه منعني منعاً باتاً من الاتصال بالشرطة... سبق أن نزل عدّة مرّات وصعد.

مكثت أوغستا مذهولة.

– لكنّ هذا جنون! رغم أنّ خاله منعه من النزول...

– أصبح ينزل حاملاً معه معدّات، قطع حديدية، وخرسانات إسمنتيّة كبيرة. أمّا بالنسبة لما يفعله هناك في الأسفل...

وضعت لوسي رأسها بين يديها. واهنةً، تشعر أنّ الانهيار العصبي سيعاودها.

– ولا يمكننا النزول للبحث عنه؟

– لا، وضع قفلاً من الداخل.

جلست أوغستا، حائرةً.

– يا إلهي، يا إلهي. لم أتوقع أنّ الخوض في سيرة إدمون سيجلب كل هذه المتاعب...

تخصّص: في مدن النّمل الحديثة والكبيرة، أدّى توزيع المهام المكرّر على مدى ملايين السنين إلى حدوث طفرات جينيّة.

فبعض النّمال تولد بفكوك ضخمة بتّارة لتصبح جنديّات، وأخريات بفكوك طاحنة لإنتاج طحين الحبوب، وفئة أخرى بغدد لعابيّة متطوّرة جداً لترطيب وتطهير اليرقات الشابّة.

نستطيع تمثّل الأمر عندنا بأن يولد جنودنا مثلاً بأصابع على هيئة سكين،

والفلاحين بأرجل على شكل ملاقط تعينهم على تسلّق الأشجار وقطف الثمار، والمربّيات بنحو عشرة أزواج من الأثداء.

ولكن الأكثر إدهاشاً بين جميع الطفرات «المهنيّة»، هي طفرة الحبّ.

بالفعل، فكيلا تلهو كتل العاملات المسكينات بنزوات شهوانيّة، تخلق عديمة الجنس. جميع الطاقات الإنجابيّة محصورة بالمتخصّصين: الذكور والإناث، أمراء وأميرات هذه الحضارة الموازية.

أولئك خلقوا وجهزوا للحبّ فقط. يستمتعون بعدد من الأدوات التي يفترض أن تساعدهم على الجماع. من الأجنحة وحتى العُيينات التي ترى بالأشعة تحت الحمراء، مروراً بالقرون المرسلة والمستقبلة للمشاعر المجرّدة.

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

لم يكن المخبأ مغلقاً من الداخل، إنّه يؤدي إلى كهف صغير. يتوارى الذكر 327 في جوفه. تمرّ المحاربتان ذواتا رائحة الصخر دون أن تكتشفاه. لكنّ الكهف لم يكن فارغاً. يوجد أحدٌ دافئ وشمّيّ هناك في الداخل. ثمّة من يبثّ.

من أنت؟

الرسالة الشمّية واضحة، دقيقة، آمرة. بفضل رؤية عُييناته بالأشعة تحت الحمراء، يميّز الحيوان الذي يستجوبه. كما يبدو يعادل وزنه

تسعون حبّة رمل. ومع أنّه ليس جنديّة، إلّا أنّه كائن لم يحسّه من قبل، ولم يره يوماً.

أنثى.

وأيّة أنثى! استغرقَ وقتاً في تفحّصها. أرجلها مستدقّة باستدارة رائعة ومزينة بزغب الهرمونات الجنسيّة اللزجة والشهيّة. قرناها السميكان يفوران بروائح قويّة، عيونها بالأمواج الحمراء، أشبه بحبّ عنب بريّ. بطن ضخمة وملساء تستدقّ في الأعلى. ويعلو درعها الصدريّ في الوسط حزام إضافيّ تغطيه حبيبات في غاية الروعة. وأخيراً لها أجنحة طويلة، حجمها ضعف حجم جناحيه.

توسّع الأنثى بين فكيّها الصغيرين واللطيفين و... تنقضّ على رأسه لتجزّ عنقه.

يجد صعوبة في البلع، يكاد يختنق. في غياب جواز مروره، ليس لدى الأنثى استعداد لإفلاته. هو جسم غريب وينبغي تدميره.

يتمكّن الذكر 327، مستفيداً من قصره، منْ إفلات نفسه. ثمّ يتسلّق كتفيها، ويشدّ على رأسها. يدور الدولاب، وكلٌّ بدوره يجد نفسه في ورطة. تبدأ بالتخبّط.

يلقي بقرنيه إلى الأمام، ما إن ينالها الوهن. هو لا يريد قتلها، لا يريد أكثر من أن تصغي إليه. الأمر ليس بسيطاً. يريد إجراء اتصال مطلق معها. أجل، اتصال مطلق.

الأنثى (يميّز رقم نزول بيضتها، إنّها الرقم 56) تبعد قرنيها، متهرّبة

من التواصــل. ثمّ تشبّ إلى الخلف منتفضةً كي تفلت منه. إلّا أنّه يبقى ثابتاً بشــكل صــارم فوق درعها الأوسط ويزيد من ضــغط فكّيه. إذا استمرّ على هذا النحو فإنّ رأس الأنثى سينزع مثل عشبة ضارّة.

تكفّ عن الحركة، وهو أيضــاً. تميّز عيونها التي تغطي زاوية بقياس 180°، بوضــوح شــديد، المعتــدي الجاثم على صــدرها. إنّه ضــئيل الحجم.

ذكر!

تذكّرت دروس المربّيات: **الذكور هم أنصاف كائنات. على خلاف جميع خلايــا المدينة، غير مزوّدين بأكثر من نصف صبغيات الجنس. هم نتاج بيوض غير ملقّحــة.** هم إذاً بيوض كبيرة، أو بالأحرى ســوائل منوية تحيا في الهواء الطلق.

على ظهرها ســائل منوي يحاول خنقها. تكاد تضحكها الفكرة. لمــاذا ثمّــة بيوض ملقّحــة وأخرى غير ملقّحة؟ بســبب الحــرارة على الأرجــح. تحت حــرارة 20° لا يمكن تفعيــل مكتبة الســائل المنوي، وعندهــا تبيض الأمّ بيوضــاً غــير ملقّحة. لذا فالذكــور خارجون من البرد، مثلما الموت.

إنّهــا المرّة الأولى التي ترى فيها ذكراً من لحم وكيتين. ما الذي جاء يبحــث عنه هنــا، في جناح العــذارى؟ هذه الأرض محرّمة، مخصّصــة للخلايا الجنســية الأنثويّــة. وإذا ما تمكنت أيّة خليّــة غريبة من دخول هذا المعتزل الحسّاس، فالباب سيكون مفتوحاً على كافة الالتهابات!

يحاول الذكر 327 ثانيةً العثور على اتصال قرني. غير أنّ الأنثى تتمنّع. فكلّما حاول التوسيع بين قرنيها تعاود هي مباشرة إطباقهما على رأسه؛ وإذا ما لمس الجزء الثاني تعيد قرنيها إلى الوراء. إنّها لا تريد.

يزيد من ضغط فكّيه مجدّداً وينجح بإقامة اتصال بين الجزأين السابع من قرنه والسابع من قرنها. لم تتصل الأنثى يوماً بهذه الطريقة. علّموها أن تتجنّب أيّ اتصال، وتقتصر على إرسال واستقبال الرائحة في الهواء. غير أنّها تعلم بأنّ هذه الطريقة الأثيريّة في الاتصال خادعة. وقد بثت الأمّ ذات يوم فيروموناً حول هذا الموضوع: **دوماً سيوجد بين دماغين شتّى أنواع عدم الفهم وكلّ الأكاذيب التي تسبّبها الروائح الطفيليّة، ومجاري الهواء، والنوعيّة السيّئة للبثّ وللاستقبال.**

والطريقة الوحيدة للحدّ من هذه المنغصات هي: الاتّصال المطلق. التماس المباشر للقرون. مرور الناقلات العصبيّة دون أيّة إعاقة من دماغ إلى الناقلات العصبيّة في دماغ الآخر.

بالنسبة لها الأمر أشبه بافتضاض بكورة عقلها. على أيّة حال، هو أمر قاس وغريب.

ولكن لم يتبق لها الخيار، إذا استمرّ في الضغط هكذا سيقتلها. ترخي ساقا جبينها على أكتافها كعلامة خضوع.

بإمكان الاتصال المطلق أن يبدأ، كلا القرنين يقتربان بوضوح. رعشة كهربائيّة صغيرة. حالة من العصبيّة. بتمهل ثمّ أسرع فأسرع تأخذ الحشرتان بمداعبة الأجزاء الأحد عشر المسنّنة لكلٍّ منهما. تطفو رغوة مليئة بالمشاعر المرتبكة رويداً رويداً. هذه المادة الدسمة تلمّع

القرون وتسرّع إيقاع الاحتكاك. رأسا الحشرتين يأخذان بالاهتزاز دون تحكم، يمرّ وقتٌ، بعدئذ تتوقف السيقان القرنيّة عن رقصها وتلتصق واحدة بالأخرى على طولهما. الآن، لم يعد ثمّة غير كائن واحد، برأسين وجسدين، وزوج واحد من القرون.

المعجزة الطبيعية تحقّقت. الفيرومونات تجتاز من جسد إلى آخر عبر آلاف المسام الصغيرة والشعريّة لأجزائهما. الذهنان تزاوجا. لم تعد الأفكار مرمّزة أو غير مرمّزة. لقد عادت الآن إلى حالتها الأصلية البسيطة: صور، وموسيقى، مشاعر، وروائح.

ومن خلال هذه اللغة الصريحة إلى أقصى حد، قصّ الذكر مغامراته للأنثى 56: مجزرة الرحلة الاستكشافيّة، والآثار الشميّة للجنديّات القزمات، مقابلته مع الأمّ، وكيف جرت محاولة قتله، وفقدانه لجواز مروره، معركته ضدّ البوّابة، وأخيراً، المجرمتان ذواتا رائحة الصخر واللتان لا تزالان تلاحقانه.

انتهى الاتصال المطلق، تعيد قرنيها إلى الوراء كعلامة حسن نيّة. ينزل عن ظهرها. بات الآن تحت رحمتها، بإمكانها قتله بسهولة. تدنو منه، بفكين منفرجين على وسعهما و... تعطيه بعض فيرومونات خاصّة بجواز مرورها. وبذلك، يكون قد نجا من الورطة مؤقتاً. تقترح عليه التطاعم، فيقبل. ثمّ تئزّ أجنحتها طاردةً كلّ بخار حديثهما.

تمّ الأمر، لقد نجح بإقناع شخص. المعلومة عبرت، وفُهمت، وقُبلت من خليّة أخرى.

لقد خلق للتوّ مجموعة عمله.

زمن: يختلف جداً إدراك جريان الزمن بين الإنسان والنمل. بالنسبة للإنسان، الزمن مطلق. فدورة الثواني ومددها متساوية مهما حدث.

بالمقابل، الزمن نسبي عند النّمل. فحين يكون الطقس دافئاً تكون الثواني أقصر، فيما تتلوى وتطول إلى ما لا نهاية حين يكون الطقس بارداً، وقد يصل ذلك إلى حدّ فقدان الوعي أثناء السبات الشتوي.

هذا الزمن المطاط يعطيه إدراكاً لسرعة الأشياء يكون مختلفاً جداً عن إدراكنا. ولأجل وصف الحركة، لا تكتفي الحشرات بالحيز والمدّة، وإنّما تضيف بعداً ثالثاً: درجة الحرارة.

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

هما اثنان من الآن فصاعداً، هاجسهما إقناع أكبر عدد ممكن من الأخوات لخطورة «قضية السلاح السرّي المدمّر». لم يفت الأوان بعد. إلّا أنّه ينبغي وضع أمرين في حسبانهما. من جهة، لن يتمكّنا من اجتذاب ما يكفي من عاملات إلى قضيتهما قبل حفل عيد الانبعاث الذي سيستهلك معظم الطاقات، وبالتالي يلزمهما شريك ثالث. ومن جهة أخرى، ينبغي إيجاد مخبأ تحسّباً من عودة ظهور المحاربتين ذواتي الرائحة الصخريّة.

تقترح عليه الرقم 56 مقصورتها. والتي حفرت في داخلها ممرّاً سرّياً ممّا سيسمح له بالفرار فيما لو حدث أيّ طارئ. لم يتفاجأ الذكر 327 كثيراً، فحفر الممرّات السرّية موضة رائجة. بدأت منذ مائة سنة، أثناء الحرب ضد النمال باصقات الصمغ. الملكة ها – يكت –دوني، ملكة إحدى مدن الفيدراليّة، نمّت هوساً أمنياً. فقد أشادت لنفسها مدينة محرّمة «مصفّحة». إذ كانت جوانب المدينة مسلّحة بأحجار كبيرة ملتحم بعضها ببعض بإسمنت الأرَضَات!

المشكلة أنّه لم يكن ثمة سوى مخرج واحد. في النهاية حوصرت من كتائب النمال باصقات الصمغ، ووجدت نفسَها عالقة في قصرها. لم تجد باصقات الصمغ صعوبة بالإمساك بها وخنقها بصمغهن الكريه سريع النشفان. أخذ ثأر الملكة ها – يكت – دوني لاحقاً، وحرّرت مدينتها، لكنّ هذه النهاية المرعبة والحمقاء خلّفت أثراً بقي في عقول البيلوكانيين لزمن طويل.

وبما أنّ لدى النّمل هذه الميزة الرائعة التي تمكّنه من تغيير شكل مسكنه بضربة فكّ، أخذ كلّ واحد يحفر ممرّه السرّي. ولكن أن تحفر نملة ثقباً، فهذا يمكن التغاضي عنه، ولكن إذا بادرت مليون نملة بذلك، فتلك كارثة. أخذت هذه الممرّات «الخاصة» توهن الممرّات «الرسميّة». فأصبح الممرّ السرّيّ الذي تسلكه النّملة يفضي بها إلى متاهة حقيقية مؤلّفة من «ممرّات الأخريات». ووصل الأمر إلى أنّ أحياء بأكملها أصبحت سهلة التفتّت، معرِّضَةً مستقبل بيلوكان إلى الخطر.

كانت الأمّ قد حظرت ذلك. لا يسمح لأحد أن يحفر ممرّه الخاص. ولكن كيف يمكن التحكّم بكلّ المقصورات؟

أزاحت الأنثى 56 حصوةً كاشفةً عن فوهة داكنة. إنّه هناك. يتفحّص الذكر 327 المخبّأ، يراه مثاليّاً. يتبقّى أمامهم العثور على شريك ثالث. يخرجان ويغلقان وراءهما بعناية. تبثّ الأنثى 56:

أوّل من يصل سيكون هو المطلوب. دعني أتصرّف.

لا يستغرق الأمر طويلاً حتى يصادفا أحداً، جنديّة طويلة عديمة الجنس تجرّ قطعة فراشة. تسألها الأنثى برسائل عاطفيّة الفحوى تشير إلى تهديد كبير يطال القطيع. تتمكّن ببراعة بثّ لغة مشاعر رقيقة، أدهشت الذكر. ممّا دفع الجنديّة بأن تتخلّى فوراً عن فريستها لكي تأتي وتتحاور.

تهديد كبير يطال القطيع؟ أين، من، كيف، لماذا؟

تشرح لها الأنثى بإيجاز عن الكارثة التي حلّت بأوّل رحلة استكشافية لهذا الربيع. أسلوبها في التعبير يفوح بروائح طيب، تتمتع مسبقاً بأناقة وجاذبيّة ملكة، سرعان ما وقعت المحاربة في إسار فتنتها.

متى نذهب؟ كم جنديّة نحتاج للهجوم على القزمات؟

تقدّم نفسها. هي الرقم 103683 عديمة الجنس من بيض فصل الصيف. لها جمجمة ضخمة برّاقة، وفكّان طويلان، العيون غير موجودة تقريباً، والأرجل قصيرة. حليفة لها وزنها. هي حماسيّة منذ الولادة أيضاً. وقد توجّب على الأنثى 56 الحدّ قليلاً من اندفاعاتها.

تعلن لها عن وجود جواسيس داخل القطيع، قد يكونون مرتزقة لصالح القزمات لمنع البيلوكانيين من حلّ لغز السلاح السرّي.

يمكن تمييزهم من رائحتهم الصخريّة. ينبغي التصرف على وجه السرعة.

بوسعكم الاعتماد عليّ.

في النهاية، يوزعن على بعضهنّ القطّاعات المؤثّرة. سيحاول الرقم 327 إقناع المربّيات في الغرفة الشمسيّة، واللواتي هنّ سذّج على العموم.

بينما ستحاول الرقم 103683 إحضار جنديّات. سيكون رائعاً، لو نجحت بتشكيل فرقة.

بإمكاني أيضاً سؤال المستطلعين، وأن أحاول تجميع مشاهدات أخرى حول ذلك السلاح السرّي للقزمات.

أمّا الرقم 56، فستزور المفاطر والزرائب باحثةً فيها عن دعم استراتيجيّ.

وستكون العودة إلى هذا المكان في 23° حرارة - زمنيّة، لتقييم النتائج.

كان التلفزيون يعرض هذه المرّة، من خلال سلسلة «ثقافات العالم»، تحقيقاً عن العادات اليابانيّة: «اليابانيون، شعب يقطن على جزيرة، معتادون منذ قرون على العيش باكتفاء ذاتي. العالم بالنسبة لهم، مقسّم إلى قسمين: اليابانيون والآخرون، أي الغرباء أصحاب العادات والتقاليد والأعراف غير المفهومة، البرابرة، والذين يدعونهم

Gai Jin. كان لـدى اليابانيـين على مدى تاريخهـم حسّ وطنيّ بالغ الحساسـية. فحين يسـتقرّ يابـانيّ في أوربا مثـلاً، فإنّه ينبـذ تلقائيّاً من الجماعـة. وإذا عاد بعد عام، فإنّ أبواه، عائلته لن تتعرف عليه كواحد منهم. فالعيش عند Gai Jin يعني التطبّع بذهن «الآخرين» ممّا يعني أنّه أصبح Gai Jin. حتّى إنّ أصدقاء الطفولة سيخاطبونه مثل أيّ سائح».

تظهـر عدّة معابد على الشاشـة وأماكن مقدّسـة لديانة الشـينتو. استأنف صوت المذيع:

«تختلـف رؤيتهم للحيـاة والموت عن رؤيتنا. مـوت الفرد لديهم ليـس بـذي أهميّة. ما هـو مقلق حقّاً، مـوت خلية منتجـة. لتدجين الموت، ينمي اليابانيون فنّ القتال. الكندو يدرّس للفتيان منذ الصفوف الأولى...»

يظهر مصارعان وسـط الشاشة، مرتديان مثل قدامى الساموراي. جذعاهما محميّان بصـفائح سـوداء مفصـليّة. وعلى رأسـ كلّ منهما خوذة بيضـويّة مزيّنة بريشـتين طويلتين بمحاذاة الأذنين. ينقضان على بعضهما صارخين صرخة المحارب، ثمّ يتبارزا بسيفيهما الطويلين.

صـور جديدة، رجل جاثم على عقبيه يصـوّب سـيفاً قصيراً نحو بطنه.

«ميـزة أخـرى للثقافـة اليابانيّـة، الانتحـار الطقسـي، سـيبكو Seppuku. بالطبع، يصعب علينا فهم ذلك...»

– التلفزيون، التلفزيون دوماً! هذا شيء يخبل! يدسّون في رؤوسنا

جميعاً الصور ذاتها. وفي النهاية، يقولون أيّ كلام، ألم تملّوا بعد؟ صاح جوناثان الذي كان عائداً منذ بضع ساعات.

– دعه. فهذا يريحه. منذ موت الكلب وهو ليس على ما يرام...، قالت لوسي بصوت ميكانيكي.

داعب ذقن ولده.

– هل من شيء ليس على ما يرام يا كبيري؟

– أصمت، إنّي أصغي.

– أوه! انظري كيف يخاطبنا.

– كيف يخاطبك. عليك الاعتراف بأنّك لا تراه كثيراً، فلا تستغرب أن يخاطبك ببرود.

– هيه! نيكولا، هل توصّلت إلى تركيب أربعة مثلّثات بأعواد الثقاب؟

– لا، ذلك أغضبني. إنّي أسمع.

– حسناً! إذا كان الأمر يغضبك...

بدا جوناثان شارداً بأفكاره، أخذ يحرّك أعواد الثقاب المتروكة على الطاولة.

– يا خسارة. إنّه... مفيد.

لم يكن نيكولا يسمع، كان عقله موصولاً مباشرة بالتلفزيون. مضى جوناثان إلى غرفته.

– ماذا تفعل؟ سألت لوسي.

– أنت ترين جيداً، أهيّئ نفسي، سأعاود النزول.

– ماذا؟ لا!

– ليس لديّ الخيار.

– جوناثان، أخبرني الآن ما الذي يوجد هناك في الأسفل ويبهرك إلى هذا الحدّ، إنّي زوجتك في النهاية!

لا يجيب بشيء. عيناه هاربتان. ودوماً مع تلك الحركة البشعة في الفم. أنهكتها الحرب، تنهدت:

– هل قتلت الجرذان؟

– وجودي وحده يكفي، إذ أنّهم يحافظون على مسافة بيننا. وإذا اقتربوا أخرج هذا الشيء.

أظهر سكين مطبخ كبيرة كان قد سنّها بأناة. وأمسك باليد الأخرى مصباحه الهلوجين واتجه إلى باب القبو، على ظهره حقيبة، حقيبة تحتوي على مؤونة وافرة وكذلك معدّاته كصانع أقفال محترف وبالكاد ألقى:

– وداعاً نيكولا، وداعاً لوسي.

لم تعرف لوسي ماذا تفعل. أمسكت بذراع جوناثان.

– لا تستطيع الذهاب هكذا! هذا سهل جداً. ينبغي أن تكلّمني!

– آه، أرجوك!

– لكنّك... بأيّة طريقة يجب أن أخبرك؟ منذ أن نزلت إلى هذا القبو اللعين، لم تعد أنت نفسك. لم يعد لدينا المال، وقد اشتريت أنت بحوالي خمسة آلاف فرنك معدّات وكتباً حول النّمل.

– مهتمٌّ بمهنة الأقفال وبالنّمل. وهذا حقّي.

– لا ليس حقّك. ليس حين يكون لديك ابن وامرأة تطعمهما. إذا كنت ستصرف كل مال البطالة على شراء كتب النّمل، فسوف...

– تطلّقين؟ هذا ما تريدين قوله؟

أفلتت ذراعه، منهكةً.

– لا.

أخذها هو من كتفيها. تعود حركة الفم مجدّداً.

– ينبغي أن تثقي بي. ينبغي أن أمضي حتّى النهاية. أنا لست مجنوناً.

– أنت لست مجنوناً؟ ولكن أنظر إلى نفسك قليلاً! لديك هيئة منبوش من الأرض، كأنّ الحمّى لا تفارقك.

– جسدي يشيخ، إلّا أنّ رأسي يتجدّد.

- جوناثان! أخبرني ما الذي يحدث في الأسفل!

- أشياء مثيرة للاهتمام. يجب النزول أكثر، النزول أكثر فأكثر، فيما لو أردنا الصعود مجدّداً... أتعلمين، مثل حوض السباحة إذ نجد في قاعه دعماً للصعود ثانية.

وانفجر بضحكة هستيريّة، بقيت، بعد ثلاثين ثانية، أصداؤها الشريرة تتردّد داخل الدرج الحلزوني.

في الطبقة 35 فوق الأرض. تمنح طبقة الغصينات الداعمة تأثير زجاج معشّق. تتلألأ أشعة الشمس وهي ترشح عبر هذا الوسيط هاطلةً على الأرض كمطر من نجوم. نحن الآن في الحجرة الشمسيّة للمدينة، «المصنع» الذي ينتج مواطني بيلوكان.

تسيطر هنا حرارة حارقة. 38°. هذا طبيعي، فالحجرة الشمسيّة متجهة صوب الجنوب للتمتّع بحرارة الكوكب الأبيض أطول ما يمكن. أحياناً، وتحت تحفيز الغصينات، تصل الحرارة إلى 50°!

مئات من الأرجل المضطربة تعدو داخل الحجرة، الطبقة الأكثر عدداً هنا هي طبقة المربّيات. وعلى عاتقها يقع توضيب البيوض التي باضتها الأمّ للتوّ. كلّ أربع وعشرين كومةً تشكّل كتلة، وكلّ اثنتي عشرة كتلة تنتظم داخل صفّ. لا يمكن رؤية نهاية الصفوف الممتدّة. وما إن ترخي غيمة ظلّها، حتّى تبدأ المربّيات بنقل أكوام البيض. البيض الأصغر سنّاً يحتاج إلى تدفئة جيّدة. إذ أنّ الوصفة النّمليّة

القديمة لإنتاج صغار جميلين توصي: «حرارة رطبة للبيض، وحرارة جافّة للشرانق».

تظهر إلى يسار الحجرة عاملات، تنحصر مسؤوليتهنّ في المحافظة على معدّل الحرارة. فتكدّس قطعاً من الخشب الأسود الذي يرفع درجة الحرارة، إضافة لقطع من الدبال المخمّر الذي يبثّ الحرارة. بفضل هاتين المادّتين «المشعتين»، يمكن أن تظلّ حجرة الشمس في حرارة تتراوح بين 25° إلى 40°، حتى وإن كانت الحرارة لا تتعدى 15° في الخارج.

تجول مدفعيّات في المكان، تحسّباً من اقتراب نقّار الخشب الأخضر...

نميّز إلى اليمين، بيوضاً أكبر سنّاً. تخضع لمراحل تحوّل طويلة: يكبر حجم البيض الصغير ثمّ يصفرّ، تحت لعق المربّيات والزمن، يتحوّل بعدها إلى يرقات يغطيها زغب ذهبيّ. تستغرق هذه العمليّة أسبوعاً إلى سبعة أسابيع، وهنا أيضاً يكون مردّ ذلك إلى أحوال الطقس.

المربّيات منهمكات جدّاً. لا يرحمن لعابهنّ – المضادّ الحيوي، ولا انتباههنّ. لا ينبغي أن تتلوث اليرقات بأيّ شيء، فهنّ مفرطات الهشاشة، حتّى إن فيرومونات الحوار تخفّض إلى حدّها الأدنى.

ساعديني على نقلها إلى تلك الزاوية... انتبهي قد تنهار بيوض كومتك...

تلك المربّية تنقل يرقة أطول منها بضعفين. لا شكّ بأنّها يرقة مدفعيّة. تضع «السلاح» في الزاوية وتشرع بلعقه.

وسط هذ الحاضنة الواسعة، ثمّة أكوام من اليرقات التي بدأت تتضّح أجزاء جسدها العشرة. يعلو صراخهن ليلتقمن، مديرات رؤوسهن في شتّى الاتجاهات، مادّات أعناقهنّ إشارة للمربّيات أن تعطيهن قليلاً من العُسيل أو تترك لهنّ لحم حشرة.

بعد ثلاثة أسابيع، حين تكون اليرقات قد «نضجت» جيّداً، تكفّ اليرقات عن الطعام والحركة. تبدأ مرحلة الركود حيث يتهيّأن من أجل مرحلة الكدّ. تجمّع طاقاتها لتفرز الشرنقة التي ستحيلهنّ إلى حوريات. تأخذ المربّيات الحزم الصفراء الكبيرة إلى قاعة مجاورة مفروشة بالرمل الجاف الذي يمتصّ رطوبة الهواء. «حرارة رطبة للبيض، حرارة جافّة للشرانق»، لا ينبغي الملل من تكرار هذه الوصفة.

في ذلك المُحمّى، يتغير لون الشرنقة البيضاء ذات الانعكاسات الزرقاء لتصبح صفراء، ثمّ رمادية، فبنيّة. كما لو أنّ حجر الفلاسفة يعمل بطريقة معاكسة. تحت القشرة تتحقّق المعجزة الطبيعيّة. كل شيء يتبدل؛ النظام العصبيّ، جهازا التنفّس والهضم، أعضاء الحواس، الصدفة...

سوف تنتفخ الحوريّة داخل المُحمّى خلال بضعة أيّام. تنضج البيضة، اللحظة الكبيرة تقترب. الحورية على وشك التفتّح، موضوعةً على الجانب بصحبة رفيقاتها. تثقب المربّيات بعناية غشاء الشرنقة، تفتح مجالاً لقرن، لرجل، إلى أن يتحرّر منها ما يشبه نملةً بيضاء، تبدأ بالارتجاف والترنّح. لا يزال كيتينها طريّاً وفاتحاً، ولكن ما هي إلّا أيّام قليلة وتكتسي اللون الأصهب، كما جميع البيلوكانيين.

يقف الرقم 327 وسط هذه الدّوامة من الحركة لا يعرف إلى من

ســيوجّه كلامه. يبثّ رائحة خفيفة صوب مربّية تساعد مولوداً يخطو خطواته الأولى.

ثمّة شيء خطير يحصل. المربّية لم تلتفت إليه حتّى وألقت جملة شمّية بالكاد تلحظ:

اصمت! لا يوجد ما هو أهمّ من ولادة كائن.

تدفعه مدفعيّــة موجهةً إليه ضربات خفيفــةً بهراوتي قرنيها. تيب، **تيب، تيب.**

ممنوع الإزعاج. هيّا أعبر.

ليســ لديه ما يلزم من الطاقــة، لا يعرف أن يبثّ ويكون مقنعاً. آه! لو كان لديه موهبة الأنثى 56 في التواصــل! يحاول مجدّداً مع مربّيات أخريــات؛ لكــن لا يعرنه أدنى اهتمام. يدفعه اليأس للتســاؤل فيما إذا كانت مهمّته بتلك الأهمية التي يتصــوّرها. ربّما كانت الأمّ على حق، يوجــد واجبات تحظــى بالأولوية. اســتمرار الحياة مثلاً بــدل الدعوة للحرب.

وبينما هو مستغرق بفكرته الغريبة تلك، تمرّ بمحاذاة قرنيه قذفةٌ من حمض النّمليك! أطلقتها مربّية نحوه للتوّ. أفلتت الشرنقة التي ترعاها وسدّدت نحوه، ولكن من حسن حظّه أخطأت التصويب.

يهجــم ليقبض على الإرهابيّة غير أنّها هربت إلى الحاضــنة الأولى، راميةً كومة من البيض لتسدّ الطريق عليه. تنكسر البيوض ويسيل سائل شفّاف.

لقد كسرت بيوضاً! ما الذي أصابها! ساد ذعر، وأخذت المربّيات يتراكضن في كلّ اتجاه، منهمكات بحماية الأجيال التي لم تفقس بعد.

أدرك الذكر 327 أنه ليس باستطاعته اللحاق بالهاربة، فيلوي بطنه تحت صدره ويصوّب. ولكن قبل أن يطلق، تخرّ صريعة بقذفة مدفعيّة رأتها وهي تسقط البيض.

يتحلّقن حول الجسد المحروق بحمض النّمليك. يحني الذكر 327 قرنيه فوق الجثّة. لا ريب، ثمّة رائحة عفن، ورائحة صخر.

تأنس: عند النّمل مثل البشر، ميل لتأنس محدّد مسبّقاً. النّملة المولودة حديثاً هي أضعف من أن تمزّق بمفردها الشرنقة التي تقيدها. الجنين البشريّ عاجز حتى عن المشي والأكل بمفرده.

صنفا النّمل والبشر معدّان ليستقبلا المساعدة من محيطهم. لا يعرفون ولا يقدرون على التعلّم بمفردهم.

من المؤكّد أنّ هذه التبعيّة للراشدين، هي حالة ضعف، لكنّها تطلق عملية أخرى، هي البحث عن المعرفة. إذ بإمكان الراشدين أن يبقوا على قيد الحياة بينما يعجز الصغار عن ذلك، أولئك مجبورون منذ البداية على المطالبة بمعارف من هم أكبر سنّاً.

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

في الطبقة 20 تحت الأرض. لم تبدأ الأنثى 56 بعد بالتحدّث مع

المزارعـات حول سـلاح القزمات السـرّي، ما تراه كان قد أدهشـها لدرجة أنّها عجزت عن بثّ أيّ شيء.

فئة الإناث ثمينة على نحو خاص، ممّا اقتضـى أن يعشـن طفولتهن مغلقـاً عليهنّ داخل جناح الأميرات. غالباً لا يعرفن من الدنيا سـوى مائة ممـرّ، قليلات منهن غامرن بالذهاب أبعد من الطبقة العاشرة تحت الأرض أو وصلن إلى الطبقة العاشرة فوق الأرض...

حاولت الأنثى 56 في إحدى المـرّات أن تخرج إلى العالم الرحب الذي أخبرتها مربّياتها عنه، لكنّ الحراس حالوا دون ذلك. صحيح أنّه كان بإمكان الأنثى أنّ تخفي قليلاً من روائحها، ولكن ليس جناحيها الطويلين. حذّرتها الحارسـات آنذاك بأنّ في الخارج وحوشاً عملاقة؛ تأكل الأميرات اللواتي يخرجـن قبل عيد الانبعاث. ومنذ ذلك الحين والأنثى 56 حائرة بين الفضول والرعب.

وهـي تهبط إلى الطبقة 20 تحت الأرض، أدركت أنّه قبل أن تجتاز صـوب العـالم الرحب أمامهـا الكثير مـن الروائح لتكتشـفها داخل مدينتها. هناك ترى المفاطر للمرّة الأولى.

يقال في الأسطورة البيلوكانية بأنّ أوّل المفاطر اكتشفت إبّان حرب الحبوب، في الألفيّة الخمسـين ألفاً. كانت كتيبة مدفعيّات قد استولت على مدينة للأرَضَـة، وهناك عثرت على قاعـة هائلة الحجم، يعلو في وسطها قرص أبيض ضخم ومئة من عاملات الأرَضَة تكدّ في تلميعه.

حين ذاقته اكتشـفت أنّه لذيذ. كان... أشـبه بقريـة قابلة للالتهام بأكملهـا! أسـيرات اعترفن أنّ ذلك هـو الفطر. الأمـر في الواقع، أنّ

الأرضـات لا تعيش إلّا على السيللوز، ولكن بما أنّه لا يمكنها هضم السيللوز، يلجأن إلى هذه الفطور لجعله مريئاً.

النمال، تهضم السيللوز بشكل جيد ولا تحتاج إلى هذه الأداة. لكنّها أدركت فائدة أن يكون لديها مزارع منه داخل المدينة: سوف يسمح لها ذلك بالمقاومة أثناء الحصارات والمجاعات.

حالياً، يقمن بتنقية البذار، في قاعات بيلوكان الكبيرة بالطبقة 20 تحت الأرض. غير أنّ النمال لم تعد الآن تعتمد على الفطر ذاته الذي كانت تزرعه الأرضات، أكثر أنواع الفطر المعتنى بها في بيلوكان هو الغاريقون. لقد تطوّرت مهارات كثيرة خلال النشاطات الزراعيّة.

تجول الأنثى 56 بين أحواض حديقة هذا البياض. في أحد الجوانب، تهيّئ العاملات «سريراً» والذي سوف ينمو عليه الفطر. تقصّ الأوراق على شكل مربّعات صغيرة، والتي سوف تكشط وتسحق وتدعك وتحوّلها إلى عجين. ثمّ تصفّ عجائن الورق هذه فوق سماد يتألف من الروث (يجمع النّمل مخلّفاته في أحواض مخصّصة لهذا الاستخدام). ثمّ ترطّب باللعاب وتترك للوقت أن يتكفّل بإنبات هذا المستحضر.

بعد أن تتخمّر هذه العجائن تظهر عليها كبّة من الشعيرات البيضاء التي تؤكل. يرى منها هناك إلى اليسار، حيث ترشّها العاملات بلعابها المطهر وتقصّ ما برز من المخروط الأبيض الصغير. فلو تركت هذه الفطور تنمو سريعاً فستفجّر القاعة. ومن الشعيرات المحصودة بفكوك العاملات المسطّحة نحصل على طحين، بقدر ما هو لذيذ هو مرمّم في الوقت عينه.

هناك أيضاً يكون تركيز العاملات على أقصاه. فلا ينبغي لأيّ عشبة سيئة، أو فطر طفولي أن يحوز على عنايتهم.

ضمن هذه الظروف غير المواتية، تحاول الرقم 56 عمل اتصال قرني مع بستانيّة مشغولة بقصّ أحد المخاريط البيضاء بدقّة عالية.

خطر كبير يهدّد المدينة. نحتاج إلى مساعدة. هل تتكرّمين بالانضمام إلى خلية عملنا؟

أيّ خطر؟

اكتشفت القزمات سلاحاً سرّياً له تأثيرات مدمّرة، ينبغي التصرّف على وجه السرعة.

تسألها البستانية بهدوء عن رأيها بحبّة فطرها، الغاريقون جميل. تمتدحه لها الرقم 56. فتقترح عليها البستانيّة تذوّقه. ما إن تعضّ الأنثى العجينة البيضاء حتّى أحست على الفور بحرارة لاذعة في بلعومها. إنّه سمّ! الغاريقون مشبّع بميرميكاسين، حمض صاعق يستخدم عادة بشكله المائع كمبيد. تسعل الرقم 56 وتبصق بسرعة الطعام المسموم. تترك البستانيّة ثمرة فطرها وتنقضّ على صدرها شاهرة فكّيها.

تتقلّبان معاً على السماد، وتتضاربان على جمجمتيهما بضربات سريعة من هراوتي قرنيهما. تشك! تشك! تشك! تضربان كلاهما بغاية القتل. تفصل المزارعات بينهما.

ما الذي حصل لكما؟

حاولت البستانيّة الفرار. تقفز الرقم 56 عليها برشاقة فاردةً جناحيها، وتلقيها أرضاً. حينئذ تميّز رائحة صخر خفيفة. لا بدّ أنّها قد وقعت بدورها على أحد أعضاء عصابة القتلة الفظيعة.

تقرصها من قرنيها.

من أنت؟ ولماذا حاولت قتلي؟ وما هي رائحة الصخر هذه؟

خرس مطبق. تلوي قرنيها. هذا شيء مؤلم جدّاً، ترفسها الأخرى دون أن تجيب. ليست الرقم 56 من النوع الذي يؤذي خليّة أخت، ومع ذلك تزيد من لوي قرنيها.

لم تعد الأخرى تتحرّك. دخلت في الجمود الإرادي. توقف قلبها عن الخفقان تقريباً، لن تستغرق وقتاً طويلاً حتى تموت. خرجت الرقم 56 عن طورها، وقصّت لها قرنيها، لكن ما الفائدة لقد باتا قرني جثّة.

تتحلّق المزارعات حولها ثانيةً.

ماذا يحدث؟ ماذا فعلت لها؟

لم يكن الوقت ملائماً برأي الرقم 56 لتبرّر سلوكها، الهروب أجدى، وهذا ما فعلته بضربة جناح. لقد كان الرقم 327 على حقّ. أمر خطير هذا الذي يحدث، ثمّة خليّات من القطيع قد جنّت.

(2)

النزول أكثر فأكثر

في الطبقـة 45 تحت الأرض: تدخل الرقم 103683 عديمة الجنس في قاعات القتال، حجرات بسقوف منخفضة، حيث يتدرّب الجنود استعداداً لحروب الربيع.

في أنحـاء المكان تتبارز المحاربات بشـكل ثنائـي. بداية تتلامس الخصـمتان، لتقدّر كلّ منهما بنية الأخرى وطول أرجلها. تسـتديران وتلمس كلاً منهما جنب الأخرى وتشدّ شعيراتها، مرسلات لبعضهما تحدّيات شمّية، تتناكزان بطرفيّ هراوتيهما.

تنقضّان على بعضـهما أخيراً. ترتطم القواقع، وتحاول كل واحدة الإمساك بالمفاصل الصدريّة. أوّل ما تنجح واحدة بذلك تحاول الثانية عضّ ركبهـا. تواصـلان عراكهما بحـركات متقطّعـة واقفتين على أرجلهما الخلفيّة، ثمّ تقعان أرضاً متدحرجتين بغضب.

علـى العموم تتشـبّث كلّ منهما بالموضـع الذي تقبض عليه، ثمّ تباغتان بعضـهما بالضرب على موضع آخر من الجسد. ولكن حذار، هذا مجرد تدريب، لا شـيء يكسر، ولا دم يسيل. والعراك يتوقف أوّل ما تقع نملة على ظهرها. وتعيد قرنيها إلى الوراء علامة استسـلام. ومع

ذلـك فإنّ المبـارزات واقعيّة. فقد يحـدث أن تُغرز المخالب – دون اكتراث – في العيون وهي تبحث عن موضع تقبض عليه، وتطقطق الفكوك في الفراغ.

علـى مسـافة قريبة من ذلـك، تجلسـ المدفعيّات علـى بطونهنّ مصـوّبةً ومطلقةً على حصى موضوعة على مسافة خمسمائة رأس، معظم الوقت تحقّق رشقات الحمض إصاباتها.

محاربة قديمة تلقّن محاربةً مبتدئةً بأنّ كلّ شيء يحسم قبل التماس. لا يتعدّى دور الفكّ أو رشـقة الحمض إلّا تأكيد سـيطرة معترف بها مسبقاً من كلا الجانبين. قبل العراك، يوجد بالتأكيد من قرّر أن يكون غالبـاً وآخر قَبِل أن يكـون مغلوباً. الأمر مجـرّد توزيع للأدوار. بعد أن يختـار كلّ واحد دوره، سـوف يكون بإمـكان المنتصر أن يطلق رشـقة حمض دون أن يصوّب، وستكون إصابته محقّقةً؛ وسيحاول المغلوب اسـتخدام فكّيه بأمهر ما يسـتطيع لكنّه لن يتمكّن حتّى من جرح خصـمه. والنصيحة الوحيدة: الاقتناع بالانتصار، فكلّ شيء يحـدث في الرأس، الاقتناع بالانتصـار أوّلاً، وبعده لا شـيء يمكنه ردّك.

مبارزتان دفعتا الجنديّة رقـم 103683. فردّتهما بقوة وأكملت طريقها، باحثةً عن حيّ المرتزقات، الكائن تحت حلبة المصـارعة. ها هو الطريق.

قاعتهـنّ أكثر اتّسـاعاً من قاعـة الفيالق، إذ أنّ المرتزقات يعشـن في أماكـن تدريبهـنّ. وجودهنّ هنـا لغاية الحرب فقـط. تعيش في هذا المـكان جميع أقوام المنطقة على تماسّ مباشـر، الأقوام المتحالفة

والخاضعة: نمال صفراء وحمراء وسوداء، نمال باصقات الصمغ، ونمال بدائيّة بإبر سامّة، وحتّى نمال قزمات.

ومرّة أخرى كانت الأرَضَة وراء هذه الفكرة التي بمقتضاها تطعم شعوباً غريبةً لتقاتل إلى جانبها أثناء الاجتياحات.

أمّا بالنسبة لمدن النّمل، فقد بلغت بهم لفرط حذاقتهم الدبلوماسيّة أن تحالفوا مع الأرَضَة ضدّ نمال أخرى.

وقد ولد ذلك من تساؤل كبير: لماذا لا نوظّف دفعةً واحدةً فيالق نمال تسكن بشكل دائم في عشّ الأرَضَة؟ كانت الفكرة ثوريّة. والمفاجأة الكبرى كانت حين أُجبرت جيوش النمال على مواجهة أخوات لها من ذات الفصيلة وهي تحارب من أجل الأرضات. إلى هذه الدرجة الحضارة النّملية قادرة على التأقلم، إلّا أنّها قد بذلت جهداً واضحاً هذه المرّة لإظهار موهبتها.

رغب النّمل بأن يسلك سلوك أعدائه، وأن يستأجر كتائب أرَضَة لمحاربة الأرَضَات. إلّا أنّ ما أعاق هذه المهمّة وفشّل هذا المشروع، أنّ الأرَضَات ملكيين بالمطلق. إخلاصهم لا تشوبه شائبة، هم غير قادرين على قتال أبناء جلدتهم. لا يوجد سوى النّمل، الذي تتعدّد أنظمته السياسية بتعدّد فيزيولوجيته، قادر على تحمل التبعات السيئة للارتزاق.

ليكن! اكتفت الفيدراليات الكبيرة للنمل الأصهب بأن تدعم جيشها بالعديد من كتائب النّمل الغريبة، والتي التفّت جميعها تحت الراية الشميّة البيلوكانية الواحدة.

تقترب الرقم 103683 من المرتزقات القزمات. تسألهنّ إذا ما كنّ قد سمعن عن تحضير سلاح سرّي في شي - غا - بو، سلاح قادر بلمح البصر على إبادة حملة استكشافيّة مكوّنة من ثمان وعشرين نملةً صهباء. أجبن أنّهن لم يسمعنَ أيّ كلام بخصوص سلاح فعّال إلى هذه الحدّ.

سألت الرقم 103683 مرتزقات أخريات. تدّعي نملة صفراء أنّها حضرت أعجوبةً مماثلةً، لكن لم تكن هجمةً للقزمات... إنّما إجاصة معفّنة سقطت فجأةً عن الشجرة. يبثّ الجميع فيرومونات ضحكات مقهقهه. هذا هزل النّمل الأصفر.

تعاود الرقم 103683 الصعود إلى القاعة حيث تتدرّب زميلاتها المقرّبات. تعرفهنّ جميعاً بشكل شخصيّ. يصغين إليها بانتباه، إذا أنّهن يثقن بها. تنضمّ نحو ثلاثين محاربةً متحمّسة إلى مجموعة «البحث عن سلاح القزمات السرّي». آه! لو يرى الرقم 327 ذلك!

انتباه، مجموعة منظّمة تستهدف تدمير اللواتي والذين يودون أن يكشفوا السرّ. لا بدّ أنهنّ مرتزقات صهباوات يعملن لصالح القزمات. يمكننا تمييزهنّ من رائحة الصخر التي تفوح منهنّ جميعاً.

كاحتياط أمني، قرّرن أن يعقدن أولى اجتماعاتهن في قاع المدينة، في إحدى القاعات السفليّة في الطبقة الخمسين تحت الأرض. لا أحد ينزل إلى هناك أبداً. ينبغي أن يكنّ هناك في مأمن للبدء بتنظيم هجومهنّ.

جسـد الرقـم 103683 ينذرها بتسـرّع مفاجئ للوقـت. إنّها 23°. تسـتأذن بالانصـراف وتسـرع إلى موعدها مـع الرقم 327 والرقم 56.

جماليّات: ماذا يوجد أكثر جمالاً من النّملة؟ خطوطها محنيّة ومنسابة، ديناميكيتها الهوائيّـة رائعة. هيكل الحشرة بمجمله مدروس ليأخذ كلّ عضو مكانه بالضبط داخل الشـقّ المخصّص له. كل مفصل هو إعجاز ميكانيكي. تتراكب صفائحها على بعضها كما لو أنها صمّمت من قبل مصمّم استعان بحاسوب. لا تجفّ أبداً ولا تصدر صريراً. الرأس مثلّث يشقّ الهواء، الأرجل الطويلة والمثنيّة تعطي للجسد ثباتاً مريحاً على أديم الأرض. كما لو أنّها سيّارة رياضيّة إيطاليّة.

تسمح لها المخالب بالسير على السقف. لدى العيون رؤية شاملة بزاوية 180°. تلتقط بقرنيها آلاف المعلومـات غير المرئيّة بالنسبة لنا، ويمكن أن تكون أطرافها بمثابة مطرقـة. البطـن مليء بالجيـوب، والأحواض، والمقصـورات حيث تستطيـع النّملة تخزيـن موادّ كيميائيّة. الفكوك تقصّ، وتقرصـ، وتلتقط. وعلاوة على ذلك شبكة رائعة من الأنابيب الداخليّة تسمح لها ببثّ رسائل شميّة.

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

نيكـولا لا يريـد أن ينام. لايزال أمـام التلفزيـون. انتهت الأخبار للتـوّ وهـي تعلن عن عودة المسـبار ماركو بولو. محصّـلة الرحلة: لا أثر للحياة في الأنظمة الشمسيّة المجاورة، كافّة الكواكب التي زارها هذا

المسبار لم تقدّم سوى صور لصحارى صخريّة أو مساحات سائلة من الأمونياك. ليس ثمّة لا طحلب ولا أميبا، ولا أيّة جرثومة.

«وماذا لو كان أبي على حقّ؟ قال نيكولا في سرّه. وماذا لو كنّا الشكل الوحيد لحياة ذكيّة في الكون كلّه؟...» بالطبع هذا مخز ولكن يحتمل أن يكون صحيحاً.

سيعرض بعد الأخبار تحقيق كبير من سلسلة «ثقافات العا لم»، وهو مكرّس اليوم لمشكلة الطوائف في الهند.

«يظلّ الهندوس طوال حياتهم ينتمون إلى طائفتهم بالولادة. وتعمل كل طائفة حسب قوانينها الخاصّة، والتي هي قوانين صارمة لا يقوى أحد على انتهاكها دون أن ينفى خارج طائفته الأصليّة وخارج جميع الطوائف. ولنفهم هكذا سلوك علينا أن نتذكر بأنّ...»

– الساعة الواحدة ليلاً، تدخّلت لوسي.

– كان نيكولا متخماً بالصور. منذ مشاكل القبو، وهو يجلس لأربع ساعات متواصلة أمام التلفزيون. هذه طريقته لتجنّب التفكير بشيء وحتّى لتجنّب أن يكون هو نفسه. صوت أمّه أعاده إلى الوقائع المضنية.

– هيّا، ألست متعباً؟

– أين أبي؟

– لا يزال في القبو. يجب النوم الآن.

– لا أستطيع النوم.

– أتريد أن أروي لك قصّة؟

– أوه أجل! قصّة! قصّة جميلة!

رافقته لوسي إلى حجرته وجلست على طرف السرير وهي تحلّ شعرها الأصهب الطويل. اختارت له قصّة عبريّة قديمة.

– كان يا ما كان في سالف الأزمان حجّار أصابه السأم من الإنهاك المتواصل في حفر الجبل تحت أشعّة الشمس الحارقة. «سئمت هذه الحياة. سئمت التقطيع، تقطيع هذه الأحجار... هذا العمل متعب... وهذه الشمس، هذه الشمس بلا رحمة! آه! كم أتمنّى لو كنت في مكانها، هناك في الأعلى سأكون قادراً على كلّ شيء، دافئاً وأنا أغمر العالم بأشعتي»، قال الحجّار في سرّه. وهو على هذه الحال، حدثت المعجزة، وسُمع ندائه. وفجأة تحوّل الحجّار إلى شمس. بدا سعيداً بتحقّق أمنيته. ولكن وهو في غمرة سعادته، باعثاً أشعته إلى كلّ الأرجاء، انتبه إلى الغيوم وقد حجبت أشعّته. «ما الفائدة من أكون شمساً إذا ما تمكّنت غيوم بسيطة من حجب أشعّتي! مستغرباً، إذا كانت الغيوم أقوى من الشمس أفضّل أن أكون غيمةً» فأصبح غيمةً. طاف حول العالم، راكضاً، وموزعاً المطر، ولكن بغتة هبّت الريح وفرّقت هذه الغيمة. «آه، بإمكان الريح تفريق الغيوم، إذاً هي الأقوى، أريد أن أكون ريحاً»، قرّر.

– فأصبح ريحاً إذاً؟

– بلـى، وهبّ في جهات الأرض. قام بعواصـف وزوابع مفاجئة وأعاصـير. ولكن فجأةً لاحظ جداراً يسدّ عليه الطريق، جداراً شديد العلوّ، وقاسـياً جداً. إنّه جبل. «ما الفائدة من أن أكون ريحاً إذا تمكّن جبل بسيط من إيقافي؟ هو الأقوى إذاً!» قال في ذاته.

– فأصبح جبلاً!

– تماماً. وعند هذه اللحظة شـعر بشـيء يضربه. شـيء أقوى منه، يحفر من داخله. إنّه... حجّار صغير...

– آآآه!

– أعجبتك القصّة؟

– أجل، أجل أمي!

– أنت متأكّد أنّك لم تر أجمل منها في التلفزيون؟

– أبداً أمي.

ابتسمت وأخذته بين ذراعيها.

– ما قولك أمي، أتظنين أنّ أبي يحفر أيضاً؟

– من يعلم، ربّما؟ على أيّة حالٍ يبدو لديه اعتقاد بأنّه سـيتحوّل إلى شيء آخر إذا واصل النزول هناك في الأسفل.

– أليس هو على ما يرام هنا؟

– لا، هو خجل بنيّ من أنه عاطل عن العمل. يعتقد أنّه من الأفضل أن يكون شمساً. شمساً تحت الأرض.

– يعتقد أبي أنّه ملك النّمل.

ابتسمت لوسي.

– سيجتاز هذه الحالة. أتعرف، هو طفل أيضاً. والأطفال مبهورون دوماً بأعشاش النّمل. ألم تلعب يوماً مع النّمل؟

– أوه بلى أمي!

عدّلت لوسي وسادته وقبّلته.

– يجب عليك النوم الآن، تصبح على خير.

– تصبحين على خير ماما.

رأت لوسي أعواد الثقاب على الطاولة بجانب السرير. على الأغلب حاول ثانية أن يركّب المثلّثات الأربع. عادت إلى الصالون آخذةً معها كتاب الهندسة الذي يروي قصّة البيت.

لقد سكن فيه العديد من المختصين بالعلوم. وعلى الأخص البروتستانتيون. مثل، ميشال سيرفي الذي أقام فيه لبضع سنوات.

إلّا أنّ أكثر ما أثار انتباهها مقطع يحكي عن سرداب حفر تحت الأرض، أثناء الحروب الدينيّة، والذي أتاح للبروتستانتيين الهروب خارج المدينة. سرداب بعمق وطول نادرين...

ثلاث حشرات تجلس على هيئة مثلّث لإجراء اتصال مطلق. بهذه الطريقة لن يضطروا إلى قصّ مغامراتهم، تلقائياً سيعلمون كلّ ما

حدث معهم، كما لو كانوا جسداً واحداً قسّم إلى ثلاث لكي يتمّ البحث على نحو أفضل.

يتركون قرونهم تلتقي. فتبدأ الأفكار تطوف، وتندمج. كل الأفكار تدور. تقاد الرسالة الكهربائيّة التي يستلمها العقل وتثرى من قبل العقول التي تعمل كترانزستورات. ثلاثة أذهان نمليّة تجتمع على هذا النحو وتتبادل مجموع مواهبها.

لكن الجاذبيّة انكسرت فجأة. تلتقط الرقم 103683 رائحةً طفيليّةً. للجدران قرون، أو بالأحرى يبرز قرنان من فتحة مدخل مقصورة الرقم 56. أحد ما يسترق السمع...

عند الثانية عشرة منتصف الليل. كان قد مضى يومان و لم يصعد جوناثان. أخذت لوسي تذرع الصالون بعصبيّة جيئة وذهاباً. ولمّا مرّت لتطمئنّ على نيكولا الذي كان نائماً بعمق، تعلّقت نظرتها بشيء. أعواد الثقاب. انتابها حدس في تلك اللحظة بأنّه يمكن أن تكون بداية حلّ لغز القبو موجودة في لغز أعواد الثقاب. أربعة مثلّثات متساوية الأضلاع مع ستّة أعواد موجودة...

«ينبغي التفكير بطريقة مختلفة، إذا فكّرنا كما نحن معتادون على التفكير فلن نصل إلى شيء»، هذا ما كان يكرّره جوناثان. أخذت الأعواد وعادت إلى الصالون حيث حاولت فيها لوقت طويل. وأخيراً، منهكةً من القلق، مضت إلى النوم.

رأت في تلك الليلة حلماً غريباً. ظهر لها الخال إدمون أولاً، أو على الأقل شخص مطابق للمواصفات التي ذكرها زوجها. يقف في رتل طويل كما لو كان أمام سينما، يتمطّى وسط صحراء من الحصى. وكان ثمّة جنود مكسيكيون يحيطون بالرتل ويتأكّدون بأنّ «كلّ شيء يسير على أحسن ما يرام». ومن بعيد كان يُرى قرابة عشرة أعواد مشانق يعدم أشخاص عليها. وما إن يتصلّبون ويموتون تماماً، حتى ينزلوهم ويعلّقون غيرهم، فيما الرتل يواصل التقدّم...

كان جوناثان يقف خلف إدمون، ثمّ تقف هي، وخلفها رجل بدين يضع نظارات بعدسات صغيرة. كان جميع المحكومين بالإعدام يتكلّمون بهدوء، كما لو أنّ لا شيء يحدث.

حين وضعوا الأناشيط أخيراً في رقابهم وشنقوهم، هم الأربعة معلقون إلى جوار بعضهم، لم يفعلوا شيئاً سوى الانتظار ببلاهة، كان الخال إدمون أوّل من كسر الصمت، فقال بصوت مبحوح - وهذا طبيعيّ لمشنوق:

- ماذا نفعل هنا؟

- لا أدري... نعيش. ولدنا، وليس أمامنا إلّا أن نعيش أطول ما نستطيع. ولكن يبدو أنّنا وصلنا الآن إلى الخاتمة، أجاب جوناثان.

- أنت متشائم يا ابن أختي العزيز. صحيح أنّنا مشنوقون ومحاطون بجنود مكسيكيين، لكنّ هذا لا يتعدّى أن يكون من مصادفات الحياة، ليست هذه النهاية، إنها فقط مصادفة. بالمناسبة لا بدّ أنّ ثمّة حلّ لهذا الوضع. هل أنتم مربوطون بإحكام من الخلف؟

أخذوا يتململون بربطاتهم.

– لا، قال الرجل البدين. أنا أستطيع تحرير نفسي من هذه الحبال.

وفعل ذلك.

– حرّرنا إذاً.

– كيف ذلك؟

– تأرجح حتى تصل إلى أيدينا.

أخذ يتأرجح حتى بات أشبه برقّاص ساعة حيّ. بعد أن تمكّن من حلّ وثاق إدمون، استطاع الجميع أن يتحرّروا بالأسلوب ذاته، من واحد لآخر إلى آخر.

ثمّ قال الخال «افعلوا مثلي!» بقفزات صغيرة من الرقبة أخذ يتقدّم من حبل إلى حبل وصولاً إلى آخر مشنقة في الصفّ. أخذ الآخرون يقلدونه.

– ولكن لا يمكننا المواصلة أكثر! لا يوجد شيء أبعد من هذه العارضة، سنلفت انتباههم.

– انظروا يوجد ثقب في العارضة. دعونا نلج داخله.

قفز إدمون إلى العارضة، وأصبح صغيراً جداً واختفى داخل الثقب. ثم فعل جوناثان والرجل البدين مثله. قالت لوسي في سرّها إنها لن تتمكّن من فعل ذلك أبداً، ومع ذلك رمت نفسها على العارضة ودخلت الثقب!

كان يوجـد في الداخل درج حلزوني. صـعدوه أربعـةً أربعةً. تناهت إليهم جلبة العساكر الذين تنبّهوا لهروبهم (Los gringos, los gringos, cuidado!)[4] سمع وقع أبواط وإطلاق أعيرة ناريّة. إنّهم ملاحقون.

كان الدرج يفضـي إلى غرفة فندق حديثة لهـا إطلالة على البحر. دخلـوا وأقفلوا البـاب. تحول رقم الغرفة 8 بسـبب طـرق الباب من 8 عمـودي إلى 8 أفقـي، رمـز اللانهاية. كانت الغرفـة فخمة وكانوا يشعرون في داخلها أنّهم بمأمن من المسلّحين.

وما إن أخذ الجميع يتنفّسـون الصـعداء ارتياحاً، انقضّـت لوسي بغتة مطبقة علـى خناق زوجها. «يجب التفكـير بنيكولا، صرخت، يجب التفكير بنيكولا!» وطرحته أرضاً بمزهريّة قديمة تمثّل هرقل وهو طفل يخنق الأفعى. وقع جوناثان على السجادة وتحول إلى... قريدس مقشّور يتلوّى بطريقة مضحكة.

تقدم الخال إدمون.

– أنت نادمة، أليس كذلك؟

– لا أفهم.

– سوف تفهمين، قال مبتسماً. اتبعيني.

---

4. Los gringos: كلمـة تدل على الغرباء باللهجة المحكية الإسـبانية والبرتغاليّة، وتعني الجملة «احذروا هرب الغرباء».

أوصلها إلى الشرفة قبالة البحر، وفرقع بإصبعه. فنزل من الغيم ستّة أعواد ثقاب مشتعلة، واصطفّت على ظاهر يده.

– أصغي جيّداً، قال مشدّداً على الحروف، دوماً نفكّر بالطريقة ذاتها. ننظر إلى العالم بذات الطريقة المبتذلة. الأمر أشبه بالتقاط صور بعدسة زاوية واسعة. إنّها طريقة للنظر إلى الواقع، لكنّها ليست الوحيدة، ينبغي... التفكير... بطريقة مختلفة! انظري.

طارت عيدان الثقاب للحظة في الفضاء، ثمّ التقت على الأرض، وأخذت تزحف كما لو أنّها حيّة لتشكّل...

في اليوم التالي، محمومةً قليلاً، اشترت لوسي حارقاً. وتمكّنت من كسر القفل. وبينما تعدّ نفسها لاجتياز عتبة القبو، ظهر نيكولا في المطبخ، نصف نائم.

– أمي! أين تذهبين؟

– ذاهبة لأحضر أباك. ظنّ نفسه غيمة قادرة على اختراق الجبال. سأذهب لأرى إن كان لا يبالغ قليلاً. سوف أخبرك...

– لا أمي، لا تذهبي، لا تذهبي... سأظلّ وحدي.

– لا تشغل بالك نيكولا، سأصعد مجدّداً، لن أطيل غيابي، انتظرني.

أضاءت مدخل القبو. كان المكان معتماً، معتماً للغاية...

من هناك؟

تقدم القرنان كاشـفين عن رأس، ثمّ صدر وبطن. إنّها العرجاء الصغيرة ذات الرائحة الصخريّة.

أرادوا الانقضاض عليها، لكن فكوكاً أخذت تظهر وراءها، ما يقارب مائة جنديّة مدجّجة بالسلاح. ولهنّ جميعاً رائحة الصخر.

لنهرب من الممرّ السرّي! الأنثى 56 ألقت هذه الجملة.

أزاحـت الحصـاة وكشـفت سردابهـا. ثـمّ ارتفعـت خافقـة بجناحيها حتى لامسـت السـقف، وأطلقت حمضـاً على طلائع الدخـلاء. وبينما تمكّن حليفاها مـن الهرب، أفلت أمر مباغت من قوّة المحاربات.

اقتلوهم!

اختفـت الرقـم 56 بدورهـا داخـل الثقب. كادت رشـقات الحمض أن تصـيبها. بسرعـة! أمسكوهم! مئات الأرجل تسـعى في إثرهم. أعداد هائلة من الجاسوسـات! مصدرات جلبة داخل القناة وهم يغذون الخطى في مطاردة الثلاثي الفارّ.

بطونهم ملتصـقة على الأرض وقرونهم مسترسـلة إلى الوراء، بهـذه الطريقة يندفع الذكر والأنثـى والجنديّة داخل الممرّ، الذي لم يبـق له من السرّية شـيء، ويتمكّنون من الخـروج من منطقة جناح العذارى وهبوط الطبقات السـفليّة. يفضـي بهم الممرّ الضـيق إلى مفترق. ومنه أخذت تتناسل المفترقات، غير أنّ الذكر 327 يتمكّن من تحديد المكان فيقود رفاق الحظّ العاثر في الممرّات.

بغتـة يقفون في زاوية أحد الأنفاق، إذ تسرع باتّجاههم فرقة من الجنديّات. لا يعقل: عادت العرجاء والتقت بهم، الحشرة المكيافيليّة تعرف كافّة الطرق المختصرة!

ينسـحب الهاربـون الثلاثة ويركضـون مسرعـين. أخيراً حين يتسـنّى لهم التقاط أنفاسـهم، تقترح الرقـم 103683 أنّه من غير المجـدي القيام بمعركة علـى أرض الآخرين، داخـل هذه الممرّات المتشابكة التي يجولون فيها بمنتهى السهولة.

حـين يبدو العدو أكثر قوّة منـك، تصرّف على نحو يفلت من منطق فهمه. هذه الحكمة القديمة للأمّ الأولى تصلـح علـى حالهم حدّ التطابق. تخطر فكرة في ذهن الرقم 56: تقترح الاختباء داخل الجدران!

قبـل أن تجبرهم المحاربات ذوات رائحة الصـخر على الخروج من مخبئهم، يحفرون بأقصـى قوتهم داخل جدار جانبي، مندفعين يرفعـون التراب بفكوكهم. ملأ التراب عيونهـم وقرونهم. أحيانا يبتلعـون لُقُمات كبيرة، ليكونـوا أسرع. وحين أصـبحت الحفرة عميقة بما يكفي، التصـقوا بها، ثـمّ أعادوا ترميم الجدار وانتظروا. يصـل مطاردوهم عدواً ويتجاوزونهم. ولكـن لا يلبثوا أن يعودوا بخطوات أبطأ هذه المرّة. يشمّون رائحة خلف الفاصل الرقيق.

لا، لم يلحظوا شيئاً. ومع ذلك يستحيل البقاء هناك. فسيكتشف الآخـرون في النهاية بعض جزيئات رائحتهم. فما عليهم إذاً إلّا أن يحفـروا. تتقدمهم الرقـم 103683، بفكيّها الضـخمين، جارفة التراب أمامهم، والجنسيّان يردمانه ويسدان وراءهم.

فهمـت القاتلات الحيلة. فبدأن يسـبرن الجدران. عثرن على أثرهم وبدأن الحفـر مغتاظات. أخذت النّملات الثـلاث طريقاً هابطاً. على أيّـة حال، ليس من السـهل اللحاق بأيّ كان في هذا الضـباب المعتم. كلّ لحظة يفتح ثلاث ممرّات ويغلق اثنان. يصـعب والحال هكذا رسـم خريطة موثوقة للمدينة! نقاط العلّام الوحيدة الثابتة هما القبّة والأرومة.

تدخـل النّملات الثلاث ببطء في لحم المدينة. تصـادفهم أحياناً نبتة طويلة معرّشة، هي نباتات اللبلاب في الواقع، والمزروعة من قبل النمال المزارعـات كيلا تنهـار المدينة أثناء هطول الأمطـار. يحدث أن تكون الأرض أقسـى وأن تصـطدم فكوكهـم بحجر؛ ما يقتضـي الالتفاف حينذاك.

لم يعد الجنسيّان يلتقطان ذبذبات مطارديهم؛ يقرّر الثلاثيّ التوقّف. لقد أصـبحوا في جيب هوائيّ ضائع في قلب بيلوكان. كبسولة عازلة، بلا رائحة، مجهولة مـن الجميع. جزيرة خاوية في تجويف حجري. من سـيجدهم في هذا الكوخ المفرط الصغر؟ شعروا هناك أنّهم في المحيط البيضوي المعتم داخل بطن الأمّ.

تدقّ الرقـم 56 بقرونها على جمجمة الذي أمامها، نداء للتطاعم. يطوي الرقم 327 قرونه موافقاً ثمّ يلصق فمه على فم الأنثى. ويستعيد قليلاً من عُسيل الأرْقة الذي قدّمته له الحارسة الأولى. تستعد الرقم 56 مباشـرة قوّتها. ثم تـدقّ الرقم 103683 بدورها علـى جمجمة الرقم 56. يبدأن بامتصـاص الشـفاه وتعيـد الرقم 56 الطعـام الذي خزّنته لتوّهـا، ثمّ الثلاثة يداعبون ويمسّـدون بعضـهم. آه! كم العطاء جميل، بالنسبة لنملة...

حتى لو استعادوا قواهم، هم يعلمون أنّهم لن يستطيعوا البقاء هناك إلى ما لا نهاية. سينفد الأوكسجين، ورغم أن النّمل بإمكانه البقاء مدّة طويلة دون طعام، ودون ماء، دون هواء وبلا دفء، إلّا أنّ غياب هذه العناصر الحياتيّة ستؤدي في النهاية إلى نعاس قاتل.

يحصل تلامس قرني.

ماذا نفعل الآن؟

كتيبة تضمّ ثلاثين محاربة متضامنة مع مشروعنا، هنّ في انتظارنا في قاعة الطبقة الخمسين تحت الأرض.

لنذهب إلى هناك.

يستأنفون الحفر، متّجهين بفضل عضو جانستون الذي يمتازون به، والذي لديه حساسيّة للمجالات المغناطيسيّة الأرضيّة. يقتضي المنطق كما يظنون أنّ يكونوا الآن بين مخازن الحبوب في الطبقة 18 تحت الأرض والمفاطر بالطبقة 20 تحت الأرض. إلّا أنّهم كلّما نزلوا تزداد البرودة. هبط الليل، وأخذ الصقيع يتغلغل بعمق داخل الأرض. تباطأت حركاتهم، وتجمّدوا بوضعيات حفريّة وناموا بانتظار أن يصبح الجوّ أكثر لطفاً.

– جوناثان، جوناثان، هذه أنا لوسي!

شعرت بالخوف يتملّكها وهي تهبط عميقاً أبعد فأبعد في عالم

الظلمات هذا. هذا النزول اللانهائي على دوائر حلزونيّة الدرج، جعلها تغوص في حالة من الغياب، إذ بدا لها أنّها تهوي في داخلها أعمق فأعمق. كانت الآن تشعر بألم في بطنها، بعد أن باغتها جفاف في حلقها، ثمّ بعقدة مقلقة في ضفيرتها الشمسيّة، لحقها لسع حارق في المعدة.

استمرت ركبتاها وقدماها بالعمل تلقائيّاً؛ هل ستخوران قريباً من الإنهاك، وهل سيكون هناك وجع أيضاً، هل ستتوقّف عن النزول؟

صور من طفولتها بدأت تعود إليها. أمّها المتحكّمة التي لم تكفّ يوماً عن تأنيبها، واقترفت بحقّها ألف ظلم منحازة إلى إخوتها المدلّلين... وأبيها، ذلك الرجل المطفأ، الذي كان يرتعد أمام امرأته، ويمضي وقته هارباً من أصغر جدال مردّداً «حاضر» أمام أدنى رغبات الملكة الأم. أبوها، الجبان...

هذه الذكريات المؤلمة التي عادت تركت مكانها لشعور بأنّها لم تكن عادلة مع جوناثان. في الحقيقة، لم تكن تتوانى عن لومه كلّما كان يذكّرها بأبيها. وبالضبط لأنّها كانت تمطره باللوم، الذي كان بالمحصّلة ينهكه ويكسره، جعلته شيئاً فشيئاً يشبه أباها. وبذلك أعادت الدورة من جديد، إذ أعادت - دون أن تنتبه - إنتاج أكثر ما تكرهه في علاقة أبويها.

ينبغي التوقف عن الدوران في حلقة مفرغة. كانت عاتبة على نفسها من كلّ تلك الشجارات التي افتعلتها مع زوجها. يجب إصلاح الأمر.

أخذت تواصل الدوران، والنزول. اعترافها بذنبها حرّر جسدها من مخاوفه ومن آلامه الطاغيّة. تدور أكثر وتنزل، تكاد أن تصطدم بباب. باب عادي، جزء منه مغطّى بكتابة، لم تمعن النظر في قراءتها. ثمّة مقبض، فتح الباب دون صرير.

تواصل الدرج وراء الباب. الفارق الوحيد الملاحظ هو عروق دمويّة لصخر حديديّ يظهر في الحجر، مختلطاً برشح مائيّ، يحتمل أن يكون سبب الرشح مجرى مائي تحت الأرض. كان الحديد يتخذ صبغة متموّجة بلون أمغر متورّد.

تملّكها شعور بأنّها اجتازت مرحلة. وقع ضوء مصباحها على بقع دم تحت قدميها. لا بدّ أنّه دم ورزازات. إلى هنا وصل الكلب الشجاع إذاً... تلطّخ البقع المكان، غير أنّه يصعب التمييز على الجدران بين آثار الدم وصدأ الحديد.

فجأة التقطت صوتاً. خشخشةً. كأنّ مخلوقات تسير نحوها بخطوات متشنّجة، كما لو أنّها مخلوقات خجولة، كما لو أنّها تتهيّب الاقتراب. وقفت في الظلمة تبحث بضوء مصباحها. حين رأت مصدر الصوت، صرخت صرخة غير بشريّة. ولكن ما من أحد – حيث كانت – يستطيع سماعها.

طلع الصبح على جميع مخلوقات الأرض. يواصلون هبوطهم. يصلون الطبقة 36 تحت الأرض. تعرف الرقم 103683 المكان جيداً، وتعتقد أنّه يمكن الخروج دون خطر، فلن تتمكّن محاربات الصخر من اللحاق بهم إلى هذا المكان.

يصلون رواقاً منخفضاً وخالياً بالكامل. تظهر ثقوب في بعض الأمكنة، إلى اليسار وإلى اليمين، صوامع حبوب قديمة ومهجورة منذ ما يقارب عشرة فصول سبات شتويّ. الأرض لزجة. ثمّة تسرّب للرطوبة، وهذا هو السبب على الأرجح لتعدّ المنطقة غير صالحة للسكن، ممّا حوّلها إلى أسوأ الأحياء صيتاً في بيلوكان.

تنبعث رائحة كريهة.

الذكر والأنثى غير مطمئنين كثيراً. يلمحان حضوراً عدوانيّاً، قرون تتجسّس عليهم. المنطقة تعجّ بالحشرات الطفيليّة وممن يستعصون في المكان.

يواصلون تقدّمهم؛ حيث فكوك كبيرة منفرجة، في قاعات وأنفاق كئيبة. تجفلهم زقزقة حادّة. رويتش، رويتش... هذه الأصوات لا تغير رنينها. تَصدرُ بلحن حزين منوّم، تتردّد أصداؤه في أكواخ الطين.

إنّها الجداجد، بحسب الجنديّة، وهذه أغانيها عن الحبّ. يطمئنّ الجنسيّان قليلاً. إلّا أنّه لا يعقل أن تتهكّم الجداجد على فرق فيدراليّة وهي في حمى مدينتهم!

الرقم 103683 غير متفاجئة، ألا تقول حكمة الأمّ الأخيرة: إنّه من الأجدى تمكين النقاط القويّة عوضاً عن السعي للسيطرة على كلّ شيء؟ وها هي النتيجة...

تتناهى أصوات جلبة قويّة كما لو أنّ أحداً يحفر بسرعة. هل عثرت عليهم المحاربات ذوات رائحة الصخر؟ لا... تنبثق أمامهم قائمتان.

الجانب المسنّن منهما يشكّل نوعاً من مجرفة. تسحب القائمتان التراب إلى الوراء دافعة جسداً ضخماً أسود.

عسى ألّا يكون خلداً!

يجمد الثلاثة مكانهم، فاغري الفكوك.

إنّه خلد.

دوّامة غبار. كرة وبر أسود ومخالب بيضاء. يبدو الحيوان بين الطبقات الرسوبيّة يسبح كضفدع في بحيرة. الثلاثة يصفعون، ويمزجون، ملتحمين بأقراص طينيّة. غير أنّهم يخرجون سالمين، فالآلة النقّابة قد عبرت. كان الخلد يبحث عن الديدان فقط. لذته الكبيرة كانت في عضّ عقدها العصبيّة ليشلّها، ويخزّنها بعد ذلك حيّة في جحره.

فركت النمال الثلاثة الطين عنها. واستأنفوا طريقهم من جديد بعد أن نظّفوا أنفسهم بعناية.

دخلوا للتوّ ممرّاً ضيقاً جداً ومرتفعاً جدّاً. بثّت الجنديّة - الدليل رائحة تحذير وهي تشير إلى السقف. بالفعل هذا السقف مغطّى ببقّ أحمر ملطّع بالأسود. حشرات النار!

يبلغ طول هذه الحشرة ثلاثة رؤوس (تسعة ميليمترات)، على ظهرها رسم نظرة غاضبة. ويتغذّى عموماً على اللحوم الرطبة للحشرات الميّتة، وأحياناً على الحشرات الحيّة.

تلقي إحدى حشرات النار نفسها على الثلاثي. وقبل أن تصل

الأرض، تكون الرقم 103683 لوت بطنها تحت صدرها وقذفت رشقة حمض النّمليك. لا تصل الحشرة الأرض إلّا وقد تحوّلت إلى مربّى ساخن.

يلتهمونها بسرعة، ثمّ يجتازون الحجرة قبل أن ينقضّ عليهم عملاق آخر.

ذكاء: بدأت التجارب بالمعنى الفعلي لهذه الكلمة في كانون الثاني 1958. كان الموضوع الأوّل حول الذكاء. هل النمال ذكيّة؟

ولكي أجد جواباً على سؤالي، أحضرت عيّنة من النّمل الأصهب **Formica rufa**، متوسطة الحجم وعديمة الجنس، ووضعتها أمام المأزق التالي.

أنزلتها أسفل ثقب ووضعت بداخله قطعة من العسل الجّاف، لكنّ الثقب كان مسدوداً بعود خفيف الوزن طويل جداً ومغروز بإحكام. النّملة على جري عادتها توسّع الثقب لتعبر، إلّا أنّها، هنا، لا تستطيع توسعته إذ أنّ الثقب مصنوع من البلاستيك القاسي.

في اليوم الأول: تدفع النّملة العود بضربات صغيرة، ترفعه قليلاً، ثمّ تفلته، ثمّ تعود إلى رفعه.

في اليوم الثاني: تقوم النّملة بالشيء ذاته. وتحاول أن تقطع العود من الأساس أيضاً. لكن دون نتيجة.

في اليوم الثالث: كذلك أيضاً. يبدو أنّ الحشرة ضاعت في طريقة تفكير سيئة وتصرّ لأنها غير قادرة على تخيل طريقة تفكير أخرى. وهذا الحال سيكون برهاناً على عدم ذكائها.

في اليوم الرابع: كذلك.

في اليوم الخامس: كذلك.

في اليـوم السـادس: حـين استيقظت ذلـك الصباح، وجدت العـود منزوعاً من الثقب. على الأرجح حصل ذلك ليلاً.

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

الأروقة التي أتت لاحقاً نصف مسدودة. تتدحرج أحياناً قطع من الـتراب المعلّق، هناك في الأعلى، بجذور بيضـاء تتدلّى منها على هيئة عناقيد. يدعى ذلك «بَرَدْ داخلي» ولا سـبيل للوقاية منه إلّا بمضـاعفة الاحتراس والقفز إلى أحد الجوانب عند أيّة رائحة انهيار.

ثـلاث نمال تمضـي قدمـاً، البطن ملتصـقة على الأرضـ، القرون مسترسـلة إلى الوراء، والأرجل منفرجة على وسعها. يبدو على الرقم 103683 أنّهـا تعرف تماماً إلى أين تأخذهم. تصـبح الأرض رطبة من جديد، وتطفو روائح مقزّزة. رائحة حياة. رائحة حيوان.

يتوقّـف الذكـر 327. ليس متأكّـداً تماماً، ولكن بدا لـه أنّ الجدار تحرّك بمكر. اقترب من المنطقة المشبوهة، ارتعش الجدار مجدّداً. كما لو أنّ فماً ارتسـم على سطحه. يرتدّ إلى الوراء. شيء أصغر من خلد هذه المرّة. يتخذ الفم هيئة لولبيّة، ويبرز نتوء في وسطه ينقضّ عليه.

يطلق الذكر صرخة شمّية.

دودة الأرض! يفصـل رأسـها عن جسـدها بضربة فكّيـه. غير أنّ حيوانات من ذات الصنف بدأت تسيل عن الجدران حولهم، لكثرتها يخالون أنفسهم في أمعاء طير.

تحيط الدودة الحلقيّة بصدر الأنثى، فتعاجلها بضربة من فكّيها تحيلها إلى قطع وتأخذ كل واحدة منها تتلوّى في مكان. تتدخّل ديدان أخرى وتأخذ بالالتفاف حول أرجلهم ورؤوسهم. ملامسة القرون على نحو خاص شيء لا يمكن تحمّله. الثلاثة سويّة وفي اللحظة ذاتها يشهرون ويطلقون حمضاً على ديدان الخراطين غير المؤذية. في النهاية تتلطخ الأرض بتموّجات لحم أمغر أخذ يتقافز كأنّه يتحداهم.

يعدون مسرعين خارج المكان.

حين يستعيدون أنفاسهم، تشير لهم الرقم 103683 إلى سلسلة جديدة من الممرّات التي يجب اجتيازها. كلّما كانوا يتقدّمون كانت الرائحة تزداد نتانةً، وكلّما كانوا يعتادون عليها. نعتاد على كل شيء. تريهم الجنديّة حائطاً وتشرح لهم أين ينبغي الحفر.

إنّه مجمّع مخلّفات قديم للسماد العضوي، مكان الاجتماع بلصقه. نحبّذ الاجتماع في هذا المكان، إنّه هادئ.

يلعبون لعبة مخترقي الجدران. ويصلون الجهة الأخرى حيث ثمّة قاعة كبيرة لها رائحة الروث.

كانت الجنديّات الثلاثون المناصرات لقضيتهم هناك بانتظارهم بالفعل. ولكن لمخاطبتهم، ينبغي أولاً معرفة أساسيات لعبة البزل، إذ أنّ جميعهنّ على شكل قطع منفصلة. وفي معظم الحالات يكون الرأس بعيداً جداً عن الصدر.

أخذوا يفتّشون القاعة المروّعة مذهولين. من تجرّأ على قتلهم هنا، تحت أقدام بيلوكان؟

بالتأكيد شيء ما أتى من الأسفل، بثّ الذكر 327.

لا أظنّ ذلك، أجابت الأنثى 56، ومع ذلك اقترحت عليه حفر الأرض.

يغرز فكّيه. فيشعر بالألم. يوجد صخر في الأسفل.

صخرة ضخمة من الغرانيت، وضّحت الرقم 103683 متأخرة، إنّه القاع، قاعدة المدينة الصلبة. إنّها سميكة، سميكة جداً. وواسعة، واسعة جداً. لم نصل حدودها أبداً.

ولَم لا تكون قاع العالم. عندئذ ظهرت رائحة غريبة، شيء دخل الحجرة للتوّ. أحد بدا لهم ودوداً على الفور. لا إنّها ليست نملة من القطيع، بل خنفساء الروّاغة.

كانت الرقم 56 يرقةً، حين سمعت الأمّ تتحدث عن هذه الحشرة.

بعد تذوقه، لا يوجد إحساس يوازي الشعور الذي يرافق امتصاص رحيق الروّاغة. فاكهة جميع الشهوات الجسديّة، إفرازه يحدّ من أكثر النوازع عدوانيّة.

بالمحصلة، تناول هذه المادّة، يوقف الألم، الخوف، والذكاء. النمال اللواتي يكن محظوظات بالبقاء أحياء بعد موت ممّونتهنّ بالسمّ، يهرعن مسرعات خارج المدينة بحثاً عن جرعات جديدة. لا يأكلن ولا يرتحن، ويمشين إلى حدّ الإنهاك. وإذا لم يجدن روّاغة، يلتصقن بعشبة ويسلّمن أنفسهن للموت، تحت آلاف لسعات النقص التي ترعش أجسادهنّ.

سـألت الطفلة 56 ذات يوم، لماذا يسمح بدخول مثل هذا البلاء إلى المدينة، فيما كانت الأرَضَـة والنحل يقضـيان عليه دون رحمة؟ أجابتها الأمّ آنذاك بأنّ ثمّة طريقتان لمواجهة أيّة مشـكلة؛ إمّا منعها مـن الاقتراب منّـا، أو تركهـا تعبرنا. وليسـ بالضـرورة أن تكون الطريقة الثانية هي الأسوأ. يمكن لإفرازات الروّاغة إذا كانت معدّلة بطريقة جيّدة أو ممزوجة إلى مواد أخرى، أن تكون عقاقير رائعة.

تقـدّم الذكـر 327 أولاً. مسـحوراً بلذة النكهـات المنبعثة من الروّاغـة، يلعـق وبر بطنها الـذي ينتج خمور الهلوسـة. وما يدعو للإرباك اتّخاذ بطن المسـمّمة مع شـعيرتيه الطويلتين هيئة رأس نملة مع قرنيها!

تندفـع الأنثـى 56 هـي أيضـاً، ولكـن لا يتسـنى لهـا الوقت للاسـتمتاع. إذ تصفر رشـقة من الحمض. إنّها الرقم 103683 قد أشهرت وأطلقت. تتلوّى الروّاغة المحروقة من الألم.

علّقت الجنديّة، وهي بكامل يقظتها، على تدخّلها:

مـن المريـب وجود هذه الحشرة علـى هذا العمق. الروّاغـات لا تجيد حفر الأرضـ. أحـد ما أحضرها إلى هنا بقصد منعنا من المضـيّ أبعد! يوجد شيء في هذا المكان ينبغي اكتشافه.

ليسـ بوسـع النّملتـين الأخرتـين، الخجلتـين، إلّا تثمين وعي زميلتهما. يبحث الثلاثة مطوّلاً. يزيحون الحصـى، يشـتمّون أدقّ زوايـا الحجـرة. الأدلّة نـادرة، ورغم ذلـك، يلتقطـون في النهاية

رائحة عفونة معروفة. أثراً لرائحة الصـخر التي تميّز القتلة. تكاد لا تلحـظ، جزئيتين أو ثلاث فقـط، غير أنّها كافية. تصـل من هناك، من تحت تلك الصـخرة الصغيرة بالضبط. يقلبونها رأساً على عقب فيكتشفون ممرّاً سرّياً. ممرّاً إضافيّاً.

إلّا أنّ لهـذا الممـرّ ميـزة استثنائيّة: ليس محفـوراً بالتراب ولا بالخشـب، وإنّما بصـخر الغرانيت! لم يتمكّن أيّ فكّ الانقضـاض على مادّة كهذه.

الممرّ واسـع، لكنّهـم ينزلونه بحذر. بعد طريق قصـيرة، يقعون على قاعة واسعة ملآى بالطعام. طحين، عسل، بذور، صنوف من اللحم... كمّيات مذهلة، تكفي لإطعام المدينة خمسة فصول سُبَات شـتويّ! وكل ذلـك يعبق برائحة الصـخر ذاتها التـي للمحاربات اللائي يطاردنهم.

كيف يمكن لمؤونة بهذا الحجم أن تخزّن هنا بسرّية؟ وعلاوةً على ذلك، روّاغة تسـدّ المدخل! معلومة كهـذه لم تطف يوماً بين قرون القطيع...

يأكلـون بوفـرة ثمّ يجمعـون قرونهـم للتباحث. هذه القضـيّة تزداد مع الوقت غموضـاً. السلاح السرّي الذي قضى على الرحلة الاستكشـافية الأولى، المحاربات ذوات الرائحة الخاصـة واللواتي يهاجمنهـم في كلّ مكان، الروّاغة، مسـتودع الطعام السرّي تحت قاع المدينة... هذا يتجاوز احتمال أنّ مجموعة من المرتزقة المأجورين يعملون لصالح القزمات، أو أنّهم على درجة هائلة من التنظيم!

لم يتح للرقم 327 وأصدقائه الوقت الكافي ليفكروا بطريقة أعمق. إذ تتردّد في العمق ذبذبات صمّاء. بن بن بنبن. بن بن بنبن! هناك في الأعلى، العاملات تدقّ على الأرض بأطراف بطونها. حالة خطر. إنّه الإنذار في مرحلته الثانية. لا يمكنهم تجاهل هذا النداء. استدارت أرجلهم تلقائيّاً. أصبحت أجسادهم، مأخوذةً بقوّة عارمة، على الطريق للالتحاق بسائر القطيع.

العرجاء التي كانت تراقبهم من بعيد تنفّست الصعداء. ووف! لم يكتشفوا شيئاً...

أخيراً، بما أنّ لا أمّه ولا أبوه عادا وصعدا من القبو، قرّر نيكولا أن يبلغ الشرطة. الطفل الجائع بعيون محمرّة وصل مخفر الشرطة ليشرح أنّ «أبويه اختفيا داخل القبو» يحتمل أن تكون الجرذان قد أكلتهما أو النّمل. تبعه الشرطيّان مذهولين إلى الطبقة تحت الأرضية في 3 شارع السيباريت.

ذكاء (تابع): ينصح باستخدام كاميرة فيديو مع التجربة.

الموضوع: نملة أخرى من ذات الصنف ومن ذات العشّ.

في اليوم الأول: ترفع، تدفع وتعضّ العود بلا نتيجة.

في اليوم الثاني: كذلك.

في اليوم الثالث: تمّ الأمر! وجدت شيئاً، ترفع قليلاً، ثم تحصره بوضع بطنها في الثقب ونفخه، ثم تنزل تحت العود وتعيد مجدّداً. بهذه الطريقة، وبضربات صغيرة، تخرج العود ببطء.

هكذا كان الحلّ إذاً...

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

حدث خارق سبّب الإنذار. كانت المدينة الابنة لا - شو لا - كان، الموجودة في أقصى الغرب، قد هوجمت من قبل فيالق النمال القزمات.

هنّ مصرّات إذاً على إعادة الكرّة...

لا مفرّ من الحرب الآن.

الناجون، الذين استطاعوا خرق الحصار المفروض من قبل الشيغابويات، يتحدّثون عن أشياء غير قابلة للتصديق. وها هي روايتهم عمّا حدث:

عند حلول 17° - زمنيّة، اقترب غصن طويل من الأكاسيا باتّجاه المدخل الرئيسي لمدينة لا - شو لا - كان. غصن متحرّك بطريقة غير طبيعيّة. غرز فجأة ودمّر الفتحة... وهو يدور!

خرجت الحارسات هاجمات على ذلك الحفّار المجهول، إلّا أنّهم

قتلـوا جميعاً. بقي الجميـع فيما بعد مختبئاً بانتظار توقّف الغصـن عن التدمير. لكنّه لم يكن ليتوقف.

الغصـن فجّر القبّة كما لو أنّها برعـم ورد، عبث بالممرّات. مهما قذفت الجنديّات عشـوائيّاً، لم يكن للحمض أيّ أثر على ذلك النبات المدمّر.

لم يعـد بوسـع اللاشـولاكانيات تحمّل الرعب. ومـع ذلك توقّف الهجوم. حدثت فترة هدوء لمدّة 2° –زمنيّة، ثمّ وصـلت بعدها فيالق القزمات هاجمات بسرعة.

المدينـة المجروحـة وجدت صـعوبة في ردّ الهجـوم الأوّل. تقدّر الخسـائر بعشـرات الآلاف. الذين نجوا التجـأوا إلى أرومة الصـنوبر داعمين منعة سـورها. ولكنّهم لن يصـمدوا طويلاً علـى قيد الحياة، بسبب نقص المؤونة ولأنّ القتال بدأ في الشرايين الخشبيّة داخل المدينة المحرّمة. وبما أنّ لا – شولا – كان، جزء من الفيدراليّة، فعلى بيلوكان وكافّة المدن الابنة المجاورة لها مساندتها. إنذار القتال صدر مرسومه قبـل حتّـى أن تسـتلم القـرون نهاية بدايـة الحكاية حـول الملمّة التي عصـفت. من بوسعه بعد الآن التكلّم عن الاستراحة وإعادة الإعمار؟ أوّل حرب لهذا الربيع قد ابتدأت للتوّ.

وهـم يصـعدون الطبقـات، الذكـر 327، الأنثـى 56 والجنديّـة 103683، بأقصى ما يستطيعون، بدا كلّ من حولهم مسرعاً.

تُنــزل المربّيات البيضــ، اليرقات والحوريّــات إلى الطبقة 43 تحت الأرضــ. تخفي حالبات الأزْرقة دوابّها الخضراء في قاع المدينة. وتهيئ المزارعــات مخــازن الطعام المفــروم الذي يســهل تناوله في ســاحات القتال. وفي قاعات طبقة العسكريّين تملأ المدفعيّات بطونها إلى آخرها من حمض النّمليك، وتشحذ القصّاصات فكوكها، وتُجمَّع المرتزقات بفيالق مكتظّة. فيما يقفل الجنسيّيون على أنفسهم داخل أحيائهم.

ليس بالإمكان الهجوم فوراً، الطقس شــديد البرودة. لكن اعتباراً من صباح الغدّ، وعند أوّل شعاع للشمس، ستنفجر الحرب.

هنــاك في الأعلى، علــى القبّة، تغلــق مداخل التحكّــم الحراري. أغلقت مدينة بيلوكان مســامّها، قلّصت مخالبها، شدّت على أسنانها، وباتت جاهزة للعضّ.

الشرطيّ الأكثر بدانةً بين الشرطيّين لفّ ذراعه على كتف الصبيّ.

– إذن أنت متأكّد من ذلك؟ هما في الداخل فعلاً.

حرّر الطفل، بهيئة منهكة، نفسه دون أن يجيب. انحنى المفتش من أعلى الدرج وهتف «آواي» على قدر ما كان هتافه قويّاً بدا مضحكاً. أجابه الصدى.

– يبــدو عميقاً جــدّاً بالفعل، لن نتمكّن من النــزول هكذا، يلزمنا معدّات.

وضع المفوّض بيلشيم إصبعاً سمينه على فمه، بهيئة مهموكة.

– بالطبع. بالطبع.

– سأذهب لأحضر رجال الإطفائيّة، قال المفتش غالان.

– حسناً، سأستجوب الصغير في غضون ذلك.

أشار المفوّض إلى القفل المنصهر.

– أمّك فعلت ذلك؟

– بلى.

– امرأة حاذقة. لا أعرف نساء كثيرات بإمكانهن استخدام حرّاق لكسر باب مصفّح... ولا واحدة تجيد حتّى فتح مغسلة.

– لم يكن لدى نيكولا طاقة على المزاح.

– كانت تريد إحضار أبي.

– حقّاً، أعذرني... ولكن منذ متى هما في الأسفل!

– منذ يومين.

حكّ بيلشيم أرنبة أنفه.

– ولماذا نزل أبوك، أتعلم؟

– نـزل في البداية من أجل إحضـار الكلـب. ولكن لم نعد نعرف بعد ذلك. اشترى عدداً كبيراً من الصفائح المعدنيّة وأنزلها للأسفل. ثمّ اشترى الكثير من الكتب حول النّمل.

– النّمل؟ بالطبع، بالطبع.

المفوّض بيلشيم، وقد بدت عليه الحيرة، اكتفى بهزّ رأسه وهو يغمغم

بضعة «بالطبع» إضافيّة. يبدو أنّ القضيّة سيئة. لم يشعر بالارتياح لها. ليست المرّة الأولى التي يكون فيها أمام حالات «خاصة». يمكن القول أنّه كان يكلف تلقائيّاً بكل القضايا الشائكة. وهذا على الأرجح متعلّق بأحد سماته الأساسيّة، كان يمنح المختلّين إحساساً بأنّهم وجدوا أخيراً أذناً متفهّمة.

كانت موهبة لديه منذ الطفولة. منذ أن كان صغيراً جداً، ورفاقه في الصف كانوا يأتون إليه ليودعوه قصصهم الهذيانيّة. كان يهزّ رأسه موافقاً وهو ينظر في عيني محدّثه، مردّداً فقط «بالطبع». ذلك كان ينفع لكلّ الحالات. نعقّد حياتنا بصياغة جمل منمّقة ومجاملات لإدهاش أو جذب الذي أمامنا؛ إلّا أنّ بيلشيم قد لاحظ في الماضي بأنّ الكلمة البسيطة «بالطبع» تكفي وتزيد. وبذلك يكون قد وجد حلّاً للغز آخر من ألغاز التواصل بين البشر.

والأمر الأكثر غرابةً هو أنّ الشابّ بيلشيم، الذي لم يكن يتكلّم قط، حصل على سمعة متكلّم مفوّه في مدرسته، حتّى إنّه كان يُسأل عن إعداد خطاب نهاية العام.

كان يمكن أن يكون بيلشيم معالجاً نفسيّاً. إلّا أنّ الزيّ الرسميّ مارس إغواءه عليه. وعلى هذا لم يكن للمريول الأبيض شأن بنظره. في عالم المجانين الذي نعيشه، تمثّل الشرطة والجيش باختصار راية «الذين لا يستسلمون للرخاوة». لأنّه حتّى لو ادعى فهمهم، فإنّه كان يكره من يثرثر دون تفكير. مجانين! قمّة إغاظته كانت تأتي من الذين يتكلّمون بصوت مرتفع في الميترو، معيدين تمثيل مشهد فشل عاشوه منذ وقت قريب.

حين تطوّع بيلشيم في الشرطة، التقط رؤساؤه موهبته مباشرة. فكان يعهد له تلقائيّاً بجميع «الحالات غير المفهومة». وفي معظم الأوقات، لم يكن يحلّ شيئاً، غير أنّه كان يهتمّ بها، وهذا بحدّ ذاته كان جيّداً.

– آه، وهناك أعواد الثقاب!

– ما لها أعواد الثقاب؟

– ينبغي تشكيل أربعة مثلّثات بستّة أعواد ثقاب إذا أردنا أن نعثر على الحلّ.

– أيّ حلّ؟

– «الطريقة الجديدة في التفكير». «المنطق» الآخر الذي تكلّم عنه أبي.

– بالطبع.

هذه المرّة اغتاظ الصبيّ:

– لا، ليس «بالطبع»! يجب البحث عن الشكل الهندسي الذي يسمح بعمل أربعة مثلّثات. النّمل، الخال إدمون، أعواد الثقاب، كلّها أشياء مرتبطة.

– الخال إدمون؟ من هو هذا الخال إدمون؟

انفعل نيكولا.

– هو الذي كتب **موسوعة العلم النسبيّ والمطلق**. لكنّه مات. ربّما بسبب الجرذان. الجرذان ذاتها التي قتلت ورزازات.

تنهد المفوّض بيلشيم. شيء صادم! ماذا سيحلّ بهذا الصبيّ حين يبلغ سنّ الرشد؟ سيغدو بالحدّ الأدنى مدمن كحول. أخيراً، وصل

المفتش غالان مع رجال الإطفاء. نظر إليه بيلشيم باعتزاز. بارع هذا الغالان. بل إنّه منحرف. قصص المجانيين تثيره، كلّما كان الأمر أشدّ غرابةً، غاص فيه أكثر.

بيلشيم المتفهم وغالان المتحمّس كانا يشكّلان معاً الفريق غير الرسمي «لقضايا – المجانين – والتي – لا أحد – يريد – تسلّمها». سبق لهم وكلّفوا بقضية «المرأة العجوز التي أكلتها هررتها»، وأيضاً بحالة «المومس التي كانت تخنق الزبائن بلسانها»، دون نسيان «محطّم رؤوس باعة اللحم البارد».

– حسناً، قال غالان، ابق هنا سيّدي، سنغوص ونحضرهما لك على النقّالات المطّاطيّة.

داخل مقصورتها الملكيّة، تتوقف الأمّ عن البيض. ترفع قرناً واحداً معلنة رغبتها بالبقاء بمفردها. فتنسحب وصيفاتها.

بيل – كيو – كيوني، العضو الجنسيّ الحي للمدينة، قلقة.

لا، هي لا تخاف الحرب. خاضت في السابق حروباً كثيرة وانتصرت، وخسرت نحو خمسين مرّة. ما يقلقها شيء آخر. قصّة السلاح السرّي. ذلك الغصن من الأكاسيا الذي يدور ويخلع القبّة. لم يغب عن ذهنها أيضاً شهادة الذكر 327، ثمان وعشرون محاربة ماتت دون أن يتسنّى لها حتّى أن تتّخذ وضعيّة القتال... هل يمكن المجازفة بعدم أخذ هذه المعطيات الاستثنائيّة بعين الاعتبار؟

لا يمكن تجاهلها بعد الآن.

ما الذي ينبغي فعله؟

مـا تزال بيل – كيو – كيـوني تتذكّر المرّة التي كان عليها «مواجهة سلاح سرّي غير مفهوم». كان ذلك إبّان الحروب ضدّ عشوش الأرَضَة الجنوبيّة. فقد أعلن لها في أحد الأيام بأنّ فرقة من مائة وعشرين جنديّة، لسن مقتولات، وإنّما «مجمّدات»!

كان الهلـع في ذروته آنـذاك. اعتقدنا أنّه لن يكـون بمقدورنا أبداً الانتصـار على الأرضـات، وأنّهنّ قد توصّـلن إلى تقـدّم تكنولوجيّ حاسم.

أرسـلنا عيوناً تسـتطلع الأمر. في الواقع كانت الأرَضَة قد طوّرت طائفـة من المدفعيّات قاذفات الصـمغ، الأنافيّات، التي كان بوسـعها الرمي عن مسافة مائتي رأس صمغاً يثبّت أرجل الجنديّات وفكوكها.

فكّـرت الفيدراليّة مطولاً، ثم تمكّنـت من المراوغة: التقدّم بحماية أوراق ميّتة. ذلك ما أدى إلى معركة «الأوراق الميّتة» المشهورة، والتي انتصرت فيها الفرق البيلوكانيّة...

غير أنّ الأعداء هذه المرّة لسـن الأرضات البليدات، وإنّما القزمات التـي باغتنهم وأذهلنهـم بحيويّتهم وذكائهم. فضـلاً عن ذلك، يبدو السلاح السرّيّ هذه المرّة مدمّراً على نحو خاص.

في حالة من العصبيّة أخذت تعبث بقرنيها. ما الذي تعرفه بالضبط عن القزمات؟

الكثير والقليل من الأشياء.

وصــلت أولئك القزمات إلى المنطقة منــذ مائة عام. عثر في البداية على بضــع مســتطلعات. وبما أنّ حجمهم كان صــغيراً، لم يشعر أحد أنّهنّ يشــكلن أيّ تهديد. فيما بعد وصلت قوافل القزمات، حاملات بيوضهن ومؤنهن من الطعام، وقضين ليلتهنّ الأولى تحت جذر شجرة الصنوبر الكبيرة.

عند الصــباح كان نصــفهم قد أبيد من قبل قنفــذ جائع. الناجيات منهن اتجهن صــوب الشمال حيث أسّســن مخيّماً مؤقّتاً، غير بعيد عن النّمل الأسود.

وقد تداول في الفيدراليّة آنذاك: «إنّها قضــيّة بين القزمات والنّمل الأســود». و لم يعدم وجود أصــوات غير مرتاحة الضمير لترك أولئك الهزيلات ترعاهم النمال السود البدينات.

إلّا أنّ النمال القزمة لم تتعرّض للإبادة. كنّا نراهم هناك في الأعلى كلّ يوم، ينقلن العيدان والخنافس الصــغيرة. والنمال السود البدينات بالمقابل... هنّ اللواتي لم نعد نراهم.

إلى الآن لا نعرف ما الذي حصــل، لكن المستطلعات البيلوكانيات نقلــن لنا أنّه منذ ذلك الوقت فصــاعداً اســتولت القزمــات على عشّ النّمــل الأســود بأكمله. أخذ الأمر على أنّه قضــاء وقدر، وحتى يمكن القــول بفكاهة. **تستحق هذه النمــال السود المتكبّرة ما نالها**، كان يشــمّ ما يشــبه هذه الجملة في الممرّات. ومن ثمّ ليس لنمال بهذا الحجم عديمة القيمة أن تشغل بال الفيدراليّة القويّة.

ولكن بعد النّمل الأسود، استولت القزمات على أحد قفران النحل في شجرة الورد البرّي... ثمّ آخر عشّ للأَرَضَة في الشمال وعشّ النّمل الأحمر السام جميعهم بدورهم سقطوا تحت راية القزمات!

اللاجئون الذين كانوا يتوافدون إلى بيلوكان والذين كانوا يزيدون من ضخامة كتلة المرتزقات كانوا يروون عن القزمات امتلاكهم لخطّط حربيّة رائدة. فقد كانت على سبيل المثال تلوّث نقاط الماء بإضافة سموم مأخوذة من زهور نادرة.

ومع ذلك لم نكن قد شعرنا بعد بقلق جدّي. احتاج الأمر أن تقع مدينة نيزيو – ني – كان السنة الماضية في 2° –زمنيّة، لنتنبّه أخيراً أنّنا أمام عدوّ مرهوب الجانب.

ولكن إذا كانت الصهباوات قد استخفّت بالقزمات، فإنّ القزمات بالمقابل لم يقدّروا الصهباوات حقّ قدرهم. مدينة نيزيو – ني – كان مدينة صغيرة، إلّا أنّها تابعة للفيدراليّة. في اليوم الثاني لانتصار القزمات، كان مئتان وأربعون فيلقاً وكلّ فيلق يضمّ ألفاً ومائتي جنديّة قد وصلوا، أيقظوهنّ بجوقة. نتيجة المعركة كانت محسومة، لكن هذا لم يمنع القزمات من القتال بشراسة، إذ لزم الفرق المتحدة يوم كامل قبل دخول المدينة المحرّرة.

اكتشف آنذاك بأنّ القزمات لم يثبّتوا ملكة واحدة في نيزيو – ني – كان... وإنّما مائتي ملكة. وكان ذلك صادماً.

جيش هجومي: النّمل هي الحشرات الاجتماعيّة الوحيدة التي تولي رعاية لجيش هجوميّ.

الأرَضَة والنحل، هما صنفان ملكيان مواليان وأكثر فطريّة، لا يستخدمان جنودهما إلّا لأجل الدفاع عن المدينة أو لحماية العاملات الخارجات بعيداً عن العشّ. من النادر نسبيّاً أن نرى عشّ أرَضَة أو قفير نحل يقوم بحملة احتلال لأرض. رغم أنّه سبق وحدث.

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

ملكات القزمات اللواتي سقطن في الأسر قصصن حكاياتهم وتقاليدهم. قصّة أقرب إلى الخيال يصعب تصديقها.

بحسب كلامهن، كانت القزمات في الماضي تعيش في بلد آخر، يبعد مليارات الرؤوس.

كان ذلك البلد يختلف عن غابة الفيدراليّة، تنمو فيه فاكهة ضخمة، ملوّنة جدّاً وشديدة الحلاوة. علاوةً على ذلك لم يكن ثمّة من شتاء ولا فترات سبات. على أرض النعيم تلك أنشأت القزمات شي – غا – بو «القديمة»، المدينة هي نفسها تتحدّر من سلالة أقدم. كان ذلك العشّ مُشاداً تحت شجرة دفلى.

ولكن ذات يوم، اقتلعت شجرة الدفلى من الأرض مع التراب المحيط بها ووضعت في صندوق خشبيّ. حاولت القزمات الفرار

من الصـندوق، لكنّ الصندوق وضع في بناء قاس وشديد الضخامة. ولمّا وصلوا إلى حدود ذلك البناء، وجدوا مياهاً، مياهاً مالحة على مدّ البصر.

قزمات كثيرات غرقن وهن يحاولن العودة إلى أرض الأجداد، ثمّ قرّرت الأغلبيّة بأنّه لا يهمّ، يجب رغم كل شـيء البقاء على قيد الحياة في هذا المبنى الهائل والقاسي المحاط بالمياه المالحة. استغرق ذلك أيّاماً وأيّاماً.

كانوا يلاحظون بفضل عضو جونستون الذي لديهم أنّهم ينتقلون سريعاً جدّاً على مساحة شاسعة.

لقـد اجتزنا ما يقرب مائة حاجز مغناطيسيّ أرضي. إلى أين ذلك الشيء كان يأخذنـا؟ ثم أنزلونا في هـذا المكان نحن وأشجار الدفلـى، وعندئذ اكتشفنا هذا العالم، وحياته البريّة الغريبة

تغيّر البيئة بدا مخيّباً. إذ كانت الفاكهة، والزهور، والحشرات أصغر حجمـاً، وأقلّ لونـاً. كانت قد تركت بلـداً أحمر وأصـفر وأزرق، لتجد هنا الأخضر والأسود والبنيّ. عالم باهت عوضاً عن ذلك العالم الزاهي.

علاوة على وجود شتاء وبرد يعيقان كلّ شيء. لم يكنّ يعلمن هناك أنّ للبرد وجوداً، والأمر الوحيد الذي كان يسـتدعي الاسـتراحة هو الطقس الحار!

ابتكرت القزمات حلـولاً لمقاومة البرد. الأسـلوبان الأكثر فعّالية هما: اتخام بطونها بالسكّر، وطلاء أجسادها بلعاب الحلزون.

بالنسبة للسكّر، أخذت تجمّع سكّر الفريز، وتوت العلّيق والكرز. وبما يخصّ الدسم اقترفوا إبادة حقيقيّة بحقّ حَلازِينُ المنطقة.

كانت لهم عادات مدهشة بحقّ: فلم يكن لديهم لا جنسيّين ذوي أجنحة ولا تحليقاً زفافيّاً. كافة الإناث كانت تمارس الحبّ وتبيض في بيتها تحت الأرض. وبذلك لم تكن للقزمات بيّاضة وحيدة وإنّما المئات. الأمر الذي كان يعطيهم أفضليّة حقيقية: إذ أنّ معدّل البيض عندهم أكبر بكثير من النمال الصهباوات، ممّا يجعلهم أقلّ هشاشة. فقد كان يكفي قتل الملكة لقطع رأس مدينة صهباء بأكملها. بينما تستطيع مدينة قزمة أن تخلق من جديد طالما بقيت فيها أيّة أنثى.

ليس ذلك فحسب. فقد كان للقزمات فلسفة أخرى في اجتياح الأراضي. فبينما كانت الصهباوات، بفضل التحليق الزفافي، يهبطن في أبعد مكان ممكن ثمّ يتصلن عبر مدارج إمبراطورية الفيدراليّة المترامية. تتقدّم القزمات سنتمتراً فسنتمتراً انطلاقاً من مدنهم المركزيّة.

إضافةً إلى أنّ أحجامهم الصغيرة كانت ميزة بحدّ ذاتها – لا يلزمهم إلّا القليل من السعرات الحراريّة ليحصلوا على حيويّة ذهن ومستوى عال من الحركة. استطعنا في الماضي قياس سرعة ردّة فعلهم أثناء مطر غزير. ففيما كانت الصهباوات لا تزال تحاول بصعوبة إخراج قطعانها من الأزقة وباقي البيوض من الممرّات الغارقة، كانت القزمات قد أنشأت قبل بضع ساعات عشّاً لها داخل تجويف في لحاء شجرة الصنوبر الكبيرة ونقلن إليه كافّة كنوزهنّ.

تتسم حركات بيل – كيو – كيوني بالعصبيّة كما لو أنّها تطرد أفكاراً مقلقة، تبيض بيضتين، بيضتين محاربتين. لم تكن المربّيات

حاضرات لاستلامهما، وهي جائعة، فتلتهمهما بشراهة. بروتينات ممتازة.

تقوم بإغاظة نبتتها آكلة اللحوم. طغت عليها هواجسها من جديد. السبيل الوحيد لصدّ ذلك السلاح السرّي لن يكون إلّا باختراع آخر، أكثر تطوراً، وفتكاً. كانت النمال الصهباوات قد اكتشفت عبر مراحل حمض النّمليك، الورقة الدرعيّة، والفخوخ اللاصقة. ما يتوجب هو فقط العثور على شيء آخر. سلاح بإمكانه مباغتة القزمات، وأكثر فعّالية من غصنهنّ المدمّر!

تخرج من مقصورتها الملكيّة، تقابل جنديّات وتتكلّم معهم. تقترح إنشاء مجموعات للتفكير في موضوع «العثور على سلاح سرّي مضاد لسلاحهم السرّي» أجاب القطيع بالإيجاب على تحفيزها. فأخذت تتشكّل في كلّ النواحي مجموعات صغيرة من جنديّات، وعاملات أيضاً، تضمّ من ثلاثة إلى خمسة أفراد. تتواصل قرونها على هيئة مثلّث أو مخمّس مجريةً مئات الاتّصالات المطلقة.

– انتبهوا، سأقف! قال غالان، غير راغب بتلقي دفعة في ظهره من قبل ثمانية من رجال الإطفاء.

– كم هو معتم هذا المكان في الداخل! أعطوني مصباحاً أقوى.

التفت إلى الوراء ومُدّ له مصباح ضخم. لا تبدو علائم الارتياح على رجال الإطفاء. رغم أنّهم، هم الذين يرتدون سترات جلديّة

وخـوذ. بينما لم يفكّر هو للأسـف بارتداء شـيء ملائـم لهذه الرحلة الاستكشافيّة سوى سترته المدنية!

نزلوا بحذر. كان المفتش، عين المجموعة، يضيء كل زاوية قبل أن يتقدّم أيّ خطوة. ذلك أبطأ لكنّه أكثر أمناً.

على مستوى النظر، مسح شعاع المصباح كتابة محفورة على قوس.

اختبر نفسك بنفسك

إذا لم تواصل التطهّر بمثابرة

فسوف تنالك أعراس الكيمياء بالضرر

يا ويل من سيتوانى هناك

ليمتنع، من كان عابثاً

الفن الأكبر (Ars Magna)

– رأيتم ذلك؟ سأل إطفائيّ.

– إنّها كتابة قديمة، ليسـت أكثر من ذلك... قلّل المفتش غالان من أهميّتها.

– أشبه بكتابات السحرة.

– على أيّ حال، يبدو عميقاً جداً.

– معنى الجملة؟

– لا، الدرج. كأنّه يمتد كيلومترات من الدرجات صوب الأسفل.

استأنفوا نزولهم. وعلى الأرجح وصلوا إلى نحو 150 متراً تحت مستوى المدينة. ولا يزال الدرج آخذاً بالهبوط الحلزوني، مثل مروحة DNA. شعروا بقليل من الدوار. إنّه عميق، ولا يفتأ يزداد عمقاً.

– على هذا النحو يمكن أن نستمرّ إلى ما لا نهاية، تذمّر إطفائيّ. لسنا مجهّزين لمثل هذا الاستغوار.

– ظننت أنّ الأمر لا يتعدى إخراج شخص من القبو، قال إطفائيّ آخر كان يحمل النقّالة المطّاطية. زوجتي كانت تنتظرني على العشاء في الثامنة، لا بدّ أنها مبتهجة الآن وقد أصبحت العاشرة!

استعاد غالان السيطرة على المجموعة.

– أصغوا أيها الرفاق، نحن أقرب إلى القاع من السطح، لنبذل بعض الجهد. لن نستسلم في منتصف الطريق.

غير أنّهم حقيقة، لم يكونوا قد اجتازوا أكثر من عُشر الطريق.

بعد بضعة ساعات من الاتّصالات المطلقة وعند حرارة تقارب 15°، خرجت مجموعة من النمال الصفراء المرتزقة بفكرة، سرعان ما جرى الاعتراف بها من قبل المراكز العصبيّة على أنّها الفكرة الأمثل.

الفكرة أنّ لدى بيلوكان عدداً من الجنديّات المرتزقات من فصيلة خاصة، «طاحنات الحبوب». تمتاز هذه الفصيلة برؤوس ضخمة وفكوك طويلة قاطعة تسمح لها بكسر أقسى أنواع الحبوب. لكنّ فعّاليتها في المعارك ضعيفة، إذ أنّ أرجلهنّ قصيرة جدّاً تحت أجسادهنّ المفرطة الثقل.

فما الجدوى من أن تجرّ بصعوبة إلى ساحة المعركة لإحداث فارق بسيط؟ لذا، حصرتها الصهباوات بالأعمال المنزليّة، كقصّ العيدان الثخينة مثلاً.

ومع ذلك، يوجد طريقة برأي النمال الصفراوات لتحويل أولئك الثقيلات إلى صواعق حرب، بمجرد أن تُحمل الواحدة منهنّ من قبل ستّ عاملات رشيقات.

بهذه الطريقة، يمكن لطاحنات الحبوب، وهي تقود عبر الروائح «أرجلها الحيّة»، إذابة أعدائها بسرعة هائلة وتقطيعهم بالفكوك الطويلة.

تقوم بعض الجنديّات المتخمات بالسكر بإجراء تجارب في القاعة الشمسيّة. ترفع ستّ نمال طاحنة حبوب وتركض محاولة مزامنة خطواتها. يبدو الأمر ناجحاً.

وهكذا توصّلت للتوّ مدينة بيل – أو – كان إلى اختراع الدبّابة.

لم يرهم أحد يصعدون ثانية.

في اليوم التالي، عنونت الصحف: «فونتينبلو – اختفى ثمانية من رجال الإطفاء ومفتش شرطة في ظروف غامضة داخل أحد الأقبية».

منذ الفجر المائل للحمرة البنفسجية، والنمال القزمات اللواتي تحاصر مدينة لا – شولا – كان المحرّمة تتجهّز لبدء المعركة. الصهباوات المعزولات داخل أرومتها تتضور جوعاً وقد نال التعب منها. لن يصمدوا طويلاً على هذه الحال.

استأنفت المعارك. احتلت القزمات تقاطعين إضافيين بعد اشتباكات طويلة بالقذائف الحمضية. الخشب المتآكل جراء القذائف يتقيأ جثث الجنديّات المحاصرات.

استنفدت آخر الناجيات الصهباوات قواها. القزمات تتقدّم داخل المدينة. بالكاد تمكّن القنّاصون المختبئون في فتحات السقف من تأخيرها.

لم تعد مسافة كبيرة تفصلهم عن المقصورة الملكيّة، حيث تقبع داخلها الملكة لاشو – لا – كيوني، وقد بدأت تبطئ من خفقان قلبها. لقد انتهى كلّ شيء.

لكن بغتة، تلتقط فرق القزمات في الطليعة رائحة إنذار. شيء ما يحدث في الخارج. فتنسحب متراجعة إلى الخلف.

هناك في الأعلى، فوق تلة الخشخاش التي تشرف على المدينة، تظهر آلاف النقاط السود بين الزهور الحمراء.

عقد البيلوكانيّون أمرهم على الهجوم أخيراً. ليكن، لقد جنوا على أنفسهم! ترسل القزمات رسولات الذباب المرتزقة لتنذر المدينة المركزيّة.

وقد حمّلت جميعها بالفيرومون ذاته:

إنّهم يهجمون. أرسلوا تعزيزات من الجهة الشرقيّة للإطباق عليهم. أعدّوا السلاح السرّي.

دفء شعاع الشمس الأوّل المتسلّل خلل الغيم عجّل باتخاذ قرار الهجوم. عند الساعة الثامنة وثلاث دقائق. نزلت فيالق البيلوكانيّات التلّة متخذين هيئة خرطوم، متجنبين العشب، قافزين فوق الحصى. ملايين من الجنديّات تعدو بفكوك منفرجة. مشهد مبهر.

لكنّ القزمات ليست خائفة. لقد توقّعت هذا التحرّك. فقامت ليلة الأمس بحفر ثقوب في الأرض موزّعة على هيئة خماسيّة النرد. تحصّنت داخلها، لا يبرز منها سوى الفكوك؛ هكذا تكون أجسادها محميّة في التراب.

خطّ دفاع القزمات هذا يصدّ على الفور هجوم الصهباوات. وجدت الفيدراليات نفسها تقاتل في الفراغ ضدّ أولئك الأعداء الذين

لا يبدو منهم سوى نقاط قوّتهم. فما من طريقة يقطعون بها أرجلهم أو ينزعون بطونهم.

وإذا بالقسم الأكبر من مشاة شي - غا - بو، متربّصات ليس بعيداً تحت فطور البوليط الشيطاني، فعاجلن بهجوم معاكس مطبقات على الصهباوات.

إذا كان البيلوكانيون يعدّون بالملايين، فالشيغابويون يعدّون بعشرات الملايين. خمس جنديّات قزمات مقابل كلّ واحدة صهباء، عدا المحاربات المختبئات في الثقوب الفرديّة، واللواتي يقصلن كلّ من يقع في متناول فكوكهنّ.

تتحوّل المعركة سريعاً إلى صالح الأكثريّة. أخذت خطوط القوّات المتّحدة تتشتّت تحت وطأة القزمات اللواتي تتوافدن من كل الجهات.

في التاسعة وستّ وثلاثين دقيقة، ينسحبن بالكامل. تطلق القزمات عطور الانتصار. حيلتها نجحت على أحسن ما يكون. حتّى لا داعي لاستخدام السلاح السرّي! يطاردن هذا الجيش من الهاربات، معتبرات أنّ مقرّ لا - شولا - كان، قضية محسومة.

ولكن أرجل القزمات القصيرة تجعل كلّ عشر خطوات منها تعادل خطوة ممّا لدى الصهباء. تلهث في صعودها تلّة الخشخاش. وهذا بالضبط ما توقّعه استراتيجيو الفيدراليّة. إذ تقتصر مهمة الهجوم الأول على إخراج القزمات من حوضتهم لقتالهم على المنحدر.

وصلت الصهباوات أعلى القمّة، واصلت فيالق القزمات مطاردتها

في فوضى عارمة. هناك في الأعلى ارتفعت على نحو مفاجئ غابة من الأشواك. هي في الحقيقة ملاقط عملاقة لطاحنات الحبوب. تلوّح بها مهدّدة، فتومض تحت أشعّة الشمس، ثمّ أخفضتها إلى مستوى الأرض منقضّة على القزمات. طاحنات الحبوب، طاحنات الحبوب!

المفاجأة صادمة تماماً. الشيغابويات مذهولات، قرونها متصلّبة من الخوف، تُقصّ مثل عشب الحديقة. تخترق طاحنات الحبوب خطوط الأعداء بسرعة فائقة، مستغلين شدّة الانحدار. تحت كل طاحنة ست عاملات تقدّم أقصى ما تستطيع. هنّ جنازير تلك المكنات الحربيّة. بفضل اتصال قرني متزامن بدقّة بين البرج والعجلات، الحيوان الذي بستّ وثلاثين رجلاً وفكّين عملاقين يتحرك بسهولة بين جموع أعدائه.

لم يتسنّ للقزمات سوى رؤية أولئك العمالقة وهم ينزلون عليهم بالمئات، يخترقنهم، ويسحقنهم ثمّ، يطحنّهم. تغرز الفكوك المتضخمة في الكتل، تقضم وتصعد من جديد، حاملة أرجلاً ورؤوساً مُدمّاة يطقطقونها مثل القشّ.

ساد جوّ من الهلع. بدأت القزمات المرعوبة تتدافع ويدوس بعضها بعضاً، وأخريات أخذت تتذابح.

تجاوزت الدبابات البيلوكانية باندفاعها قوات المشاة بعدما «مشّطوها». توقفت وعادت تصعد المنحدر من جديد، بصفوف محكمة، لتعزيز مواقعها مجدّداً. تتمنى الناجيات إحراز تقدّم، إلّا أن جبهة ثانية من الدبّابات أخذت ترتسم في الأعلى... متأهبةً للنزول!

يلتقي الصفّان، بشكل متواز. أمام كلّ دبابة تتراكم الجثث. إنّها مذبحة.

اللاشولاكانيّات اللواتي كنّ يتابعن المعركة من بعيد خرجت لتشجيع أخواتها. تركت دهشة البداية مكانها للحماس، فألقت فيرومونات السعادة. إنّه انتصار التكنولوجيا والذكاء! لم تعبّر عبقرية الفدرالية يوماً عن نفسها بهذا الوضوح.

غير أنّ شي - غا - بو لم تلق بعد جميع أوراقها. لا يزال لديَها سلاحها السرّي. والذي كان معدّاً لإخراج المحاصرين العنيدين، ولكن بعد أن دارت المعركة على هذا النحو السيء قرّرت القزمات أن تلقي بأوراقها كاملة.

السلاح السرّي هو على هيئة جماجم لنمال صهباوات محترقة بنبتة بنيّة.

قبل بضعة أيام، اكتشفت النمال القزمات جثّة مستكشفة فيدراليّة. كانت جثتها قد انفجرت تحت ضغط فطر طفيلي، **الألترناريا**. درست باحثات القزمات هذه الظاهرة ولاحظن أنّ هذا الفطر الطفيلي ينتج أبواغاً طائرة. هذه الأبواغ تلتصق على الدرع، تتأكله، وتنفذ إلى داخل الدابّة وتنمو فيها حتّى تفجّر جثّتها.

يا له من سلاح!

سلاح آمن وفعّال. فإذا كانت الأبواغ تلتصق على كيتين الصهباوات، فإنّه ليس لديها أيّة سطوة على كيتين القزمات. ومردّ

ذلك ببساطة، أنّ القزمات حسّاسة للبرودة، ولديهم عادة طلاء أنفسها بلعاب الحلزون! وهذه مادة واقية من الألترناريا.

فإذا كانت البيلوكانيّات قد اخترعن الدبّابة فإنّ الشيغابويات ابتكرن الحرب الجرثوميّة.

تبدأ إحدى كتائب المشاة مسيرها، حاملة ثلاثمائة جمجمة مصابة، تعود لصهباوات، جمعوها بعد أولى معارك لا - شولا - كان.

يلقين الرؤوس وسط أعدائهم. فتبدأ طاحنات الحبوب وحاملاتها بالعطس تحت تأثير الغبار القاتل. ولكن حينما يرين دروعهنّ مبقّعة بهذه الجراثيم يفقدن صوابهنّ فتتخلّى الحاملات عن أثقالها. وتصاب طاحنات الحبوب، التي عادت إلى عجزها، بالهلع فتهجم بعنف على طاحنات أخريات. وكانت هزيمة نكراء.

في نحو العاشرة تقريباً، تفرّق موجة باردة بين المتحاربين. لا يمكن القتال ضمن تيارات هواء صقيعيّة. تستغل فرق القزمات الوضع لينسحبوا. وتعاود دبابات الصهباوات صعود المنحدر بمشقّة.

يجري إحصاء عدد الجرحى في الفريقين، وحساب الخسائر. التقييم الأوّليّ ثقيل جدّاً. فكلا الفريقين يتمنى حسم المعركة لصالحه.

تعرّفت البيلوكانيّات على أبواغ الألترناريا. وقررن التضحية بجميع الجنديّات المصابات بالفطر، لتجنيبهنّ آلاماً مستقبليّة.

وصلت الجاسوسات مسرعات: الطريقة الوحيدة للوقاية من هذا السلاح الجرثومي، طلاء الجسد بلعاب الحلزون. أوّل ما قيل ذلك

طبّق على الفور. وتمّت التضحية بثلاثة من تلك الرخويات (والتي بات وجودها نادراً) وتمكّن الجميع من حماية نفسه من ذلك الوباء.

تُجرَى اتصالات قرنيّة. برأي الاستراتيجيّات الصهباوات إنّ الهجوم بالدبّابات لم يعد كافياً وحده، فيقترحن تشكيلاً جديداً تكون فيه الدبّابات في المركز؛ ومائة وعشرون فيلق مشاة محليّة وستّون من فيالق المشاة الأجنبيّة تنتشر على الأجنحة.

ترتفع المعنويات مجدّداً.

نمل الأرجنتين: نزل نمل الأرجنتين Iridomyrmex humilis الأراضي الفرنسيّة سنة 1920. نُقل على الأرجح في أوعية نباتات الدفلى التي وصلت لتجعل طرق الريفييرا الفرنسية أكثر بهجة.

المرّة الأولى التي أُعلن فيها عن وجوده سنة 1866، في بونس أيرس (ومن هنا أتت التسمية). في 1891، حدّد مكانه في أمريكا، في مدينة نيو أورليانز.

ولاحقاً، وصل مختبئاً داخل أسرّة القش المخصّصة للأحصنة المصدّرة إلى أفريقيا الجنوبيّة في 1908، إلى تشيلي 1910، إلى أستراليا في 1917، إلى فرنسا في 1920.

لا يتّصف هذا الصنف، بقصره فحسب، والذي يضعه في خانة Pygmée (القزم) بنظر باقي النّمل، وإنّما أيضاً بالذكاء والعنف الحربيّ اللتين هما سمتاه الرئيسيّتان.

أوّل ما أقام في جنوب فرنسا، شنّ هذا النّمل القادم من الأرجنتين حروباً على كافّة الأصناف المحلّيّة... وانتصر عليها!

في 1960، اجتاز البيرينيه ووصل إلى برشلونة. في 1967 عبر الألب ونزل روما. ثم، منذ السبعينيات، بدأ غل الأرجنتين Iridomyrmex humilis الصعود ثانية صوب الشمال. يقال أنّه عبر نهر لوار أثناء صيف حار عند نهاية التسعينيات. ذلك الغازي، والذي خططه الحربيّة توازي خطط قيصر ونابليون، وجد نفسه أمام صنفين أشدّ منه عناداً: النّمل الأصهب (في جنوب وشرق المنطقة الباريسية) والنّمل الفرعوني (في شمال وغرب باريس).

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

لم تحسم معركة الخشخاش بعد. قرّرت شي – غا – بو، في تمام العاشرة وثلاث عشرة دقيقة، إرسال تعزيزات تبلغ مائتين وأربعين فيلقاً من جيش الاحتياط للانضمام إلى الناجين من الهجمة الأولى. يُشرح لهم حيلة «الدبّابات». فتجتمع القرون لإجراء اتّصالات مطلقة. لا بدّ أنّ ثمّة طريقة لصدّ هذه المكنات الغريبة...

في حوالي العاشرة والثلاثين دقيقة، تقترح عاملة:

حركة النمال طاحنات الحبوب تكون بالنمال الستّ اللواتي يحملنها. ولهزيمتها يكفي أن نقطع لها هذه «الأرجل الحيّة».

تنطلق فكرة أخرى:

نقطة الضعف لمكناتهم تكمن في صعوبة الاستدارة والعودة إلى الوراء بسرعة. يمكننا استغلال هذه العيب. والطريقة الوحيدة أن نلجأ إلى تشكيل مربّعات مدمجة. حين تهجم المكنات، نتفرّق وندعها تمرّ دون أدنى مقاومة. وبينما هي في ذروة اندفاعها، نضربها من الخلف. إذ لن يتسنى لها الوقت لتستدير.

وثالثة اقترحت:

تزامن حركة الأرجل يحصل من خلال الاتصال القرني، رأينا ذلك. يكفي قص قرون الطاحنات حتّى تعجز عن قيادة حاملاتها.

جميع الأفكار أخذ بها. وبدأت القزمات بإعداد خطّة جديدة للمعركة.

ألم: هل يتألّم النمل؟ لا يبدو ذلك للوهلة الأولى. ليس لديه جهاز عصبي ملائم لهذا الاستخدام. وفي غياب العصب لا توجد رسالة تنقل الألم. ذلك ما يفسّر أنّ أجزاء من النّمل تستمر في «الحياة» فترة طويلة منفصلة عن باقي الجسد.

غياب الألم يؤدي إلى عالم جديد من الخيال العلمي. دون ألم: لا يوجد خوف، وحتّى ربّما لا وعي بوجود «الذات». بقي علماء الحشرات لفترة طويلة يعالجون هذه النظريّة: النمال لا تتألّم، من هنا يبدأ تماسكهم الاجتماعي. ذلك يفسّر كل شيء ولا يفسّر شيئاً في الوقت عينه. هذه الفكرة تقدم ميّزة: تعفينا من أي تردّد في قتلها.

بالنسبة لي، حيوان لا يتألم... يخيفني كثيراً. ولكن هذا التصوّر خاطئ. فالنّملة المقطوعة تبثّ رائحة مميّزة. رائحة الألم. يعني ذلك أنّ شيئاً يحدث. فالنّملة لا تمتلك

إشارة عصبيّة كهربائيّة، وإنّما إشارة كيميائيّة: هي تعلم حين ينقصها عضو، وتتألّم. تتألّم بطريقتها، والتي لا بدّ أن تختلف عن طريقتنا، إلّا أنها تتألّم.

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

تستأنف المعارك عند الحادية عشرة وسبع وأربعون دقيقة. خط طويل ملتحم من الجنديّات القزمات يصعدن ببطء هاجمات على تلّة الخشخاش.

تظهر الدبّابات بين الزهور. بإشارة معينة يهبطون المنحدر. كتائب الصهباوات ومرتزقتها يقفزن على الجوانب، متأهبات لإكمال عمل العمالقة.

لم يعد يفصل الجيشين إلّا مسافة مائة رأس... خمسون... عشرون... عشرة! حين أصبحت أوّل طاحنة حبوب على تماس يحدث شيء غير متوقّع أبداً. الخطّ الكثيف للشيغابويات ينفتح بغتة مشكّلاً فراغات واسعة. تتجمّع الجنديّات في مربّعات.

ترى كلّ دبّابة الخصم يتبخّر وليس أمامها إلّا ممرّ خال. ولا يتبادر لأيّ منها أن تسير متعرّجة لصدم القزمات. تطقطق الفكوك في الفراغ، وتندفع الأرجل الستّة والثلاثون مسرعة بغباء.

رائحة نفّاذة تنتشر:

اقطعوا أرجلهنّ!

تنـزل القزمـات علـى الفور تحـت الدبّابـات وتقتـل الحاملات. وتنسحب مسرعة قبل أن تسحق تحت وطأة الطاحنة التي تهبط فجأة.

قزمـات أخريـات تلقي نفسـها بشـجاعة بـين الصـفّ المزدوج للحامـلات وتبقر بطن الطاحنـة المتقدّم بضربة فكّ. يتدفق السـائل. خزّان الحياة لطاحنات الحبوب يهرق على الأرض.

أخريات تتسـلّق العمالقة وتقصّ لهنّ قرونهـن ثمّ تقفز بينما تلك تواصل مسيرها.

تنهار الدبّابات واحدة تلو الأخرى. دون حاملاتها، تجرّ طاحنات الحبوب نفسها مثل عُجّز ويقضى عليها بسهولة.

مشـهد مروّع! جثث طاحنـات الحبوب ببطونهـا المبقورة وهي مرفوعـة بلا طائل من قبل عاملاتها السـتّ واللواتي لم يلحظن شـيئاً بعـد... طاحنـات حبوب أخريـات حرمت مـن قرونها، تـرى إلى «عجلاتها» وقد تشرذمت في شتّى الجهات...

هزيمة كهذه بمثابة إعلان عن فشل تقنيّة الدبّابات. كم من اختراعات كبيرة كهذه اختفت من تاريخ النّمل لأنّه سرعان ما عثر على مضادّ لها!

كتائب الصهباوات ومرتزقتها اللواتي كنّ يطوّقن جبهة الدبّابات، واللواتـي قد وضـعن هناك لتجميـع الفتات، وجدن أنفسـهنّ عراة، فاقتصـرت مهمّتهـنّ علـى الإغارة بيأس. من فرط مـا أنجزت مجزرة الطاحنـات بفعّالية كبيرة، أعادت القزمـات تجميع مربّعاتها. وأوّل ما تلامس بيلوكانيّة طرفاً من هذه المربّعات حتّى تجد نفسـها مسـحوبة ومفكوكة من قبل آلاف الفكوك النهمة.

لم يتبق أمام الصهباوات وجنديّاتها المأجورات سوى الانسحاب. مجتمعات على القمّة، يراقبن القزمات وهنّ يصعدن على مهل هاجمات مجدّداً ضمن تشكيلة مربّعات ملتحمة. مشهد يبعث على الهلع!

كسباً للوقت، تأخذ الجنديّات الأكثر ضخامة بنقل حصى ودحرجتها من أعلى التلّ. الانهيار لا يبطئ تقدّم القزمات أبداً. بحذر تتجنّب الكتل وتستعيد مباشرة مكانها. اللواتي سحقن منها قليلات.

تبحث فيالق البيلوكانيات بشكل محموم عن الترتيب الذي سيخرجها من هذه الورطة. تقترح عدد من المحاربات الرجوع إلى استخدام فنون القتال القديمة. لماذا لا نستخدم المدفعيّات ببساطة؟ إذا كان حقاً منذ بداية المعركة لم يستخدم غير قليل من الحمض، الذي يقتل في الاشتباكات القريبة من الأعداء بقدر ما يقتل من الأصدقاء، فلا بدّ إذاً أن يعطي نتائج جيّدة جدّاً ضدّ تشكيلة المربّعات الملتحمة للقزمات.

تسرع المدفعيّات لاتّخاذ مكانها، تتمركز على أرجلها الأربع الخلفيّة، دافعة البطن إلى الأمام. بهذه الطريقة يمكنها الدوران من اليمين إلى اليسار ومن الأعلى إلى الأسفل لاختيار الزاوية الأنسب للتسديد.

القزمات الآن، وهي بالضبط في الأسفل، تلمح أطرافاً لآلاف البطون التي تبرز من أعلى القمّة، غير أنّها لم تدرك مباشرة ماذا يحدث. تسرع جامعة زخمها لاجتياز السنتمترات الأخيرة من المنحدر.

هجوم! رصّوا الصفوف!

تخفق كلمة «أمرٌ» في جهة الخصم:

نارا

تقذف البطون الموجّهة سمّها اللاذع نحو مربّعات القزمات. بفوت، بفوت، بفوت. تصفر رشقات صفراء في الهواء، وتسوط طلائع الهاجمات.

تذوب القرون في البداية، وتسيل على الجماجم. ثم يتمدّد السمّ إلى الدروع، يسحن كما لو أنهنّ لسنَ أكثر من بلاستيك.

تنهار أجساد القزمات المعذّبة مشكّلة سدّاً رفيعاً يعرقل أخواتهنّ. تستردّ القزمات قواهنّ، غاضبات، وتندفعن بهجوم أعنف إلى القمّة.

في الأعلى، حلّ صفّ مدفعيّات صهباوات جديد مكان السابق.

نارا

تفرّقت المربّعات إلّا أنّ القزمات واصلت تقدّمها واطئة طراوة الموتى.

تقدّم الصفّ الثالث من المدفعيّات. بعد أن انضمّت إليه باصقات الصمغ.

نارا

هذه المرّة تنفجر المربّعات بالفعل. مجموعات كاملة تتخبّط بالصمغ.

تحاول القزمات هي أيضاً، صدّ الهجوم بتشكيل صفّ من المدفعيّات. إلّا أنّ هذا الصفّ يتقدّم إلى القمة بالرجوع إلى الوراء وتطلق مدفعيّاته دون التمكّن من التصـويب. ليس بوسعها وهي بعكس اتّجاه المنحدر أن تتمركز جيّداً.

نار! تبثّ القزمات.

غير أنّ بطونهن القصيرة لا تقذف إلّا قطرات صغيرة من الحمض. حتى حين تصـيب أهدافها، فإنّ رشقاتها تهيج القوقعة دون أن تؤدي إلى ثقبها.

نار!

كانت نقاط حمض المعسـكرين تتقاطع وتلغي بعضها أحياناً. أمام النتائج القليلة المحرزة تخلّت الشـيغابويات عن فكرة استخدام سلاح المدفعيّـة. تعتقد أنّها بحفاظها على تكتيك المربعات الملتحمة للمشـاة بوسعها إحراز الانتصار.

رصّوا الصفوف.

نـار! تـردُّ الصـهباوات والذي كان سـلاح مدفعيتها يحـرز نتائج مبهرة. دفقة جديدة من الحمض والصمغ.

رغـم فعّاليّة الرمي، تصـل القزمات إلى قمّة تلة الخشـخاش، تبرز هيئاتها على شكل إفريز أسود متعطّش للانتقام.

هجوم. غضب. خراب.

من الآن فصاعداً لم يعد ثمّة «ألاعيب ميكانيكيّة». فلم يعد بوسع المدفعيّات الصهباوات الرمي من بطونها، و لم تعد مربّعات القزمات بقادرة على البقاء ملتحمة.

حشّد. انقضاض. تدفق.

الجموع تشتبك، تتبعثر، تصطفّ، تعدو، تدور، تهرب، تندفع، تتفرّق، تتجمّع، تثير هجمات صغيرة، تدفع، تجرّ، تقفز، تنهار، تشجّع، تبصق، تدعم، تصرخ زفيراً ساخناً. الموت مشتهى في كلّ المطارح. الجميع يروز، يتبارز، يعلّي الصليل، ويركض فوق الأجساد الحيّة وتلك التي كفّت عن الحراك. على رأس كلّ صهباء ثلاث قزمات، بالحدّ الأدنى، مُستشيطات غضباً. ولكن بما أنّ الصهباوات أضخم بثلاث مرّات، فالمبارزات متكافئة نوعاً ما.

تتلاحم الأجساد. صراخات شميّة تعلو. سديم من فيرومونات مرّة.

ملايين الفكوك المدبّبة، المفرّضة، والتي لها هيئة منشار، هيئة سيف، هيئة ملقط مسطّح، بعضها تقطع بحدّ وأخرى تقطع بحدّين، بعضها مطليّ بلعاب مسموم، بعضها بالصمغ، وأخرى ملطخة بالدم، تتراكب وتتشابك في بعضها بعضاً. ترتجف الأرض تحتها.

تتلاحم الأجساد.

القرون المثقلة بأسهمها الصغيرة تلسع الهواء لتبقي الخصم على

مسـافة فاصلة. فيما تضربها الأرجل بمخالبها المشرّعة كما لو أنّها تبعد قصباً مزعجاً.

قبض. مفاجأة. التباس.

يلتقط الخصـم من فكّيه، من القرنين، من الرأس، من الصـدر، من البطن، من الأرجل، من الركب، من المرافق، من الفراشـي المفصـليّة، من شعث في القوقعة، من شقّ في الكيتين، من العين.

ثمّ تنقلب الأجساد وتدحرج على الأرض الرطبة. تتسلق القزمات زهرة خشـخاش متهدّلة وبمخالب مشـدودة تلقي بنفسها من الأعلى على صهباء محمولة على عربة. ثاقبة ظهرها وصولاً إلى القلب.

تتلاحم الأجساد.

الفكوك تخدش الدروع الصّقيلة.

صـهباء تستخدم بمهارة قرنيها كرمحين وتلقيهما معاً. بهذه الطريقة تثقب رؤوس عشرات من الأعداء، لا تضـيع وقتاً في تنظيف قصـبتيها الملطّختين بالدم الشفّاف.

تتلاحم الأجساد. صراع حتّى الموت.

من كثرة القرون والأرجل المقصوصة على الأرض يخال المرء نفسه وكأنّه يسير فوق سجادة من إبر الصنوبر.

تهرع ناجيات لا – شـولا – كان وتغوصـ في حمأة المعركة كأنّ الذي سقط من قتلى حتّى الآن لا يكفي.

إحـدى الصـهباوات، ترتبك، تحت سـطوة عدد مـن الهاجمات الصـغيرات، فتحني بطنها وترشـق، تقتل أعداءها ونفسها في الوقت عينه. مثل الشمع يذوبون سويّةً.

أبعد قليلاً، محاربة أخرى تنزع بضربة رأس عدوّتها في اللحظة التي يُنزع رأسها.

الجنديّـة 103683 رأت خطـوط القزمـات الأولى تنقضّ عليها. تنجح برفقة بضـع عشـرات من زميلاتهـا المنتميـات إلى الفئة ذاتها، بتشـكيل مثلث يـزرع الرعب في جموع القزمات. يتشـظّى المثلث، وتجد الآن نفسها بمفردها بمواجهة خمس شيغابويات مضرّجات بدماء أخواتها الحبيبات.

يعضّنها في جميع أنحاء جسدها. وهي تصدّهنّ بقدر ما تستطيع، أخـذت تلقائيّاً تسـتعيد النصـائح التي تلقتها في قاعـة القتال من قبل محاربة قديمة:

المعركـة تحسم قبل التلامس. لا يفعل الفكّ أو قذفة الحمض إلّا تثبيت حالة سيطـرة سبق الاعتراف بها من قبـل الخصمين... كلّ شـيء متوقف على البراعة الذهنيّة. الاقتناع بالانتصار أوّلاً وبعده لا شيء يمكنه ردّك.

قد يصـحّ ذلك أمـام عدوّ واحد ولكن كيف العمل أمام خمسـة؟ اثنتـان الآن على الأقل مصـرّات على النصر. القزمة التـي تفكّ بعناية مفصـل صـدرها والأخرى التي تحاول نزع الرجـل الخلفيّة اليسرى. تغمرها موجة من الطاقة. تجاهد، وتطعن بقرنها الأشـبه بخنجر تحت رقبـة إحداهنّ، وتجـبر الأخرى علـى إفلاتها بضربة من سـطح فكّها تسقطها مغشيّة.

في غضـون ذلك أعادت القزمات رمي ساحة المعركة بعشرات من الرؤوس المصابة بالألترناريا. ولكن بما أنّ الجميع محميّ بلعاب الحلزون، تطـير الأبواغ، وتنزلق على الدروع قبـل أن تقع برخاوة على الأرض الخصـبة. فعلاً إن اليوم ليس يوم الأسـلحة الحديثة، فجميعها عثر على مضادّاتها.

عنـد الثالثة بعد الظهر، وصـلت المعـارك إلى ذروتها. نفحات من الحمضـ الزيتـي، هي الروائح الخاصّـة المنبعثة من جثـث النمال التي تجـفّ، عبّقت الهواء. في الرابعة والنصـف، الصـهباوات والقزمات اللواتـي لاتزال تقف على رجلين بالحدّ الأدنى تواصـل عراكها تحت زهور الخشـخاش. لا تقف المبارزات حتّى السـاعة الخامسـة بسبب عاصـفة تعلن عن مطر وشـيك. كما لو أنّ السماء أضجرها هذا الكمّ من العنف، أو أنّها ليست أكثر من زخّات آذار وقد وصلت متأخرة.

ينسحب الناجون والجرحى. التقييم النهائي: 5 ملايين قتيل، منها 4 ملايين من القزمات. لا - شولا - كان تحرّرت.

الأرضـ على مدّ النظر، منثورة بأجسـاد مفكّكة، دروعٍ مثقوبة، أعضاء بائسة تحرّكها من حين لآخر نفحة أخيرة لحياة. في كلّ الأرجاء يسـيل دم شـفاف مثل صـمغ اللك، وتتجمّع برك من الحمض المائل للصفرة.

لا تزال بعض القزمات تتخبط في بركة صمغ، ظانّات أن بإمكانها الرجوع إلى مدينتها. تحطّ العصافير وتنقرها قبل هطول المطر. البروق التي تضـيء الغيوم الرماديّة الداكنة تلتمع على هياكل بضـع دبّابات، والتي لاتزال فكوكها المتكبّرة منتصبة. كما لو أنّ رؤوس هذه النصال

المعتمة تريد ثقب السماء البعيدة. عاد الممثلون، وتولّى المطر تنظيف المشهد.

كانت تتكلّم وفمها ممتلئ.

– بيلشيم؟

– ألو؟

– كرومف، كرومف... أتسخر مني، بيلشيم؟ أرأيت الجرائد؟ أليس المفتش غالان هذا من فريقك؟ أليس هو الشاب السمج الذي أراد أن يلغي الكلفة بيننا منذ اليوم الأول؟

كانت سولانج دومنغ مديرة قسم الشرطة القضائيّة.

– بلى، أظنّ.

– طلبت منك أن تطرده، والآن أجده نجماً بعد مماته. أنت مختلّ بالفعل! ما الذي أصابك لكي تكلّف شخصاً قليل الخبرة إلى هذا الحدّ في قضية على هذا القدر من الحساسيّة.

– غالان ليس عديم الخبرة، حتّى إنّه عنصر ممتاز. ولكن أظنّ أنّنا أخطأنا في تقدير حجم القضية...

– العناصر الجيّدة هي التي تجد الحلول، أمّا العناصر السيّئة فهي التي تجد المبرّرات.

– يوجد قضايا حتى من هم أكثر جدارة منّا...

– يوجد قضايا حتى الأسوأ منكم لديه واجب النجاح بها. والذهاب لانتشال زوجين من القبو ضمن هذا الواجب.

– أعتذر ولكن...

– أتعرف أين تضع اعتذاراتك، يا جميلي؟ ستسعدني وتتفضّل بالعودة إلى أسفل ذلك القبو وتخرج لي منه كلّ أولئك الأشخاص. بطللك غالان يستحق دفناً مسيحيّاً. وأريد مقال إطراء عن قسمنا قبل نهاية هذا الشهر.

– وبشأن...

– وبشأن كل هذه القصّة أريدك أن تغلق فمك! وألّا تقوم بأيّة جلبة مع الصحافة إلّا حين تكون القضيّة قد أغلقت. إذا أردت خذ ستّة أفراد من الشرطة ومعدّات متطوّرة. هذا كل شيء. فقط.

– وإذا...

– وإذا فشلت، يمكنك الاعتماد عليّ لإفساد تقاعدك!

أغلقت السمّاعة.

المفوّض بيلشيم كان يجيد التعامل مع كل المجانين ما عداها هي. لذا استسلم لفكرة وضع خطّة للنزول.

عندما الإنسان: عندما يخاف الإنسان، أو يكون في حالة من السعادة أو الغضب، تفرز غدده الصمّاء هرمونات تؤثر على جسده. هي تنشط في الداخل المنقطع عن الخارج. فتتسرّع خفقات قلبه، ويتعرّق، أو يكشّر، أو يصرخ، أو يبكي.

ذلك سيكون من شأنه. سينظر له الآخرون إمّا دون رأفة وإذا رأفوا فذلك سيكون لأنّ عقلهم قرّر ذلك.

حين تخاف النّملة، أو تكون في حالة من السعادة أو الغضب، هرموناتها تدور داخل جسدها، ثمّ تخرج من جسدها وتدخل في أجساد الآخرين. بفضل الفيرو - هرمونات، أو الفيرومونات، ملايين من الأفراد سيصرخون ويبكون في الوقت عينه. لابدّ أنه إحساس هائل، الشعور بالأشياء المعاشة من قبل الآخرين، وأن يشعروا هم بكل ما تشعره الذات...

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

عمّت البهجة والغبطة كافة المدن الفيدراليّة. عمليات التطاعم الحلوة مبذولة بوفرة للمقاتلات المنهكة. إلّا أنّه لا يوجد بطل هنا. الجميع يؤدي وظيفته؛ بطريقة جيدة أو سيئة لا يهم، كلّ شيء يبدأ من جديد عند نهاية المهمّات.

تُضَمّد الجراح بلعقات واسعة من اللعاب. بعض ساذجات صغيرات تحمل بين فكوكها رجلاً أو اثنتين أو ثلاث خلعت أثناء المعركة، وتمكّنت بمعجزة من استعادتها. فيشرح لها بأنّ هذه الأرجل لا يمكن لصقها.

داخل قاعة القتال الكبيرة في الطبقة 45 تحت الأرض، تعيد جنديّات لمن لم يحضروا تمثيل الفصول المتوالية لمعركة الخشخاش. يأخذ نصفهن دور القزمات، ويلعب النصف الآخر دور الصهباوات.

يمثّل بالإيماء الهجوم على مدينة لا - شـو لا - كان المحرّمة، هجوم الصـهباوات، والصراع ضـد الرؤوس المدفونة، والتظاهـر بالفرار، دخـول الدبّابات، وارتباكها أمـام مربّعات القزمـات، الهجوم على التلّة، خطوط المدفعيّات، والمعركة النهائيّة...

حضـر الكثير من العاملات، اللواتي أخذن يعلّقن على كلّ مشـهد من ذلك الاستدعاء. النقطة التي أثارت انتباههنّ على وجه الخصوص: تقنيـة الدبّابـات. والتـي كان لطبقتهـنّ دور فيها؛ فبرأيهـنّ لا ينبغي التخلي عن هذه التقنية وإنّما يجب تعلّم استخدامها بمهارة أكبر، وليس الاقتصار على الهجوم الجَبهوِيّ.

مـن بين الذين نجـوا من المعركـة، خرجت الرقـم 103683 بأقلّ الخسـائر. لم تفقد سوى رجل واحدة. ثمن بخس لمن لديه ستّة أرجل تحت تصرّفه. لا يسـتحق حتى الإعلان عنـه. الأنثى 56 والذكر 327 اللذان كجنسـيين لم يتسـنّ لهما المشـاركة في الحرب، تسحبانها إلى زاوية. ويجري تلامس قرني.

أحصل أيّ خطب هنا؟

لا، جميـع المحاربـات ذوي رائحة الصخـر كانوا في العـراك. بقينا متوارين داخـل المدينة المحرّمة، تحسّباً من وصول القزمات إلى هنا. أرأيتِ السلاح السرّيّ هناك؟

لا.

كيف لا؟ قيل عن وجود غصن أكاسيا متحرّك.

شرحت الرقم 103683 أنّ السلاح الوحيد الحديث الذي كان عليهن مواجهته هو الألترناريا المرعب، لكنهن وجدن مضاداً له.

لاحظ الذكر 327 بأنه لا يمكن للألترناريا أن يكون هو من قتل أوّل رحلة استكشافيّة، إذ أنّه يستغرق وقتاً ليقتل. فضلاً عن ذلك، هو متأكّد من شيء: إنّ كلّ الجثث التي فحصها خلت من أيّ أثر للأبواغ. إذاً؟

يقررون، وهم في حيرة من أمرهم، تمديد اتصالهم المطلق. رغبةً منهم برؤية الأمر بوضوح أكبر. يبدأ غليان جديد من الأفكار والآراء:

لماذا لم تلجأ القزمات إلى السلاح الذي دمّر بشكل ساحق ثمانياً وعشرين مستكشفة؟ رغم أنّها حاولت أقصى ما بوسعها لتنتصر. ما كانت لتتوانى عند استخدام ذاك السلاح لو ملكته! وإذا لم تملكه؟ ومن الملاحظ أنّ القزمات تصل دوماً إمّا قبل أن يضرب السلاح السرّي أو بعد أن يضرب، ربّما تكون محض مصادفة...

هذا الافتراض يتطابق تماماً مع هجومها على لا - شولا - كان. بما يخصّ أول رحلة استكشافيّة، يحتمل بأن يترك أحد آثار جواز مرور القزمات ليضع القطيع على درب خاطئ. ومن له مصلحة في ذلك؟ إذا لم يكن القزمات مسؤولات عن كل تلك الشرور، صوب من سنلتفت؟ صوب الآخرين! الخصم الثاني الذي لا يرحم، العدو المتوارث: الأرَضَة!

ليس في شكّهم شيء من الترف. فمنذ بعض الوقت، عبرت النهر جنديّات منفردات من عشّ الأرَضَة الكبير الشرقيّ، وأغارت عدّة

مـرّات على مناطق صـيد الفيدراليّة. أجـل، لا بدّ أنهنّ الأرضـات. احتالـت لتعبئة القزمات والصـهباوات ضـدّ بعضـهن بعضـاً. بهذه الطريقـة يتخلصـن دون صـعوبة مـن الاثنين معـاً. فبعد أن يضـعف عدويّهما لا يبقى أمامهنّ إلّا قطاف أعشاش النّمل.

والمحاربات ذوات رائحة الصخر؟ قد يكنّ جاسوسات مأجورات لخدمة الأرضـات، هذا كلّ شيء. كلّما اتضـحت فكرتهم المشتركة، مـن كثرة ما تـدور في عقول الثلاثـة، كلّما بدا لهم أمراً محسـوماً بأنّ الأرضات الشرقيّة هي التي تملك «السلاح السرّي» المبهم.

تزعجهم الروائح العامّة للقطيع، ما يدفعهم لفض جلسـتهم. تقرّر المدينة بأن تستغل فترة ما بين الحربين لتقيم حفل الانبعاث: سوف يقام غداً.

جميـع الطبقـات إلى أمكنتها! الإنـاث والذكـور إلى قاعات القواريـر لتُملأ بالسكّر! المدفعيّات، زوّدوا بطونكم مجدّداً في قاعات الكيمياء العضوية!

قبل أن تترك رفيقيها، تلقي الجنديّة 103683 فيرومون:

أتمنـى لكما جماعاً ناجحاً! لا تقلقـا سأتابع التحقيق من جهتي. حين تصبحان في السماء، سأكون على طريق عشّ الأرَضَة الكبير الشرقيّ.

ما إن تفرّقوا حتّى ظهرت القاتلتان، البدينة المتوحّشـة والصـغيرة العرجـاء. وبدأتـا تقشـطان الجدران آخذتـين الفيرومونـات الطائرة لحديثهم.

بعد الفشل المؤسف للمفتش غالان ورجال الإطفاء، وضع نيكولا في مأوى للأيتام على مسافة لا تبعد أكثر من بضع مئات الأمتار عن شارع السيباريت.

كان يكدّس في المأوى، إضافة إلى الأيتام الفعليّين، الأطفال المنبوذون والمعنّفون من قبل آبائهم. البشر أحد الأجناس النادرة التي بوسعها أن تتخلّى أو تعذّب ذريّتها. كان البشر الصغار يقضون هناك سنوات يصعب تحمّلها، يربّون بركلات قويّة على المؤخرة. يكبرون ويقسون. ومعظمهم ينضمّ إلى الجيش لاحقاً.

في اليوم الأوّل بقي نيكولا على الشرفة مهدوداً يحدّق في الغابة. في اليوم الثاني عاد ووجد الرتابة النافعة للتلفزيون. كان الجهاز موضوعاً في غرفة الطعام، والمشرفون، يشعرون بالارتياح لتخلصهم من هذه «الحثالة»، تاركيهم داخلها يخبلون لساعات. في المساء داخل المهجع، جان وفيليب يتيمان آخران، سألاه:

– ما الذي حصل معك أنت؟

– لا شيء.

– هيّا تكلم. لا يمكن أن يأتي من هم في سنك بلا سبب. أخبرنا أوّلاً كم عمرك؟

– أنا أعرف. يقال إنّ النّمل أكل أهله.

– من أخبرك هذا الهراء؟

– شـخص ما، نانانانير لـن نخبرك إلّا إذا أخبرتنا ما الذي حصـل لأهلك.

– بإمكانكم أن تموتوا بغيظكم.

جان الأقوى أمسـك نيكولا من كتفيه بينما لوى فيليب ذراعه إلى الخلف.

تمكّن نيكولا من التخلّص من فيليب برفسة وضرب جان بظاهر يده على رقبته (رأى ذلك في التلفزيون بفيلم صينيّ). بدأ الآخر بالسعال. عـاد فيليب إلى الهجـوم محاولاً خنق نيكولا، فتلقّـى ضربة كوع على معدته. تخلّص نيكولا مـن المعتدي، الذي جثا على الأرض متكوّراً، واجه جـان مجدّداً وبصـق في وجهه. فانقض الآخر عليه وعضّـه من ربلة سـاقه حتى نزفت. الفتيان البشر الثلاثـة تدحرجوا تحت الأسرّة، مواصلين العراك بضراوة. في النهاية غُلب نيكولا على أمره.

– أخبرنا ما الذي حصل لأبويك وإلّا سنطعمك نملاً!

منسـاقاً بالانفعال شـعر جان أنّه عثر على فكرته. وشـعر بالرضـا عنهـا. وبينما كان مثبّتـاً الوافد الجديد المنطرح أرضـاً، ركض فيليب يحضر بضعاً من غشائيات الأجنحة التي ليست نادرة في تلك الأماكن على الإطلاق، وعاد ملوّحاً بها أمام وجه نيكولا:

– خذ، ها هي سمينة جداً!

(كما لو أنّ جسد النّمل المغلّف بقوقعة صلبة، يمكن أن يكون لديه طبقات دهن!)

ثمّ قرص أنفه ليجبره على فتح فمه، حيث رمى بداخله متقزّزاً ثلاث عاملات شابّات، واللواتي لديها بالفعل انشغالات أخرى. حصل لنيكولا مفاجأة حياته. كانت لذيذة الطعم.

اندهش الآخران لعدم رؤيته يصق الطعام المقرف، فأرادا بدورهما تذوّقه.

قاعة قوارير العُسيل هي إحدى أحدث بدع بيلوكان. أخذت تكنولوجيا «القوارير» عن نمال الجنوب، اللواتي منذ موجات الحرارة الكبيرة لا تتوقّف عن الصعود باتّجاه الشمال.

كما هو معروف، اكتشفت الفيدراليّة قاعة قواريرهم أثناء حرب منتصرة ضد تلك النمال. الحرب أفضل مصدر وأفضل ناقل لحركة الاختراعات في عالم المجتمعات الحشريّة.

للوهلة الأولى، أصاب الهلع جنديّات الكتائب البيلوكانيّة، لرؤية ماذا؟ لّما رأت عاملات محكومات بقضاء حياتها بالكامل معلّقات بالسقف، رأسها إلى الأسفل وبطنها لفرط تكوّره يزيد ضعفين عن بطن الملكة! شرحت الجنوبيات أنّ هذه النمال «أُضْحيات»، إنّها دِنان حيّة قادرة على التخزين في مكان بارد كميّات لا تصدّق من الرحيق والندى والعُسيل.

باختصار، كان يكفي دفع فكرة «المعدة الاجتماعيّة» إلى أقصاها للوصول إلى فكرة «النّملة الصهريج» – ووضعها حيز التطبيق. كانت

تُدغدغ نهايات بطون تلك البرّادات الحيّة فتقدّم لهم عصيرها الثمين، قطرة قطرة حيناً وحيناً أخرى دفقاً غزيراً.

بهذه الطريقة كانت الجنوبيّات تقاوم موجات الجفاف التي تجتاح المناطق الاستوائية. حين كانت تهاجر حاملة معها قواريرها، ما يجعلها مرتويّه بشكل مثالي طوال فترة الرحلة. وبحسب زعمهم فإنّ للدنَان مكانة تعادل مكانة البيض.

سرقت البيلوكانيات تقنيّة القوارير، ولكن الفائدة التي رأوها في هذه التقنية على الخصوص هي إمكانيّة تخزين كميّات كبيرة من الطعام مع نوعيّة حفظ ونظافة لا نظير لها.

يتقدّم كلّ ذكور المدينة وإناثها ليملؤوا من السكّر والماء. يمتدّ أمام كلّ دنّ حي رتل طويل لطلّاب مجنّحين. الذكر 327 والأنثى 56 يرويان عطشهما سويّة ثمّ يتفرّقان.

بعد أنّ مرّ كلّ الجنسيّين وكلّ المدفعيّات، أفرغت النمال – الصهاريج. جيش من العاملات تستعجل لتجديد المؤونة من الرحيق والندى والعُسيل، إلى أن تستعيد البطون المترهّلة شكلها المنتفخ اللامع.

نيكولا، فيليب وجان فاجأهم المشرف وعاقبهم معاً. هكذا أصبحوا أقرب الأصدقاء في مأوى الأيتام. معظم الأوقات كانوا يقضونها في غرفة الطعام، أمام التلفزيون. وفي ذلك اليوم كانوا يتابعون حلقة من السلسلة الخالدة «كائن الفضاء وأعتزّ بذلك».

أخذوا يصرخون ابتهاجاً ويتلاكزون بالأكواع حين رأوا أنّ الحلقة تروي وصول رجال فضائيين إلى كوكب تسكنه نمال عملاقة.

«مرحباً، نحن سكان الأرض.

- مرحباً، نحن نمال عملاقة من كوكب زجي.»

ما تبقى من السيناريو كان عاديّاً: نمال عملاقة تجيد التخاطر. كانت ترسل إلى سكان الأرض رسائل تأمرهم بها بقتل بعضهم بعضاً. لكن الناجي الأخير فهم اللعبة وأحرق المدينة العدوّة...

سعيدين بهذه النهاية، قرّر الأطفال الذهاب لتناول بضع نمال حلوة. لكن الغريب أنّ التي اصطادوها لم يكن لها مذاق السكاكر. كانت أصغر حجماً ومذاقها حامض. مثل ليمونة مكثّفة. بيخك!

كل شيء ينبغي أن يحصل عند منتصف الظهيرة في النقطة الأعلى للمدينة.

منذ دفء الفجر الأوّل، تمركزت المدفعيّات في كوّات الحماية مشكّلة ما يشبه تاجاً حول القمّة، الشرج مصوّب إلى السماء، رافعة حاجز دفاع جويّ في وجه الطيور التي لن يتأخر قدومها. تحصر بعضهنّ بطونها بين الغصينات لتحدّ من أثر الارتداد، معتقدات أنّ تموضعهن بهذه الطريقة سيسمح لهنّ قذف رشقتين أو ثلاثاً بنفس الاتجاه دون درجة انحراف كبيرة.

الأنثى 56 في مقصورتها. المعتنيات عديمات الجنس، يطلين أجنحتها باللعاب الواقي. هل سبق لكنّ الذهاب إلى العالم الرحب؟ العاملات لا تجيب. بالطبع سبق لهنّ الذهاب، ولكن ما جدوى إخبارها بذلك؟ الخارج مليء بالأشجار والحشائش، وبعد بضع دقائق، ستكتشف الملكة المرشّحة ذلك بنفسها. فمعرفة العالم بواسطة التلامس القرني لا يعدو أن يكون نزوة جنسيّ!

ومع ذلك تتولّى العاملات زينتها. يمططنَ لها أرجلها لتليينها. ويجبرنها على الالتواء حتّى تطقطق مفاصلها الصدريّة والبطنيّة. يتأكّدن من أنّ معدتها الاجتماعيّة متخمة بالعُسيل وذلك بالضغط عليها إلى أن تتقيأ نقطة. هذا الشراب يسمح لها بتحمّل بضع ساعات من الطيران المتواصل.

حسناً. الأنثى 56 جاهزة. دور التي تليها. تغادر مقصورتها وهي ترفل بكامل زينتها وعطورها. لم يخطئ الذكر 327، إنّها حقّاً غاية في الجمال.

بمشقّة ترفع أجنحتها. لا يصدّق كم كبروا في الأيام الأخيرة. من كثرة ما كانوا طوالاً وثقالاً تأخذ الآن بجرّهم على الأرض وراءها... مثل طرحة الزفاف.

تظهر إناث أخريات عند مخرج الممرّ. بصحبة نحو مائة من أولئك العذارى تجول الأنثى 56 بين غصينات القبّة. بعضهنّ من فرط ابتهاجهنّ يعلقن بأطراف عيدان؛ فتتخدش أجنحتهن الأربعة، أخرى تثقب أو تخلع بأكملها. أولئك البائسات لن يحلّقن عالياً، على أيّة حال حتى لو رغبن لن يتمكنّ من الإقلاع. فيرجعن ممتلئات بالغيظ

إلى الطبقة الخامسة. مثل أميرات القزمات، لن يعرفن تحليق الحب. ستقتصر حياتهن على التكاثر في قاعة مغلقة على الأرض.

لم تمسّ الأنثى 56 بأذى. تتقافز من عود إلى آخر، محترسةً من الوقوع أو إفساد أجنحتها الرهيفة.

أخت إلى جانبها تطلب تلامساً قرنياً. من هم أولئك الذكور المخصّيين الذين يحكى عنهم؟ أهي أنواع من النحل الذكوري أو ذباب؟

تلتزم الأنثى 56 الصمت. تعود للتفكير في الذكر 327، وبلغز «السلاح السرّي». كل شيء انتهى. لم يعد هناك خليّة عمل. على الأقل بالنسبة للاثنين الجنسيّين. القضيّة برمّتها الآن بين مخالب الرقم 103683.

تستعيد الأحداث الفائتة بحنين. الذكر الهارب الذي يصل مقصورتها... بلا جواز مرور!

ذكرى أوّل اتصال مطلق بينهما.

لقاءهما بالرقم 103683.

القاتلات ذوات رائحة الصخر.

اللهاث في ممرّات العالم السفلي للمدينة.

المخبأ الممتلئ بجثث من كان يمكن لهم أن يكونوا «فرقتهم».

المَمرّ السرّي داخل الغرانيت...

تستعيد الذكريات بداخلها، وهي تسير، وتعدّ نفسها محظوظة. ولا أيّ أخت لها حظيت بمغامرات مماثلة قبل أن تغادر المدينة.

القاتلات ذوات رائحة الصخر... الروّاغة... الممرّ السرّي داخل الغرانيت...

الجنون لا يفسّر كل شيء، بما أنّ الأمر يخصّ ذلك العدد الكبير. مرتزقات يتجسّسن لصالح الأرَضَات؟ لا، لا يصحّ، لن يكونوا بهذا العدد، ولن يكونوا منظّمين إلى هذا الحدّ.

تبقى نقطة غير متطابقة مع الأحداث: لماذا توجد مؤونة من الطعام تحت قاع المدينة؟ من أجل إطعام الجاسوسات؟ أبداً، هناك ما يكفي لتسمين الملايين من النمال... وعددها ليس بالملايين.

وتلك الروّاغة المفاجأة. هي حيوان يعيش على سطح الأرض. من المستحيل أن تكون نزلت بمفردها إلى الطبقة 50 تحت الأرض. لقد تمّ نقلها إذاً. ولكن أوّل ما نقترب من تلك الحشرة، تجذبنا روائحها. فإذاً يجب وجود مجموعة قويّة إلى حدّ ما، لتغليف الوحش بأوراق طريّة وجرّه متخفّياً عن الأنظار بمشقّة إلى الأسفل.

كلّما فكّرت على هذا النحو، أدركت أنّ ذلك يتطلّب إمكانات كبيرة. في الحقيقة عند إمعان النظر بالأشياء، فإنّ ما يحدث يوحي بأنّ جزءاً من القطيع لديه سرّ، ويخفيه عن إخوته بضراوة.

ملامسات مجهولة تشعرها بالدوار. تتجمّد مكانها. يظنّ مجانسيها

بأنّ قوتهـا قد وهنت من انفعال ما قبل التحليق الزفافي. يحدث ذلك أحيانـاً، فـذوو الجنس مفرطـو الحساسـيّة. ترخي قرنيهـا إلى فمها. وتكرّر لنفسـها بسرعة: الرحلة الاستكشـافيّة الأولى دمّرت، السلاح السرّي، ثلاثون جنديّـة من الفيلق قتلت، الروّاغة، الممرّ السرّي داخل الغرانيت، المؤونة الغذائيّة...

يا للهـول، فهمت! تلقي بنفسـها عكس التيّار. عسـى ألا يكون الأوان قد فات!

تربية: تربية النمل تكون عبر المراحل التالية:

- مـن اليوم الأول إلى العاشر، تهتم معظم حديثات السن بالملكة البيّاضة. يعتنون بها، يلعقونها، ويلامسونها بحنان. وبالمقابل، تطليهم الملكة بلعابها المغذي والمعقّم.

- مـن اليوم الحادي عشر إلى اليوم العشرين، تحصـل العاملات على حقّ الاعتناء بالبيوض.

- مـن اليوم الحادي والعشرين إلى اليوم الثلاثين، تراقب العاملات وتغذّي صغار يرقات العائلة.

- مـن اليوم الواحـد والثلاثين إلى اليـوم الأربعين، تكرّس وقتهـا للأمور المنزليّة ولمكبّ قمامة المدينة مع مواصلة الاهتمام بالملكة الأم والحوريات.

- اليوم الأربعون تاريخ مهـم. تعدّ العاملات حينها ذوات خبرة وبموجب ذلك، يصبح لديها الحقّ في مغادرة المدينة.

- من اليوم الأربعين إلى الخمسين، يستخدمن حرّاساً وحلّابات للأرقة.

- من اليوم الخمسين وإلى آخر يوم في حياتها، تستطيع الحصول على الانشغال الأكثر متعة بالنسبة لنملة مدنية: الصيد واستكشاف بلاد مجهولة.

ملاحظة: من أول اليوم الحادي عشر لا يعود الجنسيّون مرغمين على العمل. يظلون متبطلين معظم الأوقات، محصورين داخل أحيائهم بانتظار يوم التحليق الزفافي.

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

الذكر 327 يهيئ نفسه هو أيضاً. لم يكن ثمّة من حديث يدور في حقل قرنيه سوى عن الإناث. قلائل فقط سبق لهم أن رأوا أنثى. ومن رأى فليس أكثر من لمحة عابرة في ممرات المدينة المحرّمة. كثيرون يتوهمون، يتخيلنهن بعطور مسكرة، وإثارة صاعقة.

يدّعي أحد الأمراء بأنّه تبادل التطاعم مع إحدى الإناث. غُسيلها كان له نكهة عصارة البلوط، وهرموناتها الجنسيّة تبثّ روائح أشبه بروائح النرجس البريّ المقصوص.

يحسده الأخرون بصمت.

رقم 327، والذي هو قد ذاق بالفعل غُسَيل أنثى (وأيّة أنثى!)، يعلم بأنّ طعم ذلك لا يختلف عن غُسيل العاملات أو الدّنان. لكنّه لا يتدخل بالحديث.

وعوضاً عن ذلك، مرّت في ذهنه فكرة لعوب. كم كان يتمنى لو يمنح الأنثى 56 الحيوانات المنويّة اللازمة لتشييد مدينتها المستقبليّة. لو بوسعه فقط أن يعود ويلقاها... وا أسفاه! أنّهما لم يفكّرا بتحديد فيرومون للتعرّف يمكّنهما من العثور على بعضهما وسط الحشد.

يتفاجأ الجميع حين تصل الأنثى 56 إلى قاعة الذكور. القدوم إلى ذلك المكان مخالف لكلّ قوانين القطيع. لا ينبغي أن يلتقي الذكور والإناث قبل لحظة التحليق الزفافي. فلسنا هنا في مدينة للقزمات. ولا نجامع في الممرّات.

الأمراء الذين كانوا متشوقين لمعرفة ما هي الأنثى وصلت إليهم الصورة. يبثون معاً روائح عدائيّة تبلغها بأنّه لا ينبغي لها البقاء في القاعة.

رغم كل شيء تواصل التقدّم وسط جلبة من التجهيزات. تدفع الجميع، ناثرة فيروموناتها لا على التعيين.

الرقم 327! الرقم 327! أين أنت، الرقم 327؟

لا يتحرّج الأمراء بالقول لها بأنّنا لا نختار بهذه الطريقة ذكر المجامعة! ينبغي أن تكون صبورة، وأن تثق بالصدفة. وأن تظهر قليلاً من الحشمة...

لكنّها مع ذلك، عثرت الأنثى 56 على زميلها في النهاية. ميتاً. مقطوع الرأس بضربة حاسمة من فكّين.

شمو ليّــة: البشر يهتمو ن بالنّمل، لأنّهم يعتقدو ن أنّــه تمكّن من إقامة نظام شمولي ناجــح. صحيح أنه يبدو لنا من الخارج أنّ الجميــع في عشّ النّمل يعمل، الجميع يطيع، الجميع مستعد للتضحية، الجميــع متماثل. و صحيح بالمقابل أنّ كافة الأنظمة البشريّة الشمو ليّة إلى الآن باءت بالفشل...

لــذا يخطر لنا أن نأخذ عن الحشرة الاجتماعيّة (ألم يكــن شعار نابليو ن النحلة؟). الفيرو مو نــات التي تطــو ف عشّ النّمل بكاملــه بمعلو مة شاملة، هي اليــو م التلفزيو ن العالمــي. يظنّ الإنسان وهو يقــدّم للجميع كل ما يعتبره الأفضل، أنّــه سيصل يوماً ما إلى إنسانية مثاليّة.

المعنى في مكان آخر.

الطبيعة لا تتطوّر، وإن لم يعجب ذلك السيد داروين، باتجاه هيمنة الناس الأفضل (و الأفضل بحسب أيّة معايير ؟).

الطبيعة تأخذ قوّتها من التنوع. يلزمها الطيبو ن، الشريرو ن، المجانين، المحبطو ن، الرياضيو ن، طريحو الفراش، المحدّبو ن، المشرومو ن، المبتهجو ن، الحزانى، الأذكياء، الأغبيــاء، الأنانيو ن، الأسخياء، الصغار، الكبار، الســو د، الصفر، الحمر، البيض... يلزمهــا جميع الأديان، جميع الفلسفات، جميع حالات التطرّف، و جميع الحِكَم... الخطر الو حيد هو أنّ تلغي أيّاً من هذه الأصناف من قبل أخرى.

رأينــا بأنّ حقــو ل الذرة التي صــمّمت من قبل الإنسان بشــكل صناعي و المشكّلة مــن توائم أفضل كوز (الذي يحتاج إلى ماء أقل، و أكثر مقاومة للجليد، و الذي يعطي أجمل حبو ب) تمو ت معاً عند ظهور أيّ مر ض. بينما حقو ل الذرة البريّة، المشكّلة من

صنوف مختلفة لكل صنف منها ميزاته، نقاط ضعفه، عيوبه، كانت دوماً تجد مضاداً للأوبئة.

الطبيعة تكره التشابه وتحبّ التنوع. ربّما في ذلك تظهر عبقريّتها.

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

تعود إلى القبّة بخطوات ثقيلة ومهمومة. في ممرّ قرب جناح الأميرات، تميز بعُييناتها التي ترى بالأشعّة تحت الحمراء هيأتين. إنّهما القاتلتان ذواتا رائحة الصخر! البدينة والصغيرة العرجاء!

وبينما تتّجهان نحوها مباشرة، تئزّ الرقم 56 أجنحتها وتنقضّ على عنق العرجاء، غير أنّهما سرعان ما تمسكان بها. وبدلاً من القضاء عليها، تفرضان تلامساً قرنيّاً.

الأنثى بغضب، تسألهما لماذا قتلتا الذكر 327، بما أنّه كان سيموت على أيّة حال أثناء التحليق. فلماذا اغتالتاه؟

تحاول القاتلتان تهدئتها. بحسبهما، بعض الأشياء لا يمكنها الانتظار مهما كان الثمن. يوجد مهمّات غير محبّذه، وتصرّفات سيّئة السمعة يتوجّب القيام بها إذا أردنا للقطيع أن يستمرّ بشكل طبيعي. لا ينبغي أن يكون المرء ساذجاً... وحدة بيل - أو - كان لا تنال بسهولة. وإذا أصبح الأمر ملحّاً، يجب علاجه!

هما ليستا جاسوستين إذاً؟

لا، ليستا جاسوستين، وعلاوةً على ذلك تدّعيان بأنّهما... الحارستان الرئيسيتان لأمن وصحة القطيع.

تصرخ الأميرة فيرومونات غاضبة. وهل الذكر 327 هو من كان يهدّد أمن القطيع؟ بلى، تجيب القاتلتان. وأنّها ستفهم يوماً ما، فهي لا تزال صغيرة...

تفهم، ماذا تفهم؟ بأنّه يوجد قتلة منظّمون إلى هذا الحدّ داخل المدينة، ويدّعون إنقاذها بإلغاء الذكور الذين «رأوا أشياء حاسمة لاستمرار حياة القطيع».

تتنازل العرجاء بالتوضيح. خلاصة حديثها أنّ المحاربات ذوات رائحة الصخر هنّ «جنديّات مضادات للتوتّرات السيئة». ثمّة توتّرات جيّدة تدفع القطيع للتطوّر والقتال. ويوجد توترات سيّئة تدفع القطيع إلى تدمير ذاته...

لا ينبغي لجميع المعلومات أن تسمع. فبعضها يثير قلقاً «ميتافيزيقيّاً»، والذي لا حلّ له إلى الآن. ما سيشغل بال القطيع، وعندئذ سيجد نفسه عاجزاً، غير قادر على التصرّف...

وهذا يعود بالسوء على الجميع. فيبدأ القطيع ينتج مواد تسمّه. بقاء القطيع «على مدى طويل» هوِ أهم من معرفة الواقع «على المدى القصير». إذا رأت العين شيئاً يعرفه العقل أنّه خطر على باقي نظام الجسد، فمن الأفضل أن يفقأ العقل تلك العين...

تنضم البدينة إلى العرجاء لتلخيص هذه الأقوال الحكيمة:

لقد فقأنا العين،

لقد قطعنا الحافز العصبي،

لقد أوقفنا القلق.

تصرّ القرون، وهي توضح بأنّ كافّة أنظمة الأجسام لديها هذا النوع من الأمن الموازي.

أولئك الذين لا يمتلكونه يموتون من الخوف أو ينتحرون كيلا يواجهوا الواقع المقلق.

تفاجأت الرقم 56 قليلاً لكنها لم تضيّع موضع قدمها. في الحقيقة فيرومون جميل! إذا أرادوا إخفاء وجود السلاح السرّي فقد فات الأوان. فالجميع بات يعلم بأنّ لا - شولا - كان كانت أوّل ضحاياه، حتى ولو ظلّ اللغز مبهماً من وجهة النظر التكنولوجيّة...

لا تزال الجنديّتان، محافظتين على سيطرتهما، تقبضان عليها بإحكام. أمّا بخصوص لا - شولا - كان، فإنّ الجميع قد نسي؛ لأنّ النصر هدّأ الفضول. فيكفي شمّ الممرّات، للتأكّد من عدم وجود أيّ أثر لرائحة سمّية. جميع القطيع شعر بالارتياح ليلة الأمس قبل حفل الانبعاث.

ماذا يريدون منها إذاً؟ ولماذا تحصران رأسها بهذه الطريقة؟

أثناء المطاردة في الطبقات السفلية، التقطت العرجاء وجود نملة ثالثة. جنديّة. ما هو رقمها التعريفي؟

ها هو إذاً سبب عدم قتلها مباشرة! كجواب، تغرز الأنثى بعمق رأسي قرنيها في عيني البدينة. حقيقة كونها عمياء بالأصل لا يعفيها من الألم الشديد. وتراخت قبضة العرجاء وهي في حالة ذهول.

الأنثى تركض ثمّ تطير لتزيد سرعتها. تثير أجنحتها زوبعة غبار تضلّل مطاردتيها. بسرعة، ينبغي أن تلتحق بالقبّة.

لامست الموت للتوّ. ستبدأ الآن حياة أخرى.

مقتطف من عريضة مناهضة لاستخدام أعشاش النّمل كألعاب، ألقاها إدمون ويلز أمام لجنة التحقيق في مجلس النوّاب:

«في الأمس رأيت في المحال ألعاباً جديدة مهداة للأطفال من أجل عيد الميلاد. إنّها علب بلاستيكيّة شفّافة مليئة بالتراب مع ستمائة نملة في داخلها والتأكيد على وجود ملكة خصيبة.

نراهم يعملون، يحفرون، يركضون.

لا بدّ أن يكون المشهد ساحراً لأجل طفل. إنّه بمثابة إهدائه مدينة. غير أن السكان مفرطي الصغر. مثل مئات الدمى الصغيرة المتحرّكة والتي تتمتع بتحكم ذاتي.

وأعترف صراحة، أنّه لديّ أنا شخصياً أعشاش نمل مماثلة. ببساطة، لأنّه في إطار عملي كعالم أحياء يتوجب عليّ دراستها، وقد وضعتها داخل أحواض مغطاة بكرتون غير عازل للهواء.

مع ذلك كلّما وقفت أمام عشّ النّمل الخاص بي تملّكني انطباع غريب. كما لو كنت المقتدر في عالمهم. كما لو كنت إلههم...

فلو خطر لي أن أحرمهم من الطعام فإنّ جميع نمالي سوف تموت؛ وإذا ما عنّ لي إنزال المطر لا أحتاج إلى أكثر من إفراغ محتوى كأس بالمرشّ على مدينتهم؛ وإذا قرّرت أن أزيد لهم درجة الحرارة، يكفي فقط وضعهم على مشعاع التدفئة؛ وإذا أردت خطف واحدة لأفحصها بالمجهر، لن يكلفني الأمر أكثر من أخذ ملاقطي الصغيرة وغرزها في الحوض؛ وإذا شاءت نزوتي أن أقتل منهم فلن تكون هناك أيّة مقاومة. ولن يعرف النّمل حتى ما الذي يحصل له.

أقول لكم، أيّها السادة، إنّها قوّة مفرطة تلك التي منحت لنا على هذه الكائنات، وذلك فقط لأنّ لهم بنية مصغّرة.

أنا لا أتجاوز الحدّ. ولكن أظنّ أنّ بإمكان طفل، هو أيضاً، أن يفعل معهم ما يشاء.

أحياناً تراودني فكرة حمقاء. وأنا أرى هذه المدن من الرمل، وأقول في سرّي: ماذا لو كانت هذه مدننا؟ وكنّا نحن أيضاً قد وضعنا في حوض - سجن ونُرَاقب من قبل جنس عملاق آخر؟

إذا كان أدم وحواء مخلوقي تجارب وضعا في ديكور اصطناعيّ، «للملاحظة»؟

إذا كان الطرد من الجنّة الذي تكلّم عنه الإنجيل لا يتعدّى أن يكون انتقالاً من حوض - سجن إلى آخر؟

إذا كان الطوفان، بعد كلّ شيء، لا يتعدّى كونه كأس ماء مسكوب من قبل إله مهمل أو فضوليّ؟

هل ستقولون: إنّ ذلك مستحيل؟ من يعلم... الفرق الوحيد الممكن أنّ نمالي محجوزةٌ خلف حاجز زجاجيّ فيما نحن مغلق علينا من قبل قوّة فيزيائيّة: الجاذبيّة الأرضية!

غير أنّ نمالي تستطيع من حين لآخر أن تثقب الغطاء، هربت كثيرات منهنّ. ونحن، تمكّنا من إرسال صواريخ أفلتت من مجال الجاذبيّة.

لنعُد إلى مدن الأحواض. أبلغتكم منذ قليل، أنّي إله شهم ورحيم، وحتى متطيّر قليلاً. وبالخلاصة لا أعذّب أبنائي. لا أعامل الآخرين بما لا أرغب أن أعامل به.

ولكن آلاف أعشاش النّمل المباعة في عيد الميلاد ستحوّل أطفالاً بذات العدد إلى آلهة. فهل سيكون لديهم مثلي الشهامة والرحمة ذاتهما؟

لا بدّ أنّ معظمهم سيفهم أنّه مسؤول عن مدينة وأن ذلك سيمنحه حقوقاً إلهيّة وواجبات: إطعامهم، ووضعهم ضمن حرارة مناسبة، وعدم قتلهم للمتعة.

ولكنّ الأطفال الذين لم يصبحوا مسؤولين بعد، لا سيّما الصغار جداً منهم، والذين يخضعون لمضايقات من قبيل: الفشل الدراسي

المتكرّر، شجار مع الأبوين، عراك مع الأصحاب. يمكن لهم بفورة غضب نسيان واجباتهم «كآلهة فتيّة»، عندئذ لا أجرؤ على تخيّل مصير «رعاياهم»...

أنا لا أطالبكم بالتصويت على القانون الذي يمنع تحويل أعشاش النّمل إلى ألعاب بدافع الشفقة على النّمل، أو حقوقهم كحيوانات. فليس للحيوانات أيّ حقّ: نكاثرهم في المزارع لكي نضحي بهم من أجل استهلاكنا. أطالبكم بالتصويت له وأنتم تتخيّلون أننا قد نكون مسجونين ومدروسين من بنية عملاقة. هل تتمنون أن تهدى الأرض كهدية عيد ميلاد إلى إله فتيّ غير مسؤول؟»

الشمس في أوجها.

تسرع الذكور والإناث في الشرايين التي على سوية أديم الأرض. مدفوعات من العاملات اللواتي تلعقهم وتشجّعهم.

في الوقت المناسب تُغرق الأنثى 56 نفسها وسط هذا الحشد المبتهج حيث تمتزج روائح جميع جوازات المرور. فلن يتمكن أحد من تمييز روائحها في هذا المكان. تاركة لنفسها أن تأخذ بسيل أخواتها، وبدأت شيئاً فشيئاً تعلو عابرة أحياء كانت حتّى الآن مجهولة إليها.

بغتةً، عند زاوية ممرّ، صادفت شيئاً لم تره من قبل. ضوء النهار. في البداية لم يكن أكثر من هالة على الجدران، غير أنّه لا يلبث أن يحتال وضوحاً يعمي. ها هي أخيراً القوّة الغامضة التي وصفتها لها المربّيات. إنّه الضوء الدافئ، واللطيف، والجميل. الوعد بعالم جديد رائع.

من كثرة ما امتصّت فوتونات صافية بمقل عيونها، شعرت بأنّها ثملة. كما لو أنّها أفرطت بتناول عُسيل الطبقة 32 المخمّر.

تستمرّ الأميرة 56 بالتقدّم. الأرض ملطّخة ببقع بيضاء يصعب تحمّلها. تتخبط بالفوتونات الحارّة. بالنسبة لشخص عاش طفولته تحت الأرض، التناقض حادّ جداً.

منعطف جديد. تصيبها حزمة نور صافية، آخذة بالاتساع على شكل دائرة مبهرة، ثمّ تنسدل على هيئة ستار فضّي. قصف النور يجبرها على الارتداد للخلف. تشعر بذراته تتسلل داخل عيونها وتحرق أعصابها البصريّة، وتأكل أدمغتها الثلاثة. الأدمغة الثلاثة... إرث قديم أخذته عن أجدادها الديدان الذين كان لديهم عقدة عصبية لكلّ حلقة، جهاز عصبيّ لكلّ جزء من الجسد.

أمام هبوب الفوتونات تواصل تقدّمها. تميز من بعيد هيئات أخواتها المنهوبات من الكوكب الشمسي. كأنهنّ أشباح.

تواصل قدماً. يصبح كيتينها دافئاً. هذا الضوء الذي جرت محاولة شرحه لها آلاف المرات يفوق كل لغة، إذا لم يُعش فلن يفهم بالوصف! يمرّ في بالها كل عاملات فئة «البوابات» اللواتي يقفل عليهن طوال حياتهنّ داخل المدينة واللواتي لن يعرفن يوماً ما هو العالم وشمسه.

تلج جدار الضوء فتجد نفسها في الجهة الأخرى، خارج المدينة. وهي تشعر بلسعات الهواء البريّ، عيونها عديدة الأوجه تتكيّف شيئاً فشيئاً، هواء بارد، متحرّك ومعطّر بعكس الجوّ الذي ألفته داخل العالم الذي عاشت فيه.

يدور قرناها حول ذاتهما. تجد صعوبة بتوجيههما كما تريد. تيار هواء أسرع يلصقهما على وجهها. تخفق أجنحتها.

هناك في الأعلى، فوق أعلى القبّة، تلتقطها العاملات. يمسكنها من أرجلها، يرفعنها، ويدفعنها إلى الأمام داخل زحمة الجنسيّين، مئات من الذكور والإناث الذين يسارعون ويتكدّسون ضمن مساحة ضيقة. تفهم الأميرة 56 أنّها على مدرج التحليق الزفافي ولكن يتوجب عليها انتظار تحسّن أحوال الطقس.

لكن، وبينما تواصل الريح أفعالها، تتمكّن نحو عشرة عصافير من الدوري تمييز الجنسيّين. مثارون بالحظّ غير المتوقع، يطيرون مقتربين شيئاً فشيئاً. وحين يصبحون على مقربة أكثر، تبادرهم المدفعيات الموضوعة كتاج حول الرأس برشقاتهنّ من الحمض.

يغامر أحد العصافير، منتهزاً الفرصة، بالغوص في المجموعة، يلتقط ثلاث إناث ويحلّق ثانية! قبل أن يعاود هذا الجريء الارتفاع، تسقطه المدفعيّات؛ بما يستدعي الشفقة، يتدحرج على العشب، ومنقاره لا يزال ممتلئاً، على أمل مسح السمّ عن أجنحته.

ليكن هذا درساً للآخرين! وبالفعل انسحبت عصافير الدوري إلى الوراء قليلاً... ولكن لا أحد يخدع بسهولة. فلن تلبث أن تعود مجدّداً بغارة جويّة.

مفترس: كيف كانت حضارتنا البشريّة ستكون لو لم تتخلص من مفترسيها الأساسيّين كالذئاب، والأسود، والدببة أو الكلاب البريّة؟

بالتأكيد ستكون حضارة قلقة، مرهونة بإعادة النظر باستمرار. الرومان لكي يخيفوا أنفسهم كانوا في ذروة حفلات الخمر، يرسلون لإحضار جثة. على هذا النحو كان الجميع يتذكّر أن لا شيء مؤكد وأنّ الموت قد يقع في أية لحظة.

ولكن في أيامنا، تمكّن الإنسان من أن يسحق، ويقضي، وأن يضع في المتحف كلّ الأجناس التي كان بإمكانها أن تأكله. لدرجة أنّه لم يتبقّ غير الجراثيم وربّما النّمل، يسبّبان له القلق. بالمقابل فإنّ الحضارة النّمليّة تطورت دون أن تقضي على مفترسيها الأساسيين. الخلاصة: هذه الحشرة تعيش إعادة نظر دائمة. هي تعلم أنّها لم تجتز بعد إلّا نصف الطريق، بما أنّ حتّى أغبى حيوان بوسعه أن يقضي على ثمار ألفيات من خبرة متعمّق بها.

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

هدأت الريح، تيارات الهواء صارت نادرة، وارتفعت الحرارة. قررت المدينة عند 22° - زمنيّة إطلاق أبنائها.

تئزّ كلٌّ من الإناث أجنحتها الأربعة. إنهن جاهزات، في أقصى درجات الجهوزية. جميع تلك الروائح الذكوريّة الناضجة أوصلت شهوتهنّ إلى أوجها.

بأناقة، تحلّق أوائل العذارى. تعلو على ارتفاع نحو مائة رأس و... تحصدهم عصافير الدوري على الفور. لا تنجو أيّ واحدة منها.

يسود اضطراب في الأسفل، ولكن لا يمكن أن يستسلموا لهذا السبب. فتحلّق موجة أخرى. أربع إناث من مائة تتمكن من اجتياز

حاجز المناقير والريش. تتبعهم الذكور في سرب مضموم. هم يسمح لهم بالعبور، إنّهم هزيلون جداً ليثيروا اهتمام العصافير.

الموجة الثالثة من الإناث ترتمي على الغيوم. أكثر من خمسين عصفوراً يقطعون طريقها. إنّها مجزرة. لا تنجو أيّ منها. أخذت أعداد الطيور بالازدياد كما لو أنّهم أبلغوا بعضهم. بدأت تعلو هناك في الأعلى زقزقة لجمهرة من العصافير: الدوري، والشحارير، وأبي الحنّاء، والشراشير، حمائم... كانوا هم أيضاً في احتفال!

تقلع الموجة الرابعة. هذه المرّة أيضاً لم تعبر أيّة أنثى. تتناوش العصافير فيما بينها للحصول على أفضل القطع.

تخرج المدفعيّات عن طورها، وتطلق عاموديّاً من غدة حمض النّمليك بأقصى ما تستطيع. لكنّ المفترسين مرتفعون جداً. بدأت القطرات القاتلة تمطر على المدينة، مسبّبة أضراراً وموقعة جرحى.

تحجم إناث تملّكها الذعر. ترى أنّ العبور مستحيل وتفضّل النزول إلى القاعة للمجامعة، برفقة أميرات أخريات مصابات.

تتهيّأ الموجة الخامسة من أجل التضحية الأسمى. يجب بكل الأحوال اجتياز هذا الجدار من المناقير! سبع عشر أنثى عبرت، مقتفياً أثرها ثلاثة وأربعون ذكراً.

الموجة السادسة: عبرت منها اثنتا عشر أنثى!

السابعة: أربع وثلاثون!

تحرّك الأنثى 56 أجنحتها. لا تجرؤ إلى الآن على المضي. للتوّ سقط عند أرجلها رأس أخت، وتبعتها متهادية ريشة كنذير شؤم. كانت تريد أن تعرف ما هو العالم الرحب؟ آه، الآن وضحت لها الفكرة!

هل ستنطلق مع الموجة الثامنة؟ لا... وفعلت خيراً بإحجامها، لأن الموجة قضي عليها بالكامل.

تعود الأميرة المتوترة وتوزّ أجنحتها الأربعة مرتفعة قليلاً. حسناً، ثمّة على الأقل شيء يعمل، لا مشكلة في الأجنحة، لا مشكلة سوى بالرأس الذي... اجتاحه الخوف. يجب أن تكون متعقّلة. نسبة النجاح أمامها قليلة.

تُوقف الرقم 56 خفقان أجنحتها: ثلاث وسبعون أنثىٰ من الموجة التاسعة عبرت للتوّ. ترسل العاملات فيرومونات التشجيع، ويعود الأمل من جديد. هل ستذهب مع الموجة العاشرة؟

متردّدة، تلمح فجأة، أبعد قليلاً، العرجاء الصغيرة والبدينة القاتلة بعينيها الميتتين من الآن فصاعداً. لا يلزمها أكثر من ذلك لتتخذ القرار. تحلّق بغتة. فتطبق فكوك الجنديتين على الهواء. كادتا أن تنالا منها.

تحافظ للحظة الرقم 56 على مستوى طيران يتوسّط بين المدينة وجمهرة العصافير. ثمّ تختفي داخل طيران الموجة العاشرة، تستغل الفرصة وتندفع قدماً نحو الهاوية الجويّة هي أيضاً. وبينما تُلتقط جارتاها، تعبر في هذه الأثناء، بغتة، بين مخلبي قرقفين ضخمين.

مسألة حظّ ببساطة.

تمّ الأمر، أربع عشرة أنثى من الموجة العاشرة خرجن سالمات. ولكن الرقم 56 لا تتوهّم. فهي لم تتخطّ بعد سوى العقبة الأولى. الأصعب هو ما سيأتي. هي تعلم نسب نجاحها. فعلى العموم بين ألف وخمسمائة أميرة حلّقن ما يقارب العشرة تلمس الأرض دون عقبات.

وأربع ملكات، بالاحتمال الأكثر تفاؤلاً، سيتمكنّ من تشييد مدنهنّ.

أحياناً عندما: أحياناً عندما أسير في الصيف، انتبه أنّي كدت أن أدوس شيئاً يشبه الذبابة. أمّعن به: إنّها ملكة نمل. إذا وجد منها واحدة فذلك يعني وجود ألف. يتلوّون على الأرض. جميعهنّ يداسون بأحذية الناس، أو يصطدمون بزجاج السيارات. إنهنّ منهكات، دون أية سيطرة على طيرانهنّ. كم من المدن دمّرت بهذه الطريقة، بضربة مسّاحات بسيطة على طريق صيف؟

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

بينما تسرّع الأنثى 56 جوانحها الأربع الطويلة المزجّجة، ترى خلفها سوراً من الريش الذي يغلق على الموجة الحادية عشرة والثانية عشرة. مسكينات! خمس موجات من الإناث بعد وتكون المدينة قد أطلقت كل آمالها.

منذ الآن لن تعود للتفكير بذلك، مأخوذة من الأزرق السماوي اللانهائي. كلّ ما يحيط بها أزرق مفرط الزرقة! كم هو رائع اختراق الأجواء بالنسبة لنملة لم تعرف غير الحياة تحت الأرض. يبدو لها أنّها تتحرّك في عالم آخر. غادرت أروقتها الضيقة لأجل فضاء مدوّخ حيث كل شيء يتوهّج بثلاثة أبعاد.

تكتشف بالحدس جميع إمكانيات الطيران. حين ترخي ثقلها

علـى ذلك الجناح، تنعطف يميناً. تعلو حين تغيّر زاوية خفق الأجنحة. أو تهبـط أو تسرع... تلاحظ أنه لكي تأخذ منعطفـاً مثالياً، عليها أن تغرز نهايات أجنحتها في محور متخيّل وعدم التردّد بوضـع جسـدها في زاوية تزيد عن 45°.

تكتشـف الأنثى 56 أنّ السماء ليست خاوية. بل هي على العكس مـن ذلك. هي مليئة بالتيارات. بعضـها، «المضـخات» تسـحبها إلى الأعلـى. والجيوب الهوائيـة بالمقابل تجعلها تنخفض. والتي لا يمكن تمييزها إلّا بمراقبة الحشرات المتقدّمة، بحسب حركاتها يُستبَق الاتّجاه.

تشعر بالبرد. الجوّ بارد في العلوّ. توجد أحياناً أعاصير، هبّات هواء دافئة أو قارسة تدوّرها مثل دوّامة.

تندفـع مجموعـة من الذكـور في إثرها. فتسرع الأنثـى 56، لكيلا يتمكّـن من اللحاق بهـا إلّا الذكور الأسرع والأكـثر إصراراً. هذا هو الانتقاء الأوّل للجينات.

تشـعر بأنّ أحداً لمسها. يلتحم أحدهم ببطنها، يتسلّقها ثمّ يعتليها. هو رقيق الجسم، ولكن بما أنّه توقّف عن تحريك جناحيه بدا وازناً.

ينخفض ارتفاعهـا قليلاً. يتلّوى فوقها كيلا تعيقه رفرفة الأجنحة. فاقداً التوازن، يحني بطنه ليصل بإبرته إلى عضوها.

تنتظر الأحاسـيس بفضـول. وخز لذيذ بدأ يعبرهـا. ذلك منحها تصـوّراً. دون أن تنـذره تلقي بنفسـها بسـقوط رأسـي. إنّه الجنون! النشوة الكبرى! السرعة والجنس أوّل مزيج هائل لها من اللذّة.

صورة الذكر 327 تظهر خطفاً في عقلها. الريح تصفر بين رموش عيونها. عصارة حارّة ترعش قرنيها. بعض خواطرها تتحوّل إلى بحر متموّج. سوائل غريبة تسيل من كافّة غددها، وتمتزج بحساء فوّار ينسكب بأدمغتها.

ما إن تصل رؤوس الأعشاب، حتّى تجمّع قواها وتعود مرفرفةً بأجنحتها. تنطلق مثل الرمح. وحين تستعيد ثباتها لا يشعر الذكر أنّه على ما يرام، فترتجف أرجله ويأخذ فكّاهُ ينفتحان وينغلقان دونما سبب. سكتة قلبيّة. يليها سقوط حرّ...

أغلب الحشرات الذكور، مبرمجون ليموتوا عند أوّل فعل حبّ لهم. لا يحقّ لهم القذف إلّا مرّة واحدة. قذف منتج. أوّل ما تغادر الحيوانات المنوية الجسد تأخذ معها حياة صاحبها.

عند النّمل القذف يقتل الذكر. عند أجناس أخرى الأنثى بعد أن تكون منتشية تقضي على واهبها. لأنّ المشاعر ببساطة فتحت شهيّتها.

ينبغي التسليم بالبداهة: عالم الحشرات هو بالمجمل عالم إناث أو أرامل على نحو أدق. ليس للذكور إلّا دور عرضي...

سرعان ما التحم بها مُخصّب آخر. ما إن ذهب الأوّل حتّى حلّ آخر مكانه! ثمّ ثالث، ثمّ آخرون كثيرون. توقّفت الأنثى 56 عن عدّهم. بلغوا سبعة عشر أو ثمانية عشر من الذين توالوا على إملاء مخزنها من الحيوانات المنويّة الطازجة.

تشعر بسائل حي يغلي في بطنها. إنّه مؤونتها من السكّان لمدينتها

المستقبليّة. ملايين من الخلايا الجنسيّة الذكوريّة التي ستسمح لها أن تبيض كلّ يوم طوال خمسة عشر عاماً قادمة.

تتقاسم مع أخواتها الجنسيّات اللائي يطفن حولها ذات المشاعر. السماء تعجّ بالإناث الطائرة، ويعتلي كلّ واحدة ذكر أو أكثر من ذكر يجامعون الأنثى ذاتها. قوافل من الحبّ معلّقة بالغيوم. تلك السيدات ثملات من التعب والسعادة. لم يعدن أميرات، إنهنّ الآن ملكات. متعهن المتكرّرة أصابتهن بالدوار ويجدن الآن صعوبة في التحكّم باتّجاه طيرانهنّ.

في هذه اللحظة بالذات اختارت أربعة من طيور السنونو المتأنقات ظهورها، آتية من شجرة كرز مزهرة. هي لا تطير وإنّما تنساب خلل طبقات السماء بلا مبالاة مخيفة... يهجمن على النّمال المجنّحة بمناقير مشرّعة ويبتلعنهنّ واحدة تلو الأخرى. والأنثى 56 هي الآن مطاردة بدورها.

كانت الرقم 103683 موجودةً داخل قاعة المستكشفين. عازمة على إكمال التحقيق بمفردها، وذلك عبر اختراق عشّ الأرَضَة في المنطقة الشرقيّة، ولكن عُرِضَ عليها الانضمام إلى مجموعة من المستكشفات ضمن رحلة لأجل «صيد التنين». فقد اكتشف بالفعل حرذون في مناطق الرعي لمدينة زوبي - زوبي - كان، التي تملك أكبر قطيع من دواب الأرْقة في سائر الفيدراليّة - 9 ملايين رأس حلّابة. إلّا أنّ وجود أيّاً من هذه الضِباب سيؤثر جدّاً على تلك النشاطات الرعويّة.

لحسن الحظ، تقع زوبي - زوبي - كان على الحدود الشرقية للفيدراليّة، في المنتصف تماماً بين مدينة الأَرَضَة وبيل - أو - كان. لذا قبلت الرقم 103683 الانضمام إلى هذه الرحلة الاستكشافية. هكذا لن يلحظ أحد غيابها.

تتجهز المستكشفات حولها بعناية. تتخم معدها الاجتماعيّة بمؤونة من السكّر لأجل الطاقة وجعبتها من حمض النّمليك. ثمّ يطلون أنفسهم بلعاب الحلزون للوقاية من البرد ومن (صرن الآن يعلمن ذلك) أبواغ الألترناريا.

يثار لغط حول صيد الحرذون. يشبّهها البعض بحيوانات السمندل أو بالضفادع، إلّا أن معظم المستكشفات الاثنتين والثلاثين تقرّ له بالصعوبة التي تكتنف صيده.

تدعي عجوز أن لدى الحراذين مقدرة على إطالة ذنبهم من جديد إذا تعرّض للقطع! يسخرون منها... تؤكد أخرى أنّها رأت أحد هذه الوحوش بقي متجمّداً مثل الحجر طوال 10°. يتناول الجميع أحاديث أوائل البيلوكانيات اللواتي واجهن بفكوك عارية تلك الوحوش - في ذلك الزمن لم يكن استخدام حمض النّمليك شائعاً على نطاق واسع.

لم تتمكّن الرقم 103683 تجنّب رعشة سرت فيها. فحتّى الآن لم تر حرذوناً أبداً، واحتمال مهاجمته بفكّين عاريين أو حتّى بالرشق الحمضي لا يبعث على طمأنتها. تقول في سرّها إنّها ستلوذ بالفرار في أوّل فرصة. وبالمحصلة، يظلّ تحقيقها بشأن «السلاح السرّي للأرضات» هو أمر مصيري لحياة المدينة أكثر من أيّ رياضة صيد.

المستكشفات على أهبة الاستعداد. يصعدن مجدّداً عبر ممرّات الحزام الخارجي ثمّ ينبثقن في الضوء أمام بوابة الخروج رقم 7، والتي تسمّى «المخرج الشرقي».

ينبغي عليهن بداية مغادرة ضاحية المدينة، وذلك ليس بالأمر الهين. فمعظم محيط بيل - أو - كان يعجّ بحشود من العاملات والجنديّات والجميع في عجلة من أمره.

تتدفق الحركات بأكثر من اتّجاه. بعض النمال محمّلات بأوراق، بفاكهة، بحبوب، بزهور أو فطور. أخريات تنقل عيداناً وحصى لاستخدامها في أعمال البناء. بعضهن محمّلات بطرائد... جلبة من الروائح.

تشقّ الصيّادات طريقاً لها وسط الزحام. ثمّ تنساب قليلاً حركة المرور. تفضي الجادّة إلى طريق لا يتعدّى عرضه ثلاثة رؤوس (9 ميلّمترات)، ثمّ اثنان، ثم رأس واحد. لا بدّ أنهن أصبحن بعيدات عن المدينة، لم يعدن يلتقطن الرسائل الجمعيّة. قطعت المجموعة حبل السرّة الشمّي وكوّنت وحدة مستقلّة، آخذة وضعيّة «التنزه»، حيث تصطفّ النمال على شكل رتل ثنائي.

سرعان ما يصادفن مجموعة مستكشفات أخريات. لا بدّ أنّها عاشت ظروفاً قاسية، إذ لم يتبقّ من فرقتهنّ الصغيرة نملة سليمة. الجميع مشوّه. منهن من لم تتبق لديها سوى رجل واحدة وتجرّ نفسها بطريقة يرثى لها. وليس بأحسن حال من جُرّدت من قرنيها أو بطنها.

لم ترَ الرقم 103683 جنديّات مصابات إلى هذا الحدّ منذ حرب

الخشخاش. لابدّ أنّها واجهت خصماً مرعباً... ربّما السلاح السرّي؟

تحـاول الرقـم 103683 إجراء محادثة مع محاربـة بدينة ذات فكّين طويلـين محطّمين. من أين أتوا؟ ما الذي حدث؟ هل المعركة كانت مع الأرضات؟

تتمهـل الأخـرى ودون أن تجيـب تلتفت إليها. رعـب، المحاجر فارغة! والجمجمة مشقوقة من الفم إلى مفصل الرقبة.

تراها تبتعد. مسـافة قصيرة، ثمّ تسـقط ولا تعود للنهوض. لكنّها تجد القوّة لتزحف خارج الدرب، كيلا تعيق جثّتها المرور.

تحـاول الأنثـى 56 الغوصـ رأسـياً على هيئـة مضـمومة لتفادي السـنونوة، لكن الطير أسـرع منها بعشرة أضـعاف. سرعان ما أرخى منقـاره الكبير ظلّـه على قرنيها. حـاذى المنقار بطنها، ثم صـدرها، رأسها. تجاوزها. ملامسـة الحلق لا تطاق. ثم أطبق المنقار من جديد. كلّ شيء انتهى.

تضحيـة: بمراقبتنـا للنملة، تبدو كأنهـا مندفعة فقط بطموحـات خارج وجودها الذاتي. رأس مقطوع سيحاول جعل نفسه مفيداً بعضّ أرجل الخصم، بقضّ بذرة، صدر سيجرّ نفسه ليسدّ فتحة بوجه العدو.

هل هذا إنكار للذات؟

أم تعصّب للمدينة؟

أو مجرّد بلاهة سبّبتها الحياة الاجتماعيّة؟

لا، بإمكان النّملة أن تعيش بمفردها. ليست بحاجة للقطيع، وبإمكانها أن تتمرّد عليه أيضاً.

لماذا تضحي بذاتها إذاً؟

حتّى المرحلة التي وصلت إليها أبحاثي، أرجّح القول: بسبب التواضع. فبالنسبة لها، لا يبدو موتها حدثاً يبلغ من الأهميّة ما يجعلها تنصرف عن العمل الذي بدأته في اللحظات التي سبقت موتها.

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

تستأنف المستكشفات طريقها، ملتفات حول الأشجار والمرتفعات والأدغال الشائكة، متوغلة باتّجاه الشرق الشرير.

عاد الطريق يضيق، لا تزال إلى الآن تشاهد فرق مكبّات النفايات. لا يمكن إهمال الطرق التي تصل المدن. المسؤولون عن أشغال الطرق ينزعون الطحالب، وينقلون العيدان التي تعرقل المرور، ويضعون إشارات شمّية تفرزها غدد ديفور.

بات الآن من النادر مصادفة عاملات يسرن في الاتّجاه المعاكس. يعثر أحياناً على فيرومونات للافتة طرقيّة واقعة على الأرض: «انعطفوا في التقاطع 29 عند شجيرات الزعرور!» من الممكن أن يكون آخر أثر لكمين حشرات عدوّة.

تتنقّل الرقم 103683 وهي ماضية في طريقها من مفاجأة إلى أخرى. لم تأت يوماً إلى هذه المنطقة. تعثر على بوليط شيطانيّ بارتفاع ثمانين رأساً! رغم أنّ هذا الصنف يشتهر في المناطق الغربية.

تتعرّف أيضاً على الفطر النتن الذي تجتذب رائحته الكريهة الذباب، وفطور النفّاث اللؤلؤيّة؛ تتسلّق حبّةً من فطر الشانتريل وتدوس بسعادة لحمها الطري.

تكتشف أنواعاً عديدة من النباتات الغريبة: القنّب البري الذي تجمع زهوره كمّيات كبيرة من الندى، وقباقب فينوس الجميلة والمقلقة، مخالب الهرّ بساقها الطويل...

تقترب من نبتة البلسم التي زهورها تشبه النحل، وتتحامق بلمسها، مباشرة تنفجر فاكهتها الناضجة بوجهها، فتغطي جسدها ببذور صفراء لاصقة! من حسن حظّها أنّها ليست الألترناريا...

لم تثبّط عزيمتها فأخذت تتسلّق نبتة الشقّار والتي هي حوذان مزيف لتتفحّص السماء عن قرب. ترى بضع نحلات هناك في الأعلى تكرّر الرقم ثمانية في الهواء مشيرة لأخواتها عن موضع الزهور المحمّلة بغبار الطلع.

يغدو المشهد الطبيعي بريّاً شيئاً فشيئاً. تطوف روائح مبهمة في الأرجاء. مئات من الكائنات الصغيرة التي يصعب تمييزها تهرب في كافّة الاتّجاهات. لا نلاحظها إلّا من طقطقة الأوراق الجافة.

تعود الرقم 103683 إلى الالتحاق بالفرقة، لا يزال رأسها مليئاً بالوخز. وهكذا وصلن بخطوات هادئة إلى أطراف مدينة زوبي

- زوبي - كان الفيدراليّة. تبدو من بعيد غيضة كسائر الغيضات. فلولا الرائحة والدرب المرسوم، لم يتحمّل أحد عناء البحث عن مدينة في تلك الأنحاء. في الواقع زوبي - زوبي - كان هي مدينة صهباء تقليديّة، تتألف من أرومة وقبّة من الغصينات ومكبّات. غير أنّ كلّ شيء مغطى بالشجيرات.

تقع مداخل المدينة في مرتفع، على مقربة من قمّة القبّة. نصل إليها بالمرور ضمن باقة من السراخس والورود البريّة. وهذا ما فعلته المستكشفات.

الحركة في الداخل تضجّ بالحياة. لا تتميّز دوابّ الأرْقة بسهولة، إذ أنّ لديها لون الأوراق ذاته. ومع ذلك بإمكان قرن وعين متيقّظين أن يلتقطا دون صعوبة آلاف الثآليل الخضراء اللواتي تتضخّم ببطء كلّما زادت من «رعي» النسغ.

جرى اتفاق منذ زمن طويل بين النّمل والأرْقة. الأرْقات تطعم النّمل مقابل حماية النّمل لها. في الحقيقة، تقصّ بعض المدن أجنحة «بقرات الحليب» وتمنحها روائح جواز مرورها. إنّ ذلك أيسر لرعاية القطعان...

تلجأ مدينة زوبي - زوبي - كان إلى هذا النوع من الحيل. وللتعويض، أو من باب الحداثة ربّما، أنشأت المدينة في الطبقة الثانية حظائر مترفة ومخدّمة بكل وسائل الراحة للأرْقة. وترعى النمال المربّيات داخل هذه الحظائر بيوض الأرْقة بذات الرعاية التي تحظى بها بيوض النّمل. وعلى الأغلب، هذا ما يفسّر الأهميّة الاستثنائيّة للقطعان المحلّية وهيئتها الجميلة.

تقترب الرقم 103683 ورفاقها من قطيع مشغول بامتصاص غصن شجرة ورد. يلقون سؤالين أو ثلاثة، لكنّ الأرْقات الغارزات خراطيمها باللحم النباتي لا تعيرهنّ أيّ انتباه. وإذا فكّرنا مليّاً، قد لا تعرف اللغة الشمّية للنمل... تبحث المستكشفات بقرونها عن الراعية. ولكن لا تلتقطها.

عندئذ يحدث أمر مقلق. إذ ترتمي ثلاثة دعاسيق بين القطيع. تلك الوحوش المخيفة تلقي الذعرَ بين قطعان الأرْقات المسكينات التي لا تسمح لها أجنحتها المقصوصة بالفرار.

لحسن الطالع، الذئاب تجعل الراعيتين تظهران. نملتان زوبيزوبيكانيتان تقفزان من وراء ورقة، حيث كانتا مختبئتين لمباغتة المفترسين الحمر المنقّطين بالأسود، تعاجلانهم بالتسديد وتصعقانهم بطلقات الحمض الصائبة.

ثمّ تسارعان إلى طمأنة قطعان الأرْقة التي لا تزال مذعورةً. تسحبها، ثمّ تضرب على بطونها، وتلامس قرونها بلطف. عندئذ تخرج الأرْقة فقاعة كبيرة من السكر الشفّاف. العُسيل الثمين. ترى الراعيتان الزوبيزوبيكانيتان، وهما تملآن نفسيهما من ذلك الرحيق، المستكشفات البيلوكانيات.

ترحّبان بهنّ. ويحصل تلامس قرني.

نحن أتينا من أجل اصطياد الحرذون، تبثّ إحداهنّ.

لهذه الغاية عليكم مواصلة السير قدماً نحو الشرق. حدّدنا موقع أحد تلك الوحوش في موقع غابي – تيولو.

وبدل أن تقترح عليهنّ الراعيتان التطاعم على جري العادة، تعرضان عليهن التغذّي من الحيوانات مباشرة. لم تحتاجا إلى تكرار الدعوة. اختارت كلّ واحدة أزْقة وبدأت تدغدغ لها بطنها لتحلب العُسيل اللذيذ.

ظلمة داخل البلعوم الزلق ورائحته نتنة. تنزلق الأنثى 56 الآن مبلّلة باللعاب داخل حنجرة مفترسها. لم يمضغها، بغياب الأسنان، لاتزال سليمة. وليس في واردها التسليم، فإذا اختفت ستختفي مدينة بأكملها.

تغرز فكّيها، بأقصى ما تستطيع، في لحم المري الناعم. ردّة فعلها هذه تمنحها النجاة. إذ تشعر السنونوة بالغثيان، تسعل دافعة إلى البعيد الطعام المهيّج. تحاول الأنثى 56 زائغة البصر أن تطير، ولكنّ أجنحتها اللزجة شديدة الثقل. فتسقط وسط نهر.

تتساقط حولها ذكور في النزع الأخير. تكتشف في الأعلى طيراناً عشوائيّاً لنحو عشرين أخت نجت من عبور طيور السنونو. منهكات، يأخذن بالانخفاض.

تهبط إحداهن على زهرة زنبقة ماء، فيلاحقها على الفور سمندلان اثنان، يلتقطانها ويمزّقانها. الملكات الأخريات خرجن أيضاً من لعبة الحياة واحدة تلو الأخرى، بسبب حمائم، ضفادع، خِلدَان، أفاع، خفافيش، قنافذ، دجاج وصيصان... الخلاصة، من ألف وخمسمائة أنثى طرن، بقيت ستّ فقط على قيد الحياة.

الرقم 56 إحداهنّ. النّملة المعجزة. ينبغي أن تعيش. عليها تأسيس مدينتها وحلّ لغز السلاح السرّي. تعرف أنّها ستحتاج مساعدة، وبإمكانها مستقبلاً الاعتماد على الشعب الصديق الذي يسكن بطنها. عليها فقط أن تخرجه منه...

ولكن، قبل أيّ شيء يجب أن تجد مخرجاً من هذه الورطة...

وهي تحسب زاوية أشعة الشمس، تحدّد المكان الذي حطّت عليه فوق مياه النهر الشرقيّ، منطقة لا ينصح بها، لأنّه وإنّ كان النّمل يعيش على كلّ جزر العالم، فلا أحد يعرف كيف وصلها وهو لا يجيد السباحة.

تمرّ ورقة ضمن متناولها، فتتشبّث بها بكلّ قوة فكّيها. تحرك أرجلها الخلفيّة بعصبيّة، غير أنّ نتائج هذه الطريقة بالدفع ضئيلة. بقيت على هذه الحال طويلاً تدفع نفسها على سطح التموّجات إلى أن ظهر ظلّ هائل. شرغوف؟ لا، إنّه أكبر بألف ضعف. تميز الأنثى 56 هيئة ناحلة وطويلة، ببشرة ملساء مرقّطة. إنّه مشهد يحصل للمرّة الأولى بالنسبة لها. سلمون مرقّط!

القشريات الصغيرة كسيكلوب وبرغوث الماء، تهرب أمام الوحش. الذي يغوص ثمّ يعود فيصعد نحو الملكة التي تتشبّث مذعورة بورقتها.

بكلّ قوّة الزعانف، يقفز السلمون ثاقباً سطح الماء. فيما موجة كبيرة تعنّف النّملة، السلمون كما لو أنّه معلّق في الهواء، يفتح فمه المسلّح بأسنان حادّة ويبتلع ذبابة كانت تحوم في المكان. ثمّ يلتوي بضربة ذنب ويسقط من جديد في عالمه البلّوري... مسبّباً تياراً كبيراً يغمر النّملة.

سرعان ما مدّت الضفادع أرجلها وغطست لكي تتنازع هذه الملكة وما فيها من كافيار. تنجح هذه الأخيرة بالصعود، لكن موجة تسحبها من جديد إلى الأعماق غير المرحّبة. تلاحقها الضفادع. تتجمد الملكة بفعل البرودة وتفقد وعيها.

كان نيكولا يشاهد التلفزيون في قاعة الطعام، مع رفيقيه الجديدين جان وفيليب. وحولهم يتامى أخرون بوجوه ورديّة تاركين أنفسهم تتهدهد بالصور المتواليّة دون انقطاع.

سيناريو الفيلم كان يتسلّل عبر عيونهم وأذانهم إلى ذواكر دماغهم بسرعة 500 كيلومتر/ساعة. يمكن للدماغ البشري أن يخزّن ستين مليار معلومة. ولكن حين تتخم تلك الذواكر، يحصل التنظيف تلقائيّاً، المعلومات التي تعدّ أقل أهميّة تنسى. فلا يبقى غير الذكريات الصادمة والتحسّر على أفراح ماضية.

بعد المسلسل مباشرة، قُدّم في ذلك اليوم حوارٌ عن الحشرات. معظم فتيان البشر توزّعوا، العلم على شكل ثرثرة لا يثير انتباههم.

«البروفسور لودوك، تعدّ حضرتك، مع البروفسور روزنفيلد، كأكبر اختصاصي أوربي في مجال النّمل. ما الذي دفعك إلى دراسته؟

– ذات يوم، وأنا أفتح خزانة مطبخي وإذ بي وجهاً لوجه أمام رتل من هذه الحشرات. بقيت لساعات أراقبها وهي تعمل. كان ذلك درساً في الحياة والتواضع. فحاولت أن أعرف أكثر عن الموضوع... هذا كل شيء.

(ضحك)

- ما الذي يميزك عن العالم البارز الآخر البروفسور روزنفيلد؟

- آه، البروفسور روزنفيلد! ألم يتقاعد بعد؟ (يضحك ثانية). لا، حقيقة نحن لا ننتمي إلى ذات المدرسة. تعلم، يوجد أكثر من وجهة نظر «لفهم» تلك الحشرات... كنّا في السابق نفكّر بأنّ كافّة الأصناف الاجتماعيّة (أَرَضَة، نحل، نمل) ملكيّة. كان من السهل التفكير هكذا، لكنّه خطأ. اكتشفنا عند النّمل أنّ سلطة الملكة لا تتعدّى التكاثر. حتّى أنّه يوجد عندهم عدة أنماط من الحكم: الملكيّة، الأقليّة، الحكومة الثلاثيّة بقيادة المحاربات، الديمقراطية، فوضى اللاحكم، الخ. حتى حين يتذمر المواطنون أحياناً من حكومتهم، يثورون ونشاهد «حروب أهليّة» داخل المدن.

- مدهش!

- بما يخصّني، ويخص المدرسة المسمّاة «ألمانيّة»، والتي أنتمي لها، نظام العالم النّملي مؤسّس بشكل أساسي على تدرّج الطبقات، وعلى هيمنة الأفراد «الألفا» الذين ذكاؤهم يفوق المتوسط، والذين يقودون مجموعات العاملات... أمّا بالنسبة لروزنفيلد، المنتمي للمدرسة التي تدعى «إيطاليّة»، النّمل بكافّة أنواعه فوضويّ في العمق، لا يوجد «الألفا»، أي الأفراد الأذكى من المتوسط. ولحلول مشاكل عملية فقط تظهر القادة أحياناً بشكل آني. غير أنّ أولئك مؤقتون.

- لم أفهم جيداً.

- دعنا نقول: إنّ المدرسة الإيطاليّة تعتقد أنّ أيّ نملة يمكن أن تكون قائدة، بمجرد كان لديها فكرة مبتكرة تثير اهتمام الأخرين.

بينما المدرسة الألمانيّة تعتقد أنّ الذي يتكفل بالمهام بين النّمل دوماً هو من يمتلك «مواصفات قائد».

– هل المدرستان على هذه الدرجة من الاختلاف؟

– سبق وحدث أثناء مؤتمرات دوليّة كبيرة، أن انتهى الأمر إلى عراك، إذا كان هذا ما ترمي إليه.

– أهو التنافس القديم ذاته، الحاصل بين الفكر السكسوني والفكر اللاتيني، أليس كذلك؟

– لا. هذه المعركة يمكن مقارنتها بالأحرى مع المعركة التي تضع مناصري «الفطرية» أمام أنصار «الاكتساب». هل يخلق المرء غبياً، أم يصبح كذلك؟ هذا أحد الأسئلة التي نبحث عن أجوبة لها أثناء دراسة مجتمعات النّمل!

– ولكن لماذا لا تجرى هذه الاختبارات على الأرانب أو الفئران؟

– يقدّم النّمل فرصة رائعة إذ يسمح لنا برؤية مجتمع يعمل، مجتمع مؤلّف من عدّة ملايين من الأفراد. كما لو أنّك تراقب عالماً بأكمله. وبحسب علمي لا توجد مدينة فيها عدّة ملايين من الأرانب أو الفئران...»

نكزه بكوعه.

– أتسمع نيكولا؟

ولكن نيكولا لم يكن يصغي. هذا الوجه، هاتان العينان الصفراوان

قد رآهما في السابق. أين؟ متى؟ بحث في ذاكرته. تماماً، بدأ يتذكّر. إنّه مجلّد الكتب. لقد ادعى أنّ اسمه غونيه، غير أنّ غونيه وهذا اللودوك المتكبّر على التلفزيون ليسا سوى شخص واحد.

اكتشاف نيكولا أغرقه في هاوية من التفكير. لقد كذب البروفسور إذاً من أجل الاستيلاء على الموسوعة. لا بدّ أن المحتوى على غاية من الأهمية فيما يخصّ دراسة النّمل. لا بدّ أنّها هناك في الأسفل. بالتأكيد هي في القبو. وهذا ما يتسابق الجميع عليه: أبي، أمي، وهذا اللودوك. ينبغي الذهاب والعثور على تلك الموسوعة اللعينة، وعندئذ سنفهم كلّ شيء.

نهض.

– أين ذاهب؟

لم يجب.

– طننتك تهتم لأمر النّمل؟

مشى إلى الباب، ثم ركض إلى غرفته. لن يحتاج الكثير من الأغراض. فقط سترته الجلديّة التي تجلب له الحظ، سكينه وحذاءه ذا نعل الكريب الضخم.

لم ينتبه له المشرفون حين تجاوز البهو الكبير.

هرب من مأوى الأيتام.

لا نميز من غايي – تيولو إلّا فوّهة مدوّرة. أشبه بتلّة خلد. إنّه «موقع متقدّم» عشّ نمل صغير، تقطنه نحو مائة نملة. لا يُشغَل إلّا من نيسان وحتّى تشرين الأول ويبقى خالياً طوال الخريف والشتاء.

في هذا المكان، كما عند النّمل البدائي لا توجد ملكة، ولا عاملات، ولا جنديّات. الجميع يعمل كلّ شيء في ذات الوقت. ممّا يدفعها إلى انتقاد فورة المدن العملاقة. حيث تسخر من ازدحام السير، من انهيار الممرّات، والأنفاق السرّية التي تحوّل المدينة إلى تفاحة مدوّدة، من العاملات المفرطة الاختصاص اللواتي لم تعد تجيد الصيد، من البوّابات العمياوات المحاطة إلى الأبد داخل قنواتها الضيّقة.

تتفحّص الرقم 103683 الموقع. تتألف غايي – تيولو من عليّة للمؤونة وقاعة أساسيّة شاسعة. هذه الغرفة منفتحة بفوّهة سقفيّة يتسلّل عبرها شعاعا شمس يضيئان عشرات غنائم الصيد، أغشية فارغة معلّقة على الجدران. تصدر صفيراً بفعل تيارات الهواء.

تقترب الرقم 103683 من تلك الجثث المتعدّدة الألوان. أخذت نملة محلّية تداعب قرونها. وتشرح لها عن هذه الكائنات الرائعة المقتولة بشتّى الحيل النّمليّة. تلك الحيوانات مطليّة بحمض النّمليك، المادة التي تحافظ على الجثث أيضاً.

تصطفّ هناك، بعناية، مجموعة من الفراشات والحشرات بأحجام، وأشكال وألوان شديدة التنوّع. ولكن ينقص هذه المجموعة مع ذلك حيوان معروف جدّاً: ملكة أرَضَة.

سألت الرقم 103683 إذا كانوا يعانون من مشاكل مع جيرانهم

الأرضـات. رفعت المحلّيـة قرونها تعبيراً عـن مفاجأتها. تتوقف عن التمتمة ويخيّم صمت شمّي ثقيل.

أرضات؟

تنـزل قرونها. لم يبق لديهـا ما تبثّه. ولايزال أمامهـا على أيّة حال عمـل تنجزه، تقطيع اللحم. أضـاعت ما يكفي مـن الوقت. وداعاً. تسارع بالاستدارة متهيئة للانسحاب. تصرّ 103683.

تبدو المحلّية الآن مرتبكة بالكامل، مع رعشة طفيفة بقرنيها. على ما يبدو كلمة أرَضَـة تعني شيئاً مرعباً بالنسبة لها. يبدو أن الخوض في هذا الحديث يفوق طاقتها. تولّي هاربة صـوب مجموعة من العاملات يجتمعن في مجلس شراب.

بعـد أن ملأت أولئـك المجتمعات معدهـا الاجتماعيّة من خمرة عسـل الزهور، يتذوقّن علـى نحو متبادل محتـوى بطونهن، متخذين هيئة سلسلة طويلة مغلقة على ذاتها.

تدخل خمس صـيّادات مكلّفات بالموقـع المتقدّم، محدثات جلبة، يدفعن أمامهنّ يسروعاً.

عثرنا على هذا. والمدهش أنّه ينتج عسلاً!

التـي بثّت هذا الخبر تضرب على الأسـير بطرف قرنيها. ثمّ تضـع ورقـة وما إن بـدأ اليسروع بـالأكل حتى قفزت علـى ظهره. يجمح اليسـروع ولكن دون طائـل. تغرز النّملة مخالبهـا، على جنبيه، تحكم قبضتها، وتستدير لاعقة طرفه الأخير حتّى يسيل منه الرحيق.

يهنّئها الجميع. ويتبادلون من فكّ إلى فك، هذا الغُسيل الذي كان مجهولاً إلى الساعة. طعمه مختلف عن غُسيل الأرْقة. إنّه أكثر لزوجة، ونكهة النسغ بارزة فيه. وبينما تتذوّق الرقم 103683 هذا الرحيق الغريب، يلامس قرن جمجمتها.

يقال أنّك تبحثين عن معلومات عن الأرضات.

تبدو النّملة التي أرسلت هذا الفيرومون للتوّ منفعلة جدّاً. قوقعتها مخدّشة بفعل الفكوك، تعيد الرقم 103683 قرونها إلى الوراء إيماءة موافقة.

اتبعيني!

تدعى المحاربة 4000. رأسها مسطّح مثل ورقة. عيناها صغيرتان جداً. وحين تبثّ، تلاحظ نسبة خمر قليلة في روائحها المتهدّجة. ربّما من أجل ذلك أصرّت على التكلّم في تجويف صغير جداً ومغلق تقريباً.

لا تخافي، هنا يمكننا التكلّم، هذا الثقب هو حجرتي.

تسألها الرقم 103683 ما الذي تعرفه عن عشّ الأرَضَة الشرقيّ. توسّع الأخرى قرنيّها.

لماذا أنت مهتمّة بهذا الموضوع؟ ألست هنا من أجل اصطياد الحرذون؟ أليس كذلك؟

تقرّر الرقم 103683 مصارحة هذه العجوز عديمة الجنس. وتروي

لها عن السـلاح السرّي غير المفهوم الذي استخدم ضد جنديّات لا - شـولا - كان. اعتقد الجميع في البداية أنّه من فعل القزمات، ولكن لم يكنّ هنّ. فتوجهت شكوكنا تلقائياً صوب الأرضات الشرقيّة، عدونا الثاني الكبير...

طـوت العجوز قرنيهـا علامة مفاجأة. فلم تسـمع يومـاً عن هذا الأمر. تفحّصت 103683 وسألتها:

السلاح السرّي هو الذي نزع رجلك الخامسة.

الجنديّة الشابة تنفي. فقد خسرتها في معركة الخشخاش أثناء تحرير لا - شولا - كان. ابتهجت الرقم 4000 فهي أيضاً قد كانت هناك!

بأيّ فيلق؟

الخامس عشر، وأنت؟

الثالث!

أثنـاء الهجوم الأخير كانت إحداهن تحـارب في الميسرة والأخرى ضـمن الميمنـة. أخذتـا تتبـادلان بعض الذكريـات. ثمّـة كثير من الدروس تؤخذ مـن ميـدان المعركة. مثـلاً، لاحظـت الرقم 4000 اسـتخدام رسـولات الذبـاب المرتزقة عند بدايـة المعـارك. برأيها أن أسـلوب التواصل هذا للمسـافات الطويلة يتفوق بكثير على أسلوب «العدّاءات» التقليدي.

الجندية البيلوكانية التي لم تلاحظ شـيئاً، توافقها برحابة صدر. ثمّ تعود بسرعة إلى موضوعها.

لماذا يتجنب الجميع محادثتي عن الأرضات؟

المحاربة العجوز تقترب. يتلامس رأساهما.

هنا أيضاً تحدث أشياء شديدة الغرابة...

روائحها توحي بشـيء مبهم. **شديدة الغرابة، شديدة الغرابة... يتردّد** صدى الجملة الشمّية على الجدران.

ثـمّ تشـرح الرقم 4000 لهـا بأنّه منذ وقـت طويل لم تشـاهد أيّة أرَضَـة من المدينة الشرّقية. كانوا في السـابق يعـبرون النهر من منطقة ساتيي لإرسال جاسوسات إلى الغرب، كنّا نعلم بذلك ونحاول ضبط حركتهم قـدر الإمكان. لكن الآن لم يعد يوجد جاسوسـات. لم يعد يوجد شيء.

هجـوم العدو أمر يدعو للقلق، أمّا اختفاؤه فهو أكثر مدعاة للقلق. بغياب أدنى مناوشـة مع مستطلعات الأرَضَـة، قرر نمل موقع غابي – تيولو التجسّس بدورهم.

أوّل فرقة من المستكشـفات ذهبت إلى هناك لم يأت أيّ خبر عنها. المجموعـة الثانية التـي تبعتها، اختفت بالطريقة ذاتهـا. عندئذ فكّرنا بالحرذون أو بالقنفذ شديد النهم. ولكن لا، حين يهجم أحد المفترسين يبقى ناج واحد على الأقل حتى ولو مصاباً. أمّا بحالة هذه الجنديّات، فهي تبدو كما لو أنّها قد تبخّرت بلمسة سحريّة.

هذا يذكرني بشيء...، بدأتِ الرقم 103683 بالقول.

لكنّ العجوز لم ترغب بمقاطعة روايتها. واستأنفت:

بعد فشل الرحلتين الاستكشافيتين الأوليتين، وضعت محاربات غابي - تيولو جميع إمكانيّاتهم. فأرسلت فيلقاً صغيراً يضمّ خمسمائة جندية مدجّجة بالسلاح. في هذه المرّة عادت ناجية. تمكّنت من جرّ نفسها مسافة آلاف الرؤوس وماتت بتشنجات مرعبة لحظة وصولها العشّ.

فحصنا جثّتها، الخالية من أدنى جرح. وقرنيها اللذين لا يحملان أثراً لأيّ قتال. وكأنّ الموت سقط عليها دونما سبب.

أفهمت الآن لماذا لا يريد أحد أن يكلمك عن عشّ الأرَضَة الشرقي؟

فهمت الرقم 103683. وحتّى إنّها شعرت بالرضا، موقنة أنّها أمسكت طرف الخيط. فإذا كان للغز السلاح السرّي حلّ فمن المؤكد أنّه يمرّ عبر عشّ الأرَضَة الشرقيّ.

هولوغرافيّة (الصور التجسيميّة): النقطة المشتركة بين الدماغ الإنساني وعشّ النّمل يمكن أن يرمز لها بالصورة الهولوغرافيّة.

ما هي الهولوغرافية؟ تتراكب أشرطة مسجّلة بعد جمعها وإضاءتها من زاوية محدّدة ممّا يؤدي إلى حدوث انطباع بصورة نافرة.

في الواقع، هذه الصورة موجودة في كل مكان وغير موجودة في الوقت عينه. فمن تجميع الأشرطة المسجلة تولّد شيء جديد، البعد الثالث: وهم النفور. كل نورون

(خليّة عصبية) في دماغنا، كل فرد من عشّ النمل يمتلك المعلومة بأكملها. ولكن المجتمع ضروري لانبثاق الوعي، «الفكر بهيئته النافرة».

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

عندما استردّت الأنثى 56، والتي أصبحت ملكة منذ قليل، وعيها، وجدت نفسها مرميّة على شاطئ واسع من الحصى. على الأرجح أنّها لم تنج من الضفادع إلّا بفضل تيار سريع. ترغب أن تقلع ولكنّ أجنحتها لا تزال مبتلّة. إنّها مجبرة على الانتظار...

تنظف قرنيها بعناية، ثمّ تتنفس الهواء في محيطها. أين هي إذاً؟ عسى ألا تكون قد وقعت في الجهة الخاطئة من النهر!

تحرّك قرنيها بسرعة 8000 ذبذبة /ثانية. تجد هناك بقايا لروائح كريهة تعرفها. حظ جيّد، إنّها على الضفة الغربية من النهر. ولكن لا يوجد أيّ فيرومون لإشارة طرقيّة. يجب عليها الاقتراب أكثر من المدينة المركزيّة لتتمكن من ضمّ مدينتها المستقبليّة إلى الفيدراليّة.

تطير أخيراً. صوب الغرب. ليس بوسعها الآن اجتياز مسافة طويلة. فعضلات أجنحتها متعبة، لذا تطير بمحاذاة الأرض.

يعودان إلى القاعة الأساسيّة لغابي - تيولو. منذ أن أرادت 103683

أن تحقّق عن الأرضـات الشرقيّة، والأخـرون يتجنّبونها كما لو كانت مصابة بالألترناريا. لا تأبه، فما يشغلها هو قضيتها.

يتبادل حولها البيلوكانيات التطاعم مـع الغاييتيولوتيات، يذيقونه المحصـول الجديـد من فطـر الغاريقـون، وأولئـك بالمقابـل يذيقون البيلوكانيات عُسيلات مستخرجة من أساريع برّية.

وثمّ، بعد أن تبادلن الروائح الأكثر تنوّعاً، وصـل الحديث إلى صيد الحـرذون. روت الغاييتيولوتيـات أنّـه وجد في الآونـة الأخيرة ثلاثة حراذيـن كانت ترعـب قطعان الأرْقة من زوبـي - زوبي - كان وقد دمّرت قطيعين من ألف رأس وجميع الراعيات اللواتي كنّ برفقتها...

وقـد حصـلت حالة مـن الذعر. لم تعـد الراعيات تترك ماشـيتها تسـير إلّا في الطرق المحميّة المحفورة في لحم الأغصان. ولكن بفضل المدفعيّة الحمضـية، تمكنّ من صد هذه التنانين الثلاثة. اثنان منهم ذهبا بعيـداً. أمّا الثالث فقد جـرح وبقي متمركزاً على حجر يبعد مسـافة خمسـين ألف رأس من هنا. كانت فيالق الزوبيزوبيكانيات قد قصّت له ذيله. كان يجب بسرعة استغلال ذلك والقضاء على الحيوان قبل أن يستعيد قواه.

هـل حقّـاً ذيـول السحالي تعـود وتنمو؟ سـألت مستكشـفة. أجابوها بالتأكيد.

ولكن ليس الذيل ذاته هو الذي ينمو. وكما تقول الأم: ما خسره المرء يوماً لا يمكن استعادته تماماً. فالذيل الثاني بلا فقرات، وأكثر رخاوة بكثير.

إحدى الغاييتيولوتيات قدّمت معلومات إضــافيّة. تكون الحراذين حسّاســة لتقلّبات الطقس، حتّى إنّها تفوق النّمل بذلك. وإذا اختزنوا كثيراً من الطاقة الشمســيّة، فإن سرعة اســتجابتهم تكون مدهشة. أمّا إذا بردوا فإنّ حركاتهم تصــبح غاية في البطء. ومن أجل هجوم الغد، يجب البنــاء على هذه القاعدة. إذاً ســيكون الهجوم الأمثل على هذا الضبّ عند بزوغ الفجر. سيكون الليل قد برّده، ووضعه في حالة من السبات.

ولكن نحن أيضاً سنكون مبرّدين! لاحظت إحدى البيلوكانيات محقّة.

ليس في حال استخدامنــا لأساليب القزمات في مقاومة البرد، أجابت إحدى الصائــدات. ينبغي أن نتخم أنفسنا بالسكّــر والكحول من أجل الطاقة وأن نطلي دروعنا بلعاب الحلزون لمنع تسرّب السعرات الحراريّة من أجسادنا.

تســتقبل الرقم 103683 هذا الكلام بقرن ســاهم. هي، مشغولة بلغــز عشّ الأرَضَــة، والاختفاء المتكــرّر الغامض الــذي أخبرتها عنه المحاربة العجوز.

عادت إليها الغاييتيولوتينية الأولى، تلك التي أرتها الغنائم ورفضت أن تأتي أمامها على ذكر الأرضات.

تحدثت مع الرقم 4000؟

أومأت الرقم 103683 بالإيجاب.

لا تكترثــي لمــا قالته لك. كما لو أنّك تكلّمت مع جثــة. فقد لسعتها منذ بضعة أيّام نمسيّة...

نمسـيّة! ارتعدت الرقم 103683. النمسـيّة هي زنبور مزوّد بقُليم طويل، يثقب به في الليل عشـوش النّمل إلى أن يصادف جسماً دافئاً. يثقبه ويضع بيوضه في داخله.

إنّـه أحد أسـوأ كوابيسـ يرقات النّمـل، محقَنة تظهر من السـقف وتتحسّـس باحثة عن لحم طري لتصبّ فيه صـغارها. والذين ينمون لاحقاً بهدوء في الجسـد المضـيف، قبل أن يتحوّلـوا إلى يرقات نهمة تقضم الحيوان الحي من الداخل.

وكما هو متوقّع: حلمت الرقم 103683 تلك الليلة بمجسّ مرعب يلاحقها ليحقنها بأطفاله الشرسين!

لم يطرأ تغيّر على رمز المدخل. كان نيكولا ما يزال يحتفظ بمفاتيحه، والأمر لا يتطلب إلّا أن يكسر ختم الشرطة ليدخل الشـقّة. منذ اختفاء رجال الإطفاء لم يلمس شيء بداخلها. حتّى إنّ باب القبو ظلّ مفتوحاً على وسعه.

في غياب مصـباح الجيب، شرع دون صعوبة بصنع مشعل. تمكّن مـن كسر قائمة طاولـة، وتوّجها بكميّـة من الورق المجعّد وأشـعله. اشـتعل الخشب بسهولة، شعلة صـغيرة ومتجانسة مجهزة لتستمرّ وقتاً طويلاً وتقاوم هبّات الهواء. اندفع مباشرة إلى السـلّم الحلزوني، يحمل المشعل في يد وفي اليد الأخرى سكينه. عازماً، صارّاً أسنانه، متقمّصاً دور البطل.

نـزل، نـزل... النزول والـدوران لا ينتهي. بدا له أنّ سـاعات قد

مرت عليه، كان يشعر بالجوع، بالبرد، لكنّ تصميمه على النجاح كان أقوى.

زاد سرعته، وبتأثر مفرط، بدأ يصرخ تحت سقف غير متقن الصنع، بنداءات متناوبة مرّة لأبويه وأخرى بتردّدات صرخات الحرب. كان لدى خطوته الآن ثقة مدهشة، طائراً من درجة إلى درجة دون أدنى سيطرة واعية.

فجأة أصبح أمام باب. دفعه. قبيلتان من الجرذان كانتا تتصارعان، هربتا أمام ظهور هذا الطفل الصارخ والمحاط بشواظّ النار.

الجرذان الأكبر سنّاً كانت مغمومةً؛ فقد ازدادت منذ بعض الوقت زيارات «الكبار». ماذا يعني ذلك؟ وعسى ألا يحرق هذا الوافد الجديد أماكن الإناث الحوامل!

تابع نيكولا نزوله، من شدّة اندفاعه لم ير الجرذان... لا تزال ثمّة درجات، لا تزال كتابات غريبة، لن يقرأها هذه المرّة. فجأة صوت (فلاب، فلاب) وشعر بلمسة. خفاش متشبث بشعره. رعب. حاول التخلّص منه ولكن الحيوان بدا ملتحماً برأسه. أراد أن يردّه بمشعله لكنّه لم ينجح إلا بحرق ثلاث خصال من شعره. صرخ واستأنف ركضه. بقي الخفاش على رأسه مثل القبّعة. لم يتركه إلّا بعد أن أخذ منه بعض الدم.

لم يعد نيكولا يشعر بالتعب. صوت لهاثه يضجّ، قلبه وصدغاه تدّق بقوّة، اصطدم بغتة بجدار، وقع، ونهض على الفور، مشعله على ما يرام. مرّر شعلته أمامه.

كان جداراً بالفعل. فضلاً عن ذلك: تعرّف نيكولا على الألواح الخرسانية والفولاذيّة التي أنزلها أبوه. كانت لا تزال المفاصل الإسمنتيّة طريّة.

- أبي، أمي، أجيبا إذا كنتما هنا!

ولكن لا، لا شيء، لا شيء سوى الصدى المغيظ. لا بدّ أنّه يقترب من الهدف. ذلك الجدار، كان متأكداً بأنّه يدور حول نفسه... بما أنّ ذلك يحصل في الأفلام وبما أنّه لا وجود لباب.

ما الذي يخبئه هذا الجدار؟ أخيراً وجد نيكولا هذه الكتابة:

كيف يمكن تصميم أربعة مثلّثات متساوية الأضلاع من ستّة أعواد ثقاب؟

وفي الأسفل تماماً لوحة أزرار صغيرة. لم يكن عليها أرقام وإنّما حروف. أربعة وعشرون حرفاً تسمح بتشكيل كلمة أو جملة تجيب عن السؤال.

يجب التفكير بطريقة مختلفة، قال بصوت عال. الأمر الذي أدهشه، إذ أن الجملة أتته من تلقاء ذاتها. بحث مطوّلاً، دون أن يجرؤ على لمس اللوحة. ثمّ خيّم صمت غريب داخله، صمت مطبق أفرغه من كل تفكير. ولكن دلّه، بطريقة يصعب شرحها، إلى ضغط ثلاثة أحرف متتالية.

سمع طقطقة ميكانيكية ناعمة و... ارتفع الجدار منقلباً! ببهجة، وعزيمة، تقدّم نيكولا. ولكن بعد قليل، نزل الجدار وعاد إلى مكانه، محدثاً تياراً هوائياً أطفأ بقيّة الشعلة.

غارقاً في ظلمة مطبقة، حائر الفكر، عاد نيكولا على عقبه. ولكن هذه الجهة من الجدار، لم يكن ثمّة فيها أزرار مرمّزة. لا عودة ممكنة إلى الوراء. كسّر أظافره على ألواح الخرسانة. كان أبوه قد قام بعمل جيد، لم تكن خبرته كصانع أقفال هباء.

نظافـة: هل يوجد ما هو أنظف من الذبابة؟ تغتسل على الدوام، الأمر بالنسبة لها ليس واجباً بل حاجة. إذا لم يكن كلا قرنيها وأوجه عيونها على أتمّ نظافة ممكنة، لن تتمكّن من تعيين الغذاء البعيد. ولن تتمكن من رؤية اليد التي تهوي عليها لتسحقها.

النظافة عنصر بقاء أساسي عند الحشرات.

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

في اليوم التالي، كان العنوان الذي احتلّ الصفحة الأولى من الجرائد الشعبيّة:

«ضحية جديدة في قبو فونتينبلو الملعون! مختف جديد: الابن الوحيد لعائلة ويلز. ما الذي تفعله الشرطة؟»

ألقى العنكبوت نظرة من أعلى سرخسه. إنّه مرتفع جداً. قطرة حرير سائل ندّت عن فمه، ألصقها على الورقة. وتقدّم نحو نهاية

الغصـن ثمّ رمى نفسـه في الفراغ. يسـتمرّ هبوطه وقتـاً طويلاً. امتدّ الخيط، امتدّ ثمّ جفّ، تمتّن والتقطه بالضبط قبل أن يلمس الأرض. كاد يسحق مثل ثمرة عنبية ناضـجة. كثيرون من أخواته كسرت هياكلهم بسبب هبّة برد مفاجئة أخّرت تمتين الحرير.

حـرّك العنكبوت أرجلـه الثمانية ليتأرجح، ثمّ مدّهـا ليتمكّن من التشـبّث بورقة. والتي سـتكون نقطة رسـوّه الثانيّة في نسج شبكته. يلصـق عليها نهاية خيطـه. ولكن بحبل واحد مشـدود لا يمكن فعل شـيء. يُحدّد سـاقاً على اليسـار، ويركض ليصله. بضـعة أغصن بعد وبضـع قفـزات وسينقضـي الأمر، يكون قـد أنجز خيوطـه الداعمة. والمنـوط بها تحمّل الريح وثقـل الفرائس. تتّخذ الهيئة النهائيّة شـكل مثمّن.

حريـر العنكبـوت مكوّن من بروتـين ليفي، وهـو الفيبروين التي ميزاتـه من حيث المتانـة والكتامة لا تحتاج إلى برهان. تسـتطيع بعض العناكـب حـين تتغذّى جيّداً، إنتاج سـبعمائة متر مـن الحرير بقطر 2 ميكروناً، وبمتانة تسـاوي النايلون تقريباً وتزيد عنه بثلاثة أضعاف من حيث مرونته.

وممّـا يفوق التصـوّر، أنّ لديه سـبع غـدد تنتج كلّ واحـدة خيطاً مختلفاً من الحرير: خيط داعم للشـبكة؛ وآخر للوصلات؛ واحد لمركز الشـبكة؛ وواحد مطلي بالصـمغ للالتقاطات السريعة؛ خيط من أجل حماية البيض، وخيط ليقيم مأوى لنفسه، وآخر لتكبيل الفرائس...

في الحقيقـة الحرير هـو الامتداد الليفـي للهرمونـات العنكبوتيّة، كما هي الفيرومونات امتدادات طائـرة للهرمونات النّمليّة. ولمّا ينتج

العنكبوت خيط الوصلة يتعلّق به، وعند أيّ تحذير يلقي بنفسه هارباً من الخطر دون بذل جهد لا طائل منه، كم من مرّة أنقذ نفسه بهذه الطريقة؟

ثمّ يشبك أربعة خيوط في مركز مثمّنه. هي الحركات عينها منذ مائة مليون سنة... بدأ يتوضّح الشكل. لقد قرّر اليوم أن تكون شبكته من الحرير الجاف. صحيح أنّ الحرائر المطليّة بالصمغ أكثر فعاليّة لكنّها أيضاً أكثر هشاشة. إذ أنّ كل أنواع الغبار، وكل سيقان الأوراق الميتة ستعلق بها. الحرير الجافّ أضعف على الالتقاط، ولكنّه على الأقلّ سيبقى متماسكاً حتّى حلول الليل.

بعد أن وضع العنكبوت الدعامات الرئيسية، صفّ عليها نحو عشرة خطوط إضافيّة. وينهي عمله بالقسم الحلزوني المركزي، ذلك هو الجزء الممتع من العمل، إذ ينطلق من الغصن الذي علّق عليه خيطه الجاف قافزاً من خطّ إلى خط مقترباً ببطء من المركز محتذياً حركة دوران الأرض.

يفعل ذلك بأسلوبه. لا توجد في العالم كله شبكتا عنكبوت متماثلتان. الأمر أشبه ببصمات أصابع البشر. ينبغي عليه شدّ الغُرزات إلى بعضها. يصل المركز، ويلقي نظرة عامّة على سقالته الحريريّة ليقدّر متانتها. وفيما بعد يسير على كلّ خطّ على حده ويهزّه بأرجله الثمانيّة. إنّه متين.

أغلب الشبكات التي تنشرها عناكب المنطقة تنتمي للنموذج 75/ 12. خمس وسبعون دورة لولبيّة لإكساء الجدران على اثني عشر خطّاً. أمّا هو، فيفضّل 95/ 10، دانتيلا ناعمة.

قد يظهر هذا النسيج للعيان إلّا أنّه أمتن. وبما أنّه يستخدم حريراً جافاً، ليس من الحكمة الاقتصاد بكميّة الخيوط. وإلّا لن تمرّ الحشرات إلّا كزوّار...

غير أنّ هذا العمل الذي يتطلّب جهداً طويلاً استنفد كامل طاقته، وصار يجب أن يأكل بأسرع ما يمكن. إنّه يدور في حلقة مفرغة. يتضوّر جوعاً بسبب بناء الشبكة، ولكن دون هذه الشبكة لن يتمكّن من توفير طعامه.

أربع وعشرون مخلباً متربّصاً على الدعامة الأساسيّة. ينتظر، متخفّياً تحت ورقة. يستطيع، دون اللجوء إلى إحدى عيونه الثمانيّة، أن يشعر بالفضاء ويلتقط بأرجله أدق تموّجات الهواء المحيط بفضل الشبكة التي تتفاعل بحساسيّة غشاء ميكروفون.

هذه الذبذبة الدقيقة، تخصّ نحلة تحوم على هيئة الرقم 8 على مسافة مائتي رأس من هنا لتدلّ عاملات قفيرها إلى حقل زهور.

لا بدّ أنّ ذلك الارتعاش الخفيف يصدر عن يعسوب. اليعسوب لذيذ الطعم. لكنّه لا يطير بالاتّجاه الصحيح ليكون طعامه.

تلامس كبير. أحد قفز إلى شبكته. إنّه عنكبوت يريد الاستيلاء على عمل غيره. لص! يطرده مسرعاً قبل ظهور إحدى الفرائس.

وبالفعل، ها هو يحسّ برجله اليسرى الخلفيّة وصول ما يشبه ذبابة قادمة من جهة الشرق. لا يبدو أنّها تطير بسرعة كبيرة، إذا لم تغيّر اتّجاهها فستقع حتماً في مصيدته.

تبلاف! لمسة.

إنّها نملة مجنّحة...

العنكبوت - الذي ليس له اسم، لأنّه من الكائنات التي تعيش وحيدة ولا تحتاج إلى التعرّف على أبناء جلدتها - ينتظر بهدوء. حين كان فتياً كان يأخذه الحماس الذي أفقده الكثير من الفرائس. كان يظنّ بأنّه مجرّد أن تعلق الحشرة في شبكته قضي عليها. إلّا أنّ خمسين بالمئة فقط تؤخذ أثناء التلامس. الوقت هو العامل الحاسم.

ينبغي الصبر، فالطريدة المذعورة هي التي تورّط نفسها بنفسها. هذا هو السلوك الأرقى للفلسفة العنكبوتيّة: **لا يوجد أسلوب قتال أفضل من انتظار عدوّك أن يدمّر نفسه بنفسه...**

بعد دقائق قليلة، اقترب ليتفحّص فريسته من كثب. إنّها ملكة صهباء من الإمبراطورية الغربيّة التي تدعى بيلوكان.

سبق وأن سمع العنكبوت عن تلك الإمبراطورية المتطوّرة جداً. يقال بأنّ الملايين من سكّانها لفرط «اعتمادهم المتبادل» على بعضهم باتوا يعجزون عن تأمين طعامهم بمفردهم! ما الجدوى؟ وأين التقدّم في ذلك؟

إحدى ملكاتهم... يقبض الآن بين مخالبه على جزء بأكمله من مستقبل أولئك الغزاة الميؤوس منهم. لا يحبّ النّمل. سبق وأن رأى أمّه طريدة لحشد من النمال الحمراوات النسّاجات...

يحدّق في فريسته التي لم تتوقّف عن التخبّط. حشرات غبيّة، لن

يفهمـوا أبداً أنّ هلعهم أسـوأ أعدائهم. كلّما حاولـت النّملة المجنّحة الإفلات، كلّما تشـابكت بالحرير أكثر... مسبّبة - بالمناسبة - أضراراً بالشبكة أغاظت العنكبوت.

بعـد الهياج، استسـلمت الرقـم 56 إلى حالة مـن القنوط. لم يعد بوسـعها الحـراك تقريباً. جسـدها مقمّط بالحرير الناعـم، كل حركة كانت تزيد سـمك الخيوط حولها. غير مصدّقة وقوعها بهذه الطريقة الغبيّة بعد اجتيازها كلّ تلك المحن.

داخل شرنقة بيضاء ولدت، وداخل شرنقة بيضاء ستموت.

يدنـو العنكبوت أكثر، متفحّصـاً خيوطه المتضـرّرة. بهذه الطريقة يتسنّى للرقم 56 أن ترى من كثب هذا الحيوان الرائع ذا اللون البرتقالي والأسود، والمزوّد بثماني عيون خضراء موضوعة على شكل تاج فوق رأسه. سبق وأكلت من هذه الحيوانات. ليتبادلا الأدوار إذاً وليكن كلّ واحد بدوره وجبة طعام للآخر... وها هو الآخر يبصق الحرير عليها! مهما لففنـا الخيط يظلّ قليلاً، قال العنكبوت في سـرّه. ثمّ أظهر نابين مسـمومين مقلقين. ولكـن العناكب في الواقع لا تقتل فـوراً. بما أنّها تفضّـل اللحم الحيّ، فهي لا تقضي على فريسـتها مباشرة، يخدّرونها بسمّهم ولا يوقظونها إلّا حين يشرعون بالتلذّذ بها. هكذا، بإمكانهم الحصول على لحم طازج كما يشاؤون، محفوظ داخل غلاف حريريّ. تذوّق كهذا قد يستمرّ أسبوعاً بأكمله.

سبق للأنثى 56 أن سمعت بهذه العادة عند العناكب. ارتعشت. إنّه أسوأ من الموت، أن تبتر أعضاء المرء كافّة بشكل تدريجيّ... وعند كل اسـتيقاظ ينزع جزء منك ثمّ يعاود تنويمـك. أن تتناقص رويداً رويداً،

إلى أن تحين ساعة الاقتطاع الأخير، ذلك الذي يجرّدك من أعضائك الحيويّة ويمنحك النوم المُخلّص.

يفضّل أن ينهي المرء حياته بنفسه! شعرت أنّه يتوجب عليها إبطاء خفقات قلبها، هاربة من الأنياب والمشهد المرعب الذي بات وشيك الحدوث.

في تلك اللحظة بالذات، مندفعاً، اصطدم ذكر ذبابة مايو بالشبكة، لشدّة اندفاعه كبّلته الخيوط الحريريّة مباشرة، بإحكام... لقد ولد منذ دقائق قليلة، وسيموت بعد بضع ساعات بفعل الشيخوخة. عمر ذبابة مايو، عمر قصير. كان عليه التحرّك بسرعة دون إضاعة ولو ربع من الثانية. كيف كنتم ستملؤون حياتكم لو علمتم أنكم ولدتم في الصباح لكي تموتوا في المساء؟

أوّل ما تخرّج بعد سنتين من حياته اليرقيّة، مضى ذكر ذبابة مايو يبحث عن أنثى ليتناسل. يبحث عن الخلود من خلال سلالته، بحث بلا طائل. سيملأ يومه الوحيد في هذا البحث. لذا لا يفكّر بشيء لا بالطعام، ولا بالراحة، ولا بأيّة مطالب أخرى.

مفترسه الأوّل هو الوقت. كل ثانية بالنسبة له عدو. إلى جانب الوقت، لا يعدو العنكبوت المرعب أن يكون أكثر من عامل تأخير، وليس عدوّاً بما تعنيه الكلمة.

يشعر بالشيخوخة تدبّ سريعاً في جسده. بعد بضعة ساعات سيهرم. راحت عليه. ولد سدى. يا للهزيمة التي لا تطاق...

ذكر الذباب يتخبّط. المشكلة مع شباك العناكب، أنّنا إذا تحرّكنا تورّطنا أكثر وإذا لم نتحرّك لا يعني أنّنا سننجو...

يتّجه العنكبوت نحوه ويشدّ وثاقه ببضعة لفّات إضافيّة من الخيط. فريستان جميلتان سيمنحانه كل البروتينات الضروريّة لنسج شبكة جديدة اعتباراً من الغد. ولكن بينما كان يستعدّ ثانية لتنويم ضحيّته، يميّز ذبذبة مختلفة. ذبذبة... ذكيّة. تيب تيب تيبتيبتيب تيب تيب تيبتيب. إنّها أنثى! تتقدّم فوق الخيط، وتهزّه مرسلة إشارة:

أنا لك، لم آتي لأسرق طعامك.

هذه الطريقة اللعوب بالذبذبة، أشعرت الذكر بشهوانيّة لم يبلغها من قبل. تفب تيب تيبتيبتيب. لم يعد يطيق صبراً، يعدو باتّجاه حبيبته (فتيّة لا تزال في انسلاخها الرابع، أمّا هو فقد بلغ انسلاخه الثاني عشر) حجمها يزيد عن حجمه ثلاثة أضعاف، لكنّه يفضّل البدينات. يشير لها نحو الفريستين اللتين سيتحصّلان منهما لاحقاً على قوى جديدة.

ثمّ اتخذا وضعيّة المجامعة. لا يخلو الأمر عند العناكب من التعقيد. فالذكر ليس له قضيب وإنّما نوع من عضو تناسلي يشبه أنبوباً مزدوجاً. يسعى متعجّلاً إلى بناء هدف، شبكة صغيرة يرشها بحيواناته المنويّة. مبلّلاً إحدى أرجله فيها، ثمّ يولجها في وعاء الأنثى. يكرّر ذلك عدّة مرات، مفرط التهيّج. غشيت الحسناء الصغيرة بالنشوة إلى الحدّ الذي أفقدها زمام السيطرة ودفعها للإمساك برأس الذكر وقضمه.

بعد الذي حدث، يبدو من الحماقة عدم التهامه بالكامل. حسناً، لقد فرغت من ذلك، إلّا أنّها لا تزال جائعة. تلقي بنفسها على ذكر

ذبابة مايو وتقصّر حياته أكثر ممّا هي قصيرة. تستدير ناحية النّملة الملكة، والتي حين رأت ساعة اللسعة تقترب، ذعرت وأخذت تتخبّط.

بالفعل الرقم 56 محظوظة، لأنّ ظهور شخصيّة جديدة واصلة للتوّ من خط الأفق محدثةً ضجيجاً يقلب جميع قواعد اللعبة. مرّة أخرى إحدى الدويّبات اللواتي قدمن من الجنوب ووصلن حديثاً إلى الشمال. أو على نحو أدقّ هو دابّة كبيرة جداً، خنفس وحيد القرن أو خنفس الكركدن يصطدم بالشبكة في وسطها، ويمطّ حريرها خلفه مثل صمغ... ويقطّعها. نموذج 95/ 10 متين لكن شريطة عدم المبالغة. النسيج الحريري الجميل يتمزّق إلى فتائل ومزق طائرة.

قفزت أنثى العنكبوت معلّقة بخيط التوصيل. متحرّرة من أغلالها البيضاء، تزحف النّملة الملكة على الأرض دون أن تلفت النظر، عاجزةً عن الطيران.

لكنّ أنثى العنكبوت مشغولة بشيء آخر. تتسلق غصناً لتنسج عليه حاضنة من الحرير ستبيض بداخلها. ولمّا عشرات من صغارها سيفقسون، أوّل ما سيسارعون لفعله هو التهام أمّهم. هكذا هو الأمر عند العناكب، لا تعرف كيف تقول شكراً.

- بيلشيم!

أبعد السمّاعة بسرعة، كما لو أنّها حشرة ستلدغه. إنّها رئيسته... سولانج دومانغ.

– ألو.

– أصدرت أوامر إلى حضرتك، وإلى الآن لم تحرّك ساكناً. ماذا تفعل؟ أتنتظر أن تختفي المدينة بأكملها داخل ذلك القبو؟ أعرفك جيداً بيلشيم، لا تفكر إلا بالاسترخاء! لا احتمل نساء متراخين! أفرض عليك إيجاد حل لهذه القضية في غضون ثمانية وأربعين ساعة!

– لكن سيّدتي...

– لا يوجد «لكن سيدتي»! وصلت تعليماتي إلى رجالك، وليس أمامك إلّا النزول برفقتهم في صباح الغد، كافّة المعدّات ستكون بانتظارك في الموقع. حرّك مؤخرتك قليلاً، تلحلح بحقّ الأبالسة!

يشعر بالتوتّر. أخذت يداه ترتجفان. لم يكن رجلاً حرّاً. لماذا عليه أن يذعن؟ ليتجنّب البطالة، لكيلا ينبذ من المجتمع. لا تتبدّى له صورة، الآن وفي هذا المكان، لشكل حريته إلّا هيئة المتشرّد، لم يكن مستعدّاً بعد للقيام بمثل هذه تجربة. حاجته للنظام وللحياة الاجتماعيّة دخلت في صراع مع أمنيته بأن لا يخضع لإرادة الآخرين. ولدت قرحة في حقل المعركة، أي في معدته. انتصر احترام النظام على نزوعه إلى الحريّة. لذا سيمتثل.

تكمن فرقة الصيّادات خلف صخرة تراقب الحرذون، الذي يبلغ طوله نحو ستين رأساً (ثمانية عشر سنتمتراً). درعه المتحجّر بلونه الأصفر المائل إلى الخضرة وبقعه السوداء، يثير الرعب والاشمئزاز.

تشعر الرقم 103683 بأنّ تلك البقع هي لطخات دم جميع ضحاياه. وكمـا هو متوقـع، كان الحيـوان في حالة خمول جرّاء البرد. يسـير، متباطئاً؛ كما لو أنّه متردّدٌ من إنزال رجله على الأرض.

حين أوشكت الشمس على البزوغ، أطلق فيرومون.

طاردوا الحيوان!

رأى الحرذون جيشـاً من أشـياء صـغيرة، سـوداء وعنيفة، تنقضّ عليه. ينتصـب متمهلاً، ينفتح خطمه الوردي عن لسان سريع يتراقص في داخله والذي يلسـع به النمال الأقـرب، يمرّغها بالدبق ويبلعها في بلعومه. ثم يتجشأ ويبتعد بسرعة البرق.

وقفت الصـيّادات مذهولات، بعد خسـارتها نحـو ثلاثين منها، مصابات بالوجوم. بالنسبة لشخص مخدّر ببرودة الجو، لا ينقص ذلك الحرذون حسن التدبير!

الرقـم 103683، والتي لا يمكن اتهامها بالجبن، هي من أوائل من قـال إنّ الهجـوم على هكذا حيـوان هو انتحار. هـذا المعقل لا يمكن اقتحامـه. وجلد الحـرذون هو درع لا ينفـع معه الفـكّ أو الحمض. وحجمـه وحيويّته، حتى في حرارة منخفضـة، يعطيه تفوّقاً تصـعب مضاهاته.

ومـع ذلك، لا تسـلّم النمال بسـهولة، مثل قطيع ذئاب صـغيرة، تنطلـق في إثـر الوحشـ. تعدو تحـت نباتـات السرخسـ وهي تبث فيرومونات مهدِّدة. بروائح الموت. هذا الشـيء لا يبث الرعب سوى

بقلب البزّاق، إلّا أنّه يساعد النمال بأن تشعر أنّهنّ مرعبات ولا يمكن النيل منهنّ. تجد الحرذون على مسافة أبعد ببضعة آلاف رأس، ملتصقاً على لحاء شجرة تنّوب، على الأرجح مشغولاً بهضم فطوره.

ينبغي التحرّك! كلّما طال الانتظار كلّما كسب طاقة إضافيّة! إذا كانت تلك سرعته في البرد فإنّ قوته ستصبح جبّارة حين يتخم بالسعرات الشمسيّة. يعقدون مجلس قرون تشاوري. يجب ارتجال هجوم. يتوصّلن إلى خطّة.

تلقي محاربات نفسها من أعلى غصن إلى رأس الحيوان. تحاول إعماءه بعضّ جفنيه وتبدأ بثقب خياشيمه. لكن هجوم سرّية الفدائيّات الأولى فشلت. طردهم عن وجهه بحركة من الرجل، وابتلع المتأخرات.

هرعت موجة مهاجمات جديدة على الفور. كانوا تقريباً في متناول لسانه، فقاموا باستدارة كبيرة وغريبة... قبل أن يصلوا فجأةً إلى جدعة الذيل. كما تقول الأم: **لكل عدوّ نقطة ضعف. أعثر عليها ولا تواجه سوى ذلك الضعف.**

تعاودُ فتح الجرح عبر حرقه بالحمض متغلغلة داخل الحرذون، محتلّة أحشائه. يقلب على ظهره، محرّكاً رجليه الخلفيتين كما لو أنّه يقود درّاجة، ويضرب على بطنه بقائمتيه الأماميتين. إحساس بألف قرحه ينهشه من الداخل.

حينئذ تتمكّن مجموعة أخرى من اختراق خياشيمه التي توسّعت وحفرت برشقات ملتهبة.

إلى الأعلى تماماً، ينفّذ هجوم على العيون. تفقأ تلك الكرتان الطريّتان، ولكنّ تجويفي العينين لم يفضيا إلى مكان؛ ثقب العصب البصريّ شديد الضيق لا يمكن عبوره وصولاً إلى الدماغ. لذا يعاودن الالتحاق بالفرق التي غاصت عميقاً في الخياشيم...

يلتوي الحرذون، ويحاول عن طريق إدخال رجل في الخطم أن يسحق النمال اللواتي يحفرن بلعومه. إلّا أنّ الأوان قد فات.

في زاوية إحدى الرئتين، عادت والتقت الرقم 4000 بزميلتها الشابّة الرقم 103683. كان الداخل مظلماً، وهنّ لا يرين شيئاً لأنّ عديمات الجنس ليس لهنّ عُيَيْنات ترى بالأشعة تحت الحمراء. تتلاقيان بأطراف قرنيهما.

هيّا، لنستغل انشغال أخواتنا ونذهب باتّجاه عشّ الأَرَضَة الشرقي. سيظنون أنّنا قتلنا في المعركة.

تعاودان الخروج من حيث دخلتا، من جدعة الذيل الذي ينزف الآن بكثافة.

غداً سوف يكون الحرذون مقطّعاً إلى آلاف القطع المعدّة للطعام. سوف يغلّف بعضها بالرمل وينقل إلى زوبي - زوبي - كان؛ وبعضها الآخر سيصل حتى بيل - أو - كان، ولمرة جديدة ستُنسج حكاية ملحميّة لوصف رحلة الصيد هذه. الحضارة النّمليّة بحاجة إلى أن تعزّز قوّتها، وهزيمة الحراذين تطمئنها على نحو خاص.

تهجين: سيكون من الخطأ التفكير بأن الأعشاش مغلقة بوجه الغرباء. لا بدّ أنّ كلّ حشرة تحمل العلم الشميّ لمدينتها، ولكنّ هذا الشيء مع ذلك ليس «رهاب الأجنبي» بالمفهوم المتداول عند البشر.

فإذا وضعنا، مثلاً، في حوض مليء بالتراب خليط من نحو مائة غلة من صنف فورميك روفا formica rufa مع نحو مائة غلة من صنف لازيوس نيجر lazius niger – وفي داخل كل صنف ملكة مخصّبة –، يلاحظ أنّه بعد بضع مناوشات دون قتلى ومناقشات قرنية طويلة، يبدأ الجنسان بتشييد عشّ النّمل سويّة.

وقد جعلوا بعض الممرّات ملائمة لحجم الصهباوات، وممرّات أخرى لحجم السوداوات، ولكن كلا الممرات تتقاطع وتتشابك إلى ما يجعل الأمر المثبت والذي لا يحتاج إلى برهان: هو أنّه لا يوجد صنف يهيمن على الآخر ويحاول أن يغلق عليه في حيّ خاص، في غيتو داخل المدينة.

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

الدرب المؤدي إلى أراضي الشرق لم ينظف بعد. الحروب مع الأرَضَة تعرقل أي عملية تعيد السلام إلى المنطقة.

المحاربتان 4000 و103683 تسيران على طريق دارت فوقه الكثير من المناوشات. فراشات سامّة ورائعة تحوم متعامدة مع قرونهما، ممّا أثار قلقهما.

إلى أبعد قليلاً، تشعر الرقم 103683 بشيء نشط يتحرّك تحت إحدى أرجلها اليمنى. ميّزتهم لاحقاً أنّهم قرادات، كائنات مفرطة

الصغر يحميها غطاء مؤلّف من إبر وقرون، وشعيرات وأنياب، يهاجرون على شكل قطعان بحثاً عن أعشاش وفيرة بالغبار. ضحكت الرقم 103683 أمام هذا المشهد. وتعجّبت لوجود كائنات بضآلة القرادات وأخرى بضخامة النّمل على سطح الكوكب ذاته!

فيما كانت تقف الرقم 4000 أمام إحدى الزهور، انتابتها فجأة آلام مبرّحة. لا بدّ أنّ بداخل جسدها العجوز، والذي شهد اليوم مصاعب شتّى، استيقظت أخيراً اليرقات النمسيّة الشابّة. على الأرجح يتناولن الآن وجبة طعامهنّ، عاكفات ببهجة على التهام الأعضاء الداخليّة للنملة المسكينة.

سارعت الرقم 103683 إلى إسعافها، باحثة في قاع معدتها الاجتماعيّة عن بضع جزيئات من عسيل الرواغة. عند نهاية القتال في أنفاق بيلوكان، كانت المحاربة قد قطفت من تلك الرواغة كميّة قليلة من العُسيل كعقار طبيّ مسكن. تعاملت معه بحذر و لم تتلوث بذلك السمّ اللذيذ.

هدأت أوجاع الرقم 4000 ما أن ابتلعت الرحيق. ومع ذلك طالبت بالمزيد. حاولت الرقم 103683 أن تعقّلها، إلا أنّ الرقم 4000 تصرّ، وتتأهب لخوض عراك من أجل إفراغ أحشاء صديقتها من المخدّر الثمين. وفيما تستعدّ للقفز عليها وضربها، تنزلق داخل فتحة رمليّة. داخل مصيدة أسد النّمل!

ذلك الأخير، أو على نحو أدق يرقته، لها رأس على هيئة رفش يسمح لها بحفر هذه الفتحات المشهورة. ثمّ يدفن نفسه داخلها منتظراً الزوّار.

تفهم الرقــم 4000، متأخرة، ما جرى لها. عند كل نملة من حيث المبــدأ الخفّة الكافيــة للخلاصِ من هــذه الورطة. غير أنّهــا، وقبل أن تبدأ حتّى بالصــعود، يظهر فكّان طويلان شــائكان من أسفل الفجوة ويرشّانها بالرمل.

أغيثوني!

حتّى أنّها نســيت الألم الذي سبّبه ضيوفها الثقال والنقص الحاصل من تعاطيها رحيق الرواغة. هي خائفة ولا تريد الموت بهذه الطريقة.

تتخبّــط بــكل ما أوتيت من قوّة. ولكن مصــيدة أســد النّمل، مثل شــبكة العنكبوت، معدّة على ذعر ضحاياها كي تؤدي عملها بفعّالية كبــيرة. كلّما كانــت الرقم 4000 تتخبط للخروج مــن الفجوة، كان المنحدر ينهار ويسحبها نحو الأسفل أكثر... حيث يواصل أسد النّمل رشّها بالرمل الناعم.

سرعان ما فهمت الرقم 103683 بأنّها إذا مدّت لها رجل المساعدة فإنّها ستجازف بالغوص هي أيضاً. تبتعد بحثاً عن عشبة طويلة ومتينة.

شــعرت النّملــة العجوز أنّ الوقــت طويل، أطلقت صرخة شــمّية وأخــذت تزيــد من عجلة أرجلها في الرمل الســائل تقريبــاً، ما عجّل بنزولها أكثر. لم يعد يفصــلها عن المقصّــات ســوى خمســة رؤوس. رؤيتهــم عن قرب مخيفة حقّــاً. كل فكّ مزوّد بمئات الأســنان الحادّة، والتي تفصــل بينها سنان طويلة معكوفة. أمّا نهاية الفكّ فتشكّل مخرزاً قادراً على ثقب أيّ درع نملي دون أدنى صعوبة.

أخـيراً عـادت الرقـم 103683 إلى الظهور على طـرف الحفرة، حيث مدّت لزميلتها ورقة من نبتة «اللؤلؤية الصـغرى». بسرعة! الرقم 4000 مدّت أرجلها لتتشـبّث بالسـاق. إلّا أنّ الأسد النّملي لا ينوي التنازل عن فريسته. فيرشّ النّملتين، منفعلاً، بالرمل. لم تعودا تريان أو تسـمعان شيئاً. يبدأ أسـد النّمل برمي الحصى التي أخذت تتقافز فوق الكيتين مصدرة أصـواتاً مخيفة. نصف مغمورة بالرمل، تواصل الرقم 4000 انزلاقها نحو الأسفل.

تتقوّس الرقم 103683 وهي تشـدّ بين فكيّها السـاق. تنتظر دون جدوى أن يهتزّ. وتمامـاً في اللحظة التي قرّرت فيها التخلي عن الأمر تنبثـق رجل من داخل الرمل... لقد نجـت! قفزت الرقم 4000 أخيراً خارج ثقب الموت.

في الأسفل ملاقط جشعة تطقطق من الغضب وخيبة الأمل. الأسد النّملي يحتاج إلى البروتينات ليتحوّل إلى بالغ. كم من الوقت سـينتظر قبل أن تسقط فريسة أخرى نحوه؟

تغتسلان الرقم 4000 والرقم 103683 ويقومان بعدّة تطاعمات. ولكن غُسَيل الروّاغة –هذه المرّة –غير مدرج على القائمة.

– صباح الخير بيلشيم!

مدّت له يداً رخوة.

– بلى، أعرف، أنت متفاجئ لرؤيتي هنا. ولكن بما أنّ هذه القضيّة

طالــت كثيراً، وبمــا أنّ المحافظ شخصــيّاً مهتمّ بــأن تنتهي على خير، وعمّا قريب ســيكون الوزير مهتماً أيضــاً، لذا قرّرت أن أضع يدي في الموضــوع... هيّا، لا تتجهــم، إني أمازحك. أين ذهبت روح الدعابة لديك؟

عجــز الشرطي المســنّ عن الإجابة، كما كان طــوال خمس عشرة ســنة. «بالطبع» لم تكن تنفع معهــا. أراد أن يرمقها، لكن عينيها كانتا متخفّيتان وراء خصــلة طويلة، مُصهّبةً بالصبغة، هكذا كانت الموضة. كان يقال في القســم بأنّهــا تحاول التظاهر بأنّها صــهباء بالفعل، لتبرّر الرائحة القويّة التي تنبعث منها...

ســولانج دومانغ. كانت طباعها تزداد حدّة منذ بلوغها سنّ اليأس. من حيث المبدأ كان عليها أن تأخذ هرمونات أنثوية لتعوّض، غير أنّها كانت تخاف البدانة كثيراً، الهرمونات تحتبس الماء، هذا معروف، لذا كانت تشــدّ على أســنانها وتحمّل محيطها جريرة صعوبات تحوّلها إلى الشيخوخة.

– لماذا أتيت حضرتك؟ هل تريدين النزول إلى الأسفل هناك؟ سأل الشرطيّ.

– أتمزح يا رجل! لا، أنت من ســينزل. أنا، ســأبقى هنا، أحضرت كل ما سيلزمني، ترمس الشاي وجهاز التوكي ووكي.

– وإذا وقعتُ في مشكلة؟

– هل أنت جبان، لتتخيّل الأســوأ مباشرة؟ نحن متصــلان بالراديو

كما أخبرتك. وأوّل ما تلاحظ أدنى خطر، تبلغني وأنا سأتّخذ الإجراءات اللازمة. وقد اعتنينا بك يا رجل، فإضافة إلى ذلك، ستنزل مع أحدث المعدّات المخصّصة للمهمّات الحسّاسة. انظر: سيكون معك حبل متسلّق الجبال، بنادق. ناهيك عن الشجعان الستة الذين سيرافقونك.

أشارت إلى رجال الشرطة الذين على أتمّ الجاهزيّة. غمغم:

– غالان ذهب إلى هناك مع ثمانية رجال إطفاء، و لم يساعده هذا كثيراً...

– ولكن لم يكن لديهم لا أسلحة ولا اتصال راديو! هيّا، لا تتجهم بيلشيم.

لم يكن يريد أن يتشاجر. وممارسة ألعاب القوّة عليه وتخويفه كانا يملآنه بالسخط. الشجار مع سولانج، يعني أن يتحول إلى دومانغ. كانت أمامه مثل الأعشاب الضارة في الحديقة، ينبغي محاولة دفع ضررها عنه دون التلوث بها.

ارتدى المفوض بيلشيم، مملوءاً بالخيبة، ثياب المستغور، ربط حبل متسلق الجبال حول خصره وتقلّد جهاز التوكي ووكي.

– إذا لم أخرج ثانية، أريد أن تؤول كافّة ممتلكاتي إلى يتامى الشرطة.

– لنتوقف عن الحماقات، عزيزي بيلشيم. ستخرج مجدّداً وسنذهب إلى المطعم جميعاً لنحتفل بذلك.

- إذا لم أخرج ثانية، أودّ أن أقول لك شيئاً...

عقدت حاجبيها.

- هيّا، كفّ عن الصبيانيّة بيلشيم.

- أودّ أن أقول لك... جميعاً سندفع يوماً ثمن تصرّفاتنا السيئة.

- ها قد أصبح حكيماً صوفيّاً! لا، بيلشيم أنت مخطئ لا ندفع ثمن تصرّفاتنا السيئة! ربما يوجد «إلـه» كما تقول، ولكنّه يهزأ منّا! وإذا لم تستمتع بهذه الحياة وأنت حي، فلن تستمتع أكثر وأنت ميّت!

ضحكت هازئة بشكل خاطف، ثم اقتربت من مرؤوسها إلى أن لمسته، والذي بدوره سارع إلى قطع تنفسه. إذ أنّه غير متعجّل على الروائح الكريهة، والتي سينال الكثير منها داخل ذلك القبو...

- ولكن لن تموت بهذه السرعة. يجب عليك حلّ هذه القضية أولاً. موتك لن يفيد بشيء.

الغضب كان يحوّل المفوّض إلى طفل، لم يعد أكثر من طفل اختطفت منه لعبته، ويعلم أنّه لن يستعيدها يوماً، فيحاول بضع شتائم هزيلة.

- بالطبع سيكون موتي بمثابة فشل في تحقيقك «الشخصي». سنرى النتائج حين حضرتك «تضعين يديك في الموضوع» كما تقولين.

اقتربت أكثر منه، كما لو أنّها تريد أن تقبّله على فمه. وبدل أن تفعل ذلك تطاير رذاذ لعابها برصانة:

– هه لا تحبّني بيلشيم، أليس كذلك؟ لا أحد يحبّني ولا أبالي، وأنا لا أحبّكم. ليس لدي أدنى حاجة لأكون محبوبة. كلّ ما أريده، هو أن أكون مُهَابة. ولكن عليك أن تعلم: أنّي لن أحزن إذا هلكت هناك في الأسفل، سأرسل فريقاً ثالثاً ببساطة. إذا أردت أن تسيء لي بالفعل، ارجع منتصراً وحيّاً حينها سأكون مدينة لك.

لم يجب بشيء. كان يحملق بالجذور البيضاء للشعر المصفّف حسب الموضة، وذلك كان يشعره بالارتياح.

– نحن مستعدون! قال أحد الشرطيين وهو يرفع بندقيّته.

كان الجميع موثقين إلى بعضهم بحبل الأمان.

– حسناً، لنمض.

أعطوا إشارة إلى رجال الشرطة الثلاث الذين سيظلون على اتصال معهم فوق السطح، ثمّ سرعان ما غاصوا داخل القبو.

جلست سولانج دومانغ وراء مكتب حيث كانت تضع جهاز البث والاستقبال.

– حظّاً موفّقاً، عودوا سريعاً!

(3)

أوديسّات ثلاث

أخـيراً، عثرت الرقم 56 على مكان مثاليّ لتنشـئ فيه مدينتها. إنّها تلّة مسـتديرة. تتسـلّقها. من هناك، في أعلى التلة تميز المدينتين الأكثر بعـداً من ناحية الشرق: زوبي - زوبي - كان وغلوبي - ديو - كان. ينبغي أن تكون عملية الالتحاق ببقية مدن الفيدراليّة يسيرة، لا تكتنفها أيّة مشاكل.

تتفحّص المنطقة، الأرض قاسية قليلاً ورمادية اللون. تبحث الملكة الجديدة عن موضـع تكون الأرض فيه أكثر طراوة، ولكن التراب كان يمانع في كافّة النواحـي. وبينما تغرز أحد فكيّها بعزم، بغاية حفر أوّل مقصـورة ملكيّة لها، تحدث هزّة غريبة أقرب إلى زلزال أرضـي، لكنّ نطاقه أضيق من أن يكون زلزالاً بالفعل. تغرز ثانية في الأرض. تتكرّر الهزة على نحو أسوأ؛ ترتفع التلّة وتنزلق إلى اليسار...

شـهدت ذاكرة النّملة الكثـير من الخوارق، ولكنْ تلّـة حيّة، أبداً! تأخـذ التلّـة بالتقدّم بسرعـة ملحوظة، تشـقّ طريقها بين الأعشـاب العالية، وتسحق العيدان اليابسة في طريقها.

قبل أن تصحو الرقم 56 من مفاجأتها، ترى تلة أخرى تقترب. ما هذه اللعنة؟ دون أن يتسنى لها النزول، تجد نفسها مأخوذة في لعبة روديو[5]؛ في الواقع، هو عرض لمشهد غرامي بين التلل. التي بدأت الآن تداعب بعضها دون حياء... ومما يزيد الطين بلّة أنّ تلة الرقم 56 هي الأنثى. والتلّ الآخر يعتليها الآن ببطء. وشيئاً فشيئاً يبرز رأس حجري، غرغول مفزع يفغر فاه.

هذه المرة طفح الكيل! عدلت الملكة الشابة عن فكرة تأسيس مدينتها في هذه المنطقة. فهمت بعد أن تدحرجت إلى أسفل التل حجم الخطر الذي كان محدقاً بها. إذ أنّ التلل لم تكن لها رؤوس فقط، وإنّما مزوّدة أيضاً بأربعة أقدام مخلبيّة وأذيال صغيرة مثلّثة.

إنها المرّة الأولى التي تشاهد فيها الرقم 56 السلاحف.

زمن المتآمرين: الشكل التنظيمي الأكثر شيوعاً بين البشر هو: الهيكليّة المعقّدة من «الإداريين»، المؤلّفة من رجال ونساء السلطة، الذين يتولّون الإشراف أو بالأحرى إدارة مجموعة أضيق من «المبتكرين»، الذين يأتي «التجّار»، تحت ذريعة التوزيع، ليستحوذوا على عملهم لاحقاً... إداريون، مبتكرون، وتجّار. هذه هي الطبقات الثلاث في أيامنا التي تقابل طبقات العاملات، والجنديّات، وذوات الجنس عند النّمل.

---

5. Rodéo: رياضة تنافسيّة نشأت من ممارسة الأعمال المتعلّقة برعي الماشية في إسبانيا والمكسيك ثمّ الولايات المتحدة وكندا وأمريكا الجنوبية وأستراليا. وهي مبنية بالأساس على المهارات المطلوبة لرعاة البقر.

الصـراع بين ستالين وتروتسكي، القائدين الروسيّـين عند بداية القرن العشرين، يمثّـل بشكل رائع الانتقال من نظام يعطي الأفضليّـة للمبتكرين إلى نظام يمنح الامتياز للإداريين. تروتسكي، الرياضيّ، ومبتكر الجيش الأحمر أُبعدَ بالفعل من قبل ستالين، رجل المؤامرات. صفحة وقد طويت.

إذا عرفنـا كيف نجـذب، ونجمّع قتلـة، ونضلّل، يمكننا الارتقـاء في سلّم طبقات المجتمع، بطريقة أفضل وأسرع مما لو ابتكرنا مفاهيم أو مواضيع جديدة.

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

عـادت المحاربتان 4000 و103683 واستلمتا الطريق الشـمسيّ الذي يفضـي إلى عشّ الأرَضَة الشرقيّ. يصادفان في طريقهما خنافس سـوداء منهمكة في دفع كرات الدبال، ونمال مستكشفات من صنف غاية في الصـغر بالكاد يمكن تمييزها، وأخريـات لفرط كبرها لا تكاد تميّز الجنديتين أمامها...

في الحقيقة يوجد أكثر من اثني عشر ألف صـنف من النمال ولكل صـنف شـكل وتكويـن خاصّـان. المفرطو الصـغر لا يتعـدى طول الواحدة بضـع مئـات من الميكرون، فيما يصـل طـول الكبيرات إلى سبعة سنتمترات. وتبعاً لذلك يمكن تصنيف الصهباوات ضمن الحجم المتوسط.

أخـيراً، تمكّنت الرقم 4000 من تحديد موقعهـا. ينبغي بعد اجتياز

ذاك المسطّح من الطحلب الأخضر، تسلّق غصون الأكاسيا، ثمّ المرور تحت زهور النرجس البريّ، ينبغي أن يكون المكان المقصود وراء جذع تلك الشجرة الميّتة.

وبالفعل، بعد أن عبرتا الأرومة، ظهر لهما، من خلال أوراق الأشنان والغاسول، النهر الشرقيّ ومرفأ ساتيي.

– ألو، ألو، بيلشيم، كيف تسمعني؟

– خمسة على خمسة.

– كل شيء على ما يرام؟

– لا مشكلة.

– طول الحبل الممتد يشير بأنكم اجتزتم 480 متراً.

– ممتاز.

– أرأيتم شيئاً؟

– لا شيء يستحق الذكر. بعض كتابات محفورة بالحجر فقط.

– أيّ نوع من الكتابات؟

– صياغات باطنيّة. هل تريدين أن أقرأ لك إحداها؟

– لا، أصدّقك...

بطن الأنثى 56 في ذروة فورانه. ثمّة في داخله، ما يشدّ، ويدفع، ويتخبّط. سكان مدينتها المستقبلية بدؤوا يفقدون صبرهم.

لا تنوي الأنثى 56 أن تزيد الأمور تعقيداً، فتختار حوضاً صغيراً لون ترابه أمغر وأسود، وتقرّر أن تؤسّس داخله مدينتها.

لا بأس بموقع المكان. لا يوجد روائح قزمات في المحيط، ولا أرضات أو زنابير. وفضلاً عن ذلك، يوجد بضع فيرومونات طرقيّة تشير إلى أنّ البيلوكانيين سبق لهم وغامروا بالوصول إلى هذا المكان.

تتذوّق تربة المكان فتجدها غنيّة بالعناصر الغذائيّة، مع نسبة رطوبة كافية دون إفراط. وثمّة أيضاً شجيرة تظلّل المكان.

تنظّف مساحة دائريّة يبلغ قطرها ثلاثمائة رأس والتي تجسّد الشكل الأمثل لمدينتها.

تخور قواها، فتحاول استعادة الطعام من معدتها الاجتماعيّة، لكنّ معدتها كانت قد فرغت منذ زمن طويل. نفدت زوّادتها من الطاقة. بغتة، تقتلع أجنحتها بحركة جافّة وتنكبّ بنهم على أكل جذورها العضليّة.

تستطيع مع هذه الوجبة من السّعرات المقاومة لبضعة أيّام أخر.

ثمّ تدفن نفسها إلى طرفي قرنيها. فلا يجب أن تكتشف في الفترة القادمة إذ أنها ستكون أثناءها فريسة سهلة.

تنتظر. المدينة التي في داخلها تستيقظ ببطء. ماذا ستسميها؟

يجب بداية أن تجد اسم الملكة. عند النّمل، أن يكون لديك اسم يعني أنّك موجود ككيان مستقل. العاملات والجنديّات والعذارى

ذوات الجنس لا يُدعون إلّا برقم متناسب مع ولادتهم. أمّا الإناث المُخَصّبات فإنّ بإمكانهنّ أن يتخذن لأنفسهنّ أسماء.

همم! هي غادرت مُطارَدةً من قبل المحاربات ذوات رائحة الصخر، فما عليها إذاً سوى أن تدعو نفسها «الملكة المُطارَدة». أو بالأحرى، لا، هي كانت مُطارَدة لأنّها حاولت حلّ لغز السلاح السرّي. يجب ألّا تنسى. إذاً، هي «الملكة المتحدّرة من اللغز».

تقرّر أن تسمي مدينتها مدينة «الملكة المتحدّرة من اللغز». الذي، باللغة الشمّية للنمل، يشتمّ هكذا: شلي - بو - كان.

اتصال جديد بعد ساعتين.

- كلّ شيء على ما يرام بيلشيم؟

- نحن أمام باب. باب عادي. يوجد عليه كتابة بأحرف كبيرة وقديمة.

- وماذا تقول؟

- أتريدين هذه المرّة أن أقرأها لك؟

- بلى.

وجّه المفوّض مصباحه، وبدأ القراءة، بصوت بطيء ورسميّ، مفكّكاً الكتابة بالتدريج:

الـروح عنـد لحظة المـوت يسكنها ذات الشعـور الذي اختبره مـن استناروا بالأسرار الكبيرة.

في المستهلّ، إنّهـا سباقات تحصل تبعاً لانعطافات شاقّة، رحلات مقلقة لا حدّ لها عبر الظلمات.

ثـمّ، قبل النهايـة، يصل الذعر ذروته. يسيطر الارتعـاد، والارتجاف، والعرق البارد، والرعب الكبير.

يعقب هذا الطور على الفور تقريباً الصعود ثانيةً إلى النور، إشراق مباغت.

ضياء رائع يتراءى للعيون، نجتاز أماكن صافية وسهولاً حيث تصدح أصوات ورقصات.

كلمـات مقدّسة توحي بالإجـلال الديني. الإنسان الكامـل والمستنير يصبح حرّاً، ويحتفي بالأسرار.

شعر أحد الشرطيين بالارتعاد.

– وماذا يقبع وراء هذا الباب؟ سأل التوكي ووكي.

– حسناً، سأفتحه... اتبعوني يا شباب.

صمت طويل.

– ألو بيلشيم! ألو بيلشيم! أجب، اللعنة، ماذا ترى؟

سمعت طلقة رصاص. ثمّ ساد الصمت مجدّداً.

– ألو بيلشيم، أجب يا عزيزي!

– هنا بيلشيم.

- تكلم إذاً، ما الذي يحصل؟

- جرذان. آلاف من الجرذان. انقضت علينا، ولكن جعلناها تهرب.

- لهذا كانت طلقة البندقيّة؟

- بلى. الآن تعود إلى جحورها.

- صف لي ما تشاهد.

- كلّ ما في هذا المكان أحمر. يوجد آثار صخور حديديّة على الجدران... وبقع دم على الأرض! سنكمل...

- حافظ على تواصل الراديو! لماذا تقطعه؟

- أفضل التصرّف على طريقتي بدلاً من اتّباع إرشاداتك البعيدة، إذا سمحت لي يا سيدتي.

- ولكن يا بيلشيم...

كليك. قُطِع الاتصال.

ليست ساتيي مرفأ بما في الكلمة من معنى، وليست هي موقعاً متقدّماً. لكنّها بلا ريب المكان المفضّل لدى الرحلات البيلوكانيّة الاستكشافيّة التي تجتاز النهر.

في الماضي، أوائل نمال سلالة النيي حين وجدت نفسها أمام ذراع

المـاء هذا، فهمت أنّـه لن يكون من اليسـير اجتيـازه. إلّا أنّ النّملة لا تستسـلم أبداً. سوف تنطح رأسها بالعقبة التي تعترضها، خمسة عشر ألف مرّة إذا لزم الأمر، وبخمسـة عشر ألف طريقة مختلفة، حتّى تموت أو تزول العقبة.

يبدو هذا السـلوك غير منطقي. إذ أنّه كلّف الحضارة النّمليّة الكثير مـن الأرواح التي أزهقـت والوقت الذي أهدر، غـير أنّ ذلك أعطى أُكلـه. وفي النهاية، أثبتت النمال بجهود مفرطـة عبر تاريخها مقدرةً على تخطّي الصعاب.

بدأت المستكشفات محاولات العبور الأولى في ساتيي على أرجلها. سطح الماء كان قادراً على تحمّل ثقلهن، غير أنّه للأسف لم يمنح موضعاً لتتشـبّث مخالبهن. النّملات كانت تتقدّم على حافة النهر كما لو أنهنّ على حلبة تزلّج. خطوتين للأمام وثلاثاً على الجانب ثمّ... سـلورب! وتبتلعهنّ الضفادع.

بعد نحو مائة محاولة غير موفّقة وبعد التضحية بآلاف المستكشفات، أخذت النمال تبحث عن حلّ آخر. شـكّلت العاملات سلسلة حيث تمسك بعضها بعضاً بالأرجل والقرون وصولاً إلى الضفّة المقابلة. كان يمكن لهذه التجربة أن تنجح لو لم يكن النهر بهذا الاتّسـاع ومضطرباً بالدوّامـات. كلّفت هـذه المحاولة مئتين وأربعينَ ألف ضـحيّة. لكنّ النّمل لا يستسلم. وبتحريض من ملكتهنّ آنذاك بيو – با – ني، حاولن تشـييد جسر من الأوراق، ثـمّ جسر من العيدان، ثـمّ جسر من جثث خنافسـ وحيد القرن، ثمّ جسر من الحصـى... أودت هذه التجارب الأربع بحياة نحوَ سـتمائة وسبعين ألف عاملة. وبذلك تكون بيو – با

- ني قد قتلت من شعبها لتشيّد جسرها الخيالي أكثر من الذين سقطوا خلال المعارك الإقليميّة التي خيضت في عهدها!

وكلّ ذلـك لم يدعوهـا للاستسـلام، إذ كان يجب الوصـول إلى الأراضـي الشرقيّة، فبعد الجسـور، خطرت لها فكرة الالتفاف حول النهر بالمضيّ شمالاً إلى النبع. أيٌّ من تلك الرحلات الاستكشافيّة التي ذهبـت لم ترجع. 8000 ضـحيّة. ثمّ قالت في سرّهـا: إنّ على النمال تعلّم السـباحة. 15000 ضـحيّة. ثمّ قالت: إنّ علـى النمال أن تتعلّم تدجين الضفادع. 68000 ضحيّة. لم لا نجرّب أوراق الشجر للطيران بالقفز من فوق شـجرة عالية؟ 52 ضـحيّة. أو السـير تحت الماء بتثقيل الأرجل بالعسل القاسي؟ 27 ضحيّة. تقول الملحمة: إنّه حين أعلمت بأنّه لم يعد يوجد في المدينة أكثر من عشر عاملات سـالمات ولذا يجب الاستسلام مؤقّتاً أمام هذا المشروع، بثّت كلمتها المأثورة:

وا أسفاه! كان لا يزال لديّ الكثير من الأفكار...

ومع ذلك تمكّنت نمال الفيدراليّة من إيجاد حلّ مرضـي. بعد ثلاثة آلاف سـنة، اقترحت الملكة ليفوغ - ريوني على بناتها حفر نفق تحت النهر. لبساطة الفكرة لم تخطر على بال أحد من قبل.

وهكذا أصـبح بالإمكان من ساتيي التجوال تحت النهر دون أدنى إزعاج.

تتقدم الرقمان 103683 و4000 منذ بضـع درجات زمنيّة داخل النفق ذائع الصـيت. المكان رطب، لكـن لم يتدفق إليه الماء بعد. مدينة الأرضـات مشادَة على الضفّة الأخرى. وعلى فكرة، الأرضات أيضاً

تســتخدم النفق ذاته للقيام بغاراتها داخل أراضي الفيدراليّة. وقد ساد إلى الآن تفاهم ضــمني بأنّه لا قتال داخل النفق، ويمكن للجميع المرور بحريّة، أرَضَة أو نملة. ولكن من الواضح أنّه ما إن يدّعي طرف سيطرته على الآخر حتّى يسارع هذا الأخير إلى سدّ الممر أو إغراقه.

تســيران دون توقف داخل الرواق الكبير. المشــكلة الوحيدة، بأنّ الطبقة السائلة فوق رأســيهما مجمّدة والتي تحت أرجلهنّ أكثر تجمّداً. مــع كل هذا البرد الذي خدّرهما تصــبح كلّ خطوة مشــقّة. إذا نامتا هناك في الأسفل، سيكون سباتهما أبدياً. وهما تعرفان ذلك. تزحفان حتّــى تصــلا إلى المخرج. تســتقيان من معدتيهمــا الاجتماعيّتين آخر احتياطاتهما من البروتين والســكّر. تتصــلّب عضــلات جسديهما. أخــيراً يظهر المخرج... وصــلتا إلى الهواء الطلق، مــن فرط بردهما، الرقمان 103683 و4000، تغفيان وسط الطريق.

المضي قدماً على هذا النحو، واحداً إثر الآخر في ذلك المعي المظلم، أثار أفكاره. فلا شــيء يشغله هنا ماعدا المضيّ إلى نهاية المطاف. على أمل أن تكون ثمّة نهاية...

لم تعــد تثــار أحاديــث وراءه. لم يكن بيلشــيم يســمع إلّا اللهاث المبحــوح لرجال الشرطة الســتّة، ويكرّر في سرّه أنّه ضــحيّة ظلم وقع عليه.

كان ينبغي، لو ســارت الأمور بالاتّجاه الصحيح، أن يكون مفوّضاً رئيســيّاً وأن يتقاضــى راتباً حقيقيّاً. لقد كان يــؤدي عمله على أكمل وجه، وســاعات عملــه تفوق المعدّل الطبيعيّ، وتوصّــل إلى حلّ نحو

عشر قضايا. غير أنّ الدومانغ كانت دائماً تقف عائقاً بوجه ارتقائه الوظيفي.

فجأة بدا له هذا الوضع لا يحتمل.

- تباً!

توقّف الجميع.

- كل شيء على ما يرام سيادة المفوّض.

- بلى، بلى، على ما يرام، استمرّوا!

منتهى الإحراج: ها هو يكلّم نفسه. عضّ على شفتيه، وأخذ يناشد نفسه لتظهر بعض التماسك. ولكن ما هي إلّا خمس دقائق حتّى عاد مجدّداً ليغوص في همومه.

لم يكن لديه شيء ضدّ النساء، ولكنّه كان ضدّ غير الأكفاء. «العجوز الساقطة التي لا تكاد تعرف القراءة والكتابة، والتي لم تستلم تحقيقاً واحداً، ها هي توضع على رأس قسم بأكمله، مائة وثمانون شرطيّاً! وتقبض ضعف راتبي أربع مرات! يقال، تطوعوا في الشرطة! هي، عيّنت من قبل سلفها، لا بدّ أنّه مقابل قضاء ليلة. وإضافة إلى ذلك، لا تترك أحداً يتنفّس، تثير جلبة بلا طائل. وتحرّض الموظفين ضد بعضهم بعضاً، تعرقل قسمها وهي تلعب دور من لا يمكن الاستغناء عنهم...»

أثناء هذه الاجترارات يتذكّر بيلشيم أحد الأفلام الوثائقيّة عن الضفادع. والتي من فرط إثارتها في موسم التزاوج تقفز على كلّ ما

يتحرّك: على الإناث، وأيضاً على الذكور، وحتّى على الحجر. تضغط بطن التي أمامها لإخراج البيوض التي سوف تلقّحها. الذين يضغطون على الإناث تكافأ جهودهم. والذين يضغطون على بطون الذكور لا ينالهم شيء ويبدّلون الشريك. أمّا الذين يضغطون على الأحجار يؤذون أذرعتهم ويعرضون عن الأمر.

لكن توجد حالة مختلفة: أولئك الذين يضغطون على الكرات الطينية. الكرة الطينيّة بنفس طراوة بطن الضفدعة. فإذاً لا يتوقّفون عن الضغط. يمكن أن يظلّوا أياماً طويلة يكرّرون ذلك التصرّف العقيم. ويعتقدون أنّهم بذلك يفعلون أفضل ما يمكن فعله...

ابتسم المفوّض. ربّما يكفي الشرح لهذه الذكيّة سولانج بأنّ تصرّفات أخرى كانت ممكنة وتحقّق فعاليّة أكبر من السلوك الذي يعرقل كلّ شيء ويوتّر مرؤوسيها. لكنه لا يرى من ذلك نفعاً. وقال لنفسه: إنّه بالمحصلة هو من ليس في مكانه داخل ذلك القسم البغيض.

كان الآخرون في الخلف أيضاً غارقين بأفكار معتمة. هذا النزول الصامت كان يخلّف أثره على أعصاب الجميع. خمس ساعات مضت وهم يسيرون دون أيّة استراحة. الأغلبيّة يمنّون أنفسهم بالجائزة التي يجب أن يطالبوا بها بعد هذه المجازفة؛ آخرون كان يفكرون بزوجاتهم، بأولادهم، بسياراتهم أو بصندوق زجاجات البيرة...

لا شيء: ما هو الشيء الأكثر متعة من التوقّف عن التفكير؟ أن يتوقف أخيراً هذا التيار الجارف من الأفكار المفيدة نوعاً ما أو المهمّة نوعاً ما. أن نتوقف عن التفكير!

كما لو كنّا أمواتاً وقادرين في الوقت عينه أن نعود أحياء. أن نكون الفراغ. أن نعود إلى الأصول الأكثر سموّاً. ألا نكون حتى أحداً لا يفكر بشيء بل أن نكون لا شيء. ذلك طموح نبيل.

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

بقيتا طوال الليل على ضفّة النهر الموحلة، خامدتين، أشعة الشمس الأولى أعادت إنعاش جسدي الجنديّتين.

واحداً إثر آخر يعودون أوجه عيون 103683 للتفاعل مجدّداً، مضيئين عقلها بالديكور الجديد الذي كانت تشهده أمامها. ديكور متشكّل بأكمله من عين ضخمة معلّقة فوقها، ثابتة ومتيقظة.

الشابّة التي بلا جنس تطلق فيرومون صرخة رعب تحرق قرنيها. العين تخاف أيضاً وترتدّ إلى الخلف فجأة ويرتدّ معها القرن الطويل الذي يحملها. ويختبئان بشيء أشبه بحجر مدوّر. حلزون!

ثمّة حولهما حلازين أخرى. عددها خمسة، تختبئ داخل قواقعها. تدنو النّملتان من أحدها وتدوران حوله. تحاولان عضّه لكن لا موضع يقبضان عليه. هذا العشّ المتحرّك قلعة حصينة.

عادت إلى ذهنها حكمة الأم القائلة: **الأمان هو العدو الأسوأ لي، ينوّم ردود فعلي ومبادراتي.**

تقـول الرقم 103683 في سرّهـا: إنّ هؤلاء الأغبيـاء كانوا طوال حياتهم يعيشـون بسـهولة، ويرعون الأعشـاب الثابتة. لم يضطروا يوماً للحرب، للإغواء، للاصطياد، للهرب. لم يضطروا يوماً إلى أن يواجهوا الحياة. لذا لم يتطوروا أبداً.

تسـكنها نزوة إرغامهم على مغادرة قواقعهـم، لتبرهن لهم بأنّهم ليسـوا بالمنعـة التي يظنّـون. عند تلـك اللحظة تماماً، يعتـبر حلزونان من الخمسـة أنّ الخطر قـد زال. فيتركان جسـديهما يتجولان خارج ملاذهما، للتفريج عن توتّرهما العصبي.

يلتقيان، يلتصقان بطناً على بطن. لعاباً على لعاب، ها هما يلتحمان بقبلة لزجة تسري على كامل جسديهما. تتلامس أعضاؤهما الجنسيّة.

تحدث أشياء بينهما.

ببطء شديد.

الحلزون الأيمن غرز قضـيبه ذا الرأس الكلسي داخل فرج الحلزون الأيسـر الممتلئ بالبيوض. ولكن هذا الأخير قبل أن يصـل إلى النشـوة يظهر بدوره قضيباً منتصباً ويغرزه في شريكه.

سـويّةً يشـعران بلذة المولِج والمولَج به. إذ أن الحلزون مزوّد بفرج يعلوه قضيب وبذلك يمكنه اختبار نشوة العضوين في الوقت عينه.

الحلـزون الأيمن يشـعر بـأول ذروة ذكريّة. يلتـوي بطريقة مختلفة وينبسـط، يسري ارتعاش كهربائيّ على كامل الجسد. القرون الأربعة للخنثيـين ترتبط. اللعاب يحتال إلى رغوة ثم إلى فقاعات. إنها رقصـة مفرطة الالتصاق وشهوانية يفاقم منها بطء الحركات.

الحلزون الأيسر ينصب قرنيه. يشعر بدوره بالذروة الذكرية. ولكن

لم يكد ينهي القذف حتّى اجتاحت جسده موجة ثانية من اللذة المهبليّة هذه المرّة. الحلزون الأيمن عرف بدوره النشوة الأنثويّة.

تعـود قرونهما إلى الارتخاء، سـهما حبّهما يعـودان للانكماش، وفرجاهما يضـيقان... بعد ذلك الفعل المكتمل، يتحوّل العاشقان إلى مغناطيسـين بقطبيّة مماثلة. يحصـل تنافر. ظاهرة قديمة قدم العالم. آلتا اسـتقبال اللذة وإعطائها تفترقان عن بعضـيهما على مهل، بيوضهما ملقّحة بحيوانات الشريك المنوية.

بينما رقم 103683 بقيت مذهولة، وهي لا تزال تحت تأثير جمال المشـهد، تنقضّ الرقم 4000 على أحد الحلزونين. تريد استغلال تعب ما بعد الحب لتشـقّ بطن الحلـزون الأكثر بدانة. لكن الأوان قد فات، عادا ثانية إلى داخل قوقعتيهما

المستكشـفة العجـوز لا تستسـلم، فهي تعلم أنّه لا بـدّ أن يخرجا ثانيـة. فتضرب عليهما حصـاراً لمدّة طويلة. أخـيراً تطلّ عين خجولة ثمّ يتبعها قرن كامل منسـاباً خـارج قوقعته. خرج رخويّ ليرى كيف يجري العالم حول حياته الصغيرة.

حـين يظهر القرن الثاني تنقضّ الرقم 4000 وتعضّ له عينه بكلّ ما أوتـي فكّاها من قوّة. تريد تقطّيعه. ولكـن الحيوان الرخوي ينكمش ساحباً المستكشفة داخل منحنيات قوقعته.

فلوب! كيف السبيل لإنقاذها؟

تفكـر الرقـم 103683، وسرعان ما تنبثق فكرة مـن أحد عقولها الثـلاث. تمسـك حصـاةً بفكيّها وتبـدأ الطـرق بأقصـى قوّتها على

القوقعـة. وبذلك بالطبع تكـون قد اخترعت المطرقة، غـير أنّ قوقعة الحلزون ليسـت خشـب البلزا. هذا التوك - توك لا نفع له غير إحداث موسيقى. يجب العثور على وسيلة أخرى.

إنّه يوم الحظ، إذ تكتشف النّملة الآن الرافعة. أمسكت بعود متين، مسـتخدمةً حصـاةً ناعمة كنقطة ارتكاز ثم أرخـت كلّ وزنها لقلب الحيـوان الثقيل عليها، تكـرّر ذلك عدّة مرات. أخـيراً تترنّح القوقعة أمامـاً وخلفاً ثـمّ تنقلب علـى ظهرهـا، متّجهة فوّهـة مدخلها نحو الأعلى. لقد نجحت!

تتسـلّق صـعداً التعرّجات، تميل نحـو البئر الذي شـكلته القوقعة المجوّفة، ثمّ تلقي بنفسـها باتجاه الرخويّ. بعد زحلقة طويلة، خفّفت مـن حدّة سـقوطها مادّة هلامية بنيّة. أخذت تتخبّط مشـمئزة في كلّ ذلك اللعاب الدسـم، ثمّ شرعت تمزّق الأنسـجة الطرية. ليس بوسعها استخدام الحمض، لأن ذلك يعني المجازفة بأن تذوب فيه.

سرعان ما تختلط سوائل جديدة باللعاب: هو دم الحلزون الشفّاف. يتقلّص الحيوان مرتعداً ثمّ يتمدّد قاذفاً النّملتين خارج قوقعته. سالمتين، تداعبان مطوّلاً قرنيهما.

يحـاول الحلزون في النّزع الأخير أن يلوذ بالفرار غير أنّ أحشـاءه أخذت تتساقط على الطريق. تلحق به النّملتان وتقضيان عليه بسهولة. الحلازين الأربعة الأخرى مصـابة بالذعر، وقد أخرجت قرون عيونها لمتابعة المشهد، تحصر نفوسها في أجواف قواقعها بلا حراك لبقيّة اليوم.

ذلـك الصـباح، تتخم الرقمـان 103683 و4000 نفسـيهما من الحلزون. تقطّعانه إلى شرائح وتأكلانه على شـكل رقائق فاترة مغمّسه

باللعــاب. تجدان الجيب الفرجي مليئاً بالبيوض. كافيار الحلزون! أحد الأطباق المفضّلة عند النمال الصهباوات. مصدر ثمين من الفيتامينات، والدُسم، والسكّر، والبروتينات...

معدتاهمــا الاجتماعيتان ممتلئتــان إلى آخرهما، ومتخمتان بالطاقة الشمســيّة، تســتلمان الطريق مجدّداً باتجاه الجنــوب الشرقي مفعمتين بالنشاط.

تحليــل الفيرومونــات: (التجربــة الرابعــة والثلاثــون). تمكّنت مــن تعيين بعض جزيْات الاتصــال عند النّمل باستخدام آلتين، مطيــاف الكتلة، والكروماتوجرافيا. بهــذه الطريقة تمكّنــت من القيام بتحليل كيميائي لاتصال بــين ذكر وعاملة، التقطت الاتصال في الساعة 10 ليلاً. اكتشف الذكر كسرة خبز. وهذا ما بثّه:

- ميثيل- 6

- ميثيل- 4 إكزانون- 3 (كرّرها لمرتين)

- كيتون

- أوكتانون- 3

ثم مجدّداً:

- كيتون

- أوكتنون- 3 (كرّرها مرتين)

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبي والمطلق

تقابلان على الدرب حلازين أخرى. غير أنّ الجميع يختبئون كما لو أنّهم أرسلوا تحذيراً إلى بعضهم: «هاتان النّملتان خطرتان». مع أنّ واحداً منهم لم يتوار، وأكثر من ذلك أظهر نفسه بالكامل.

اقتربت النّملتان منه، متسائلتين. كان الحيوان مسحوقاً بكتلة. وقوقعته مفتّتة. جسده منفجر ومنتشر على مساحة واسعة.

فوراً خطر للرقم 103683 السلاح السرّي للأرضات. على الأغلب هما قريبتان من المدينة العدوّة. تفحصّت عن قرب الجثّة. كانت ضربة واسعة ومباغتة وقويّة. ليس غريباً أن يتمكّنوا بمثل هذا السلاح من نزع أحشاء موقع لا - شولا - كان!

الرقم 103683 حسمت أمرها. يجب دخول مدينة الأرَضَة وفهم ما الذي يحصل، أو ربما من الأجدى، سرقة سلاحهم. إذا لم يتمّ ذلك فالفيدراليّة بأكملها معرّضة بأن تمحى.

لكن فجأة هبّت ريح قوية. لم يتسنّ الوقت لمخالبها أن تتشبّث بالأرض. ترفعها العاصفة إلى السماء. ليس لدى الرقمين 103683 و4000 أجنحة... لكنّ ذلك لم يمنعهما من الطيران.

بعد بضع ساعات، وبينما كاد الفريق المنتظر على السطح أن يغفو، أخذ التوكي ووكي يخشخش ثانيةً.

- ألو سيّدة دومانغ؟ تمّ الأمر، وصلنا إلى الأسفل.

– إذاً؟ ماذا ترى؟

– إنّه طريق مسدود. يوجد حائط قد بُني حديثاً من خرسانة وحديد. كأنّ كلّ شيء يتوقّف هنا... وثمّة كتابة هنا أيضاً.

– اقرأها!

– **كيف يمكن تشكيل أربعة مثلّثات متساوية الأضلاع بستّة أعواد ثقاب؟**

– فقط؟

– لا، يوجد أزرار مع أحرف، لا بدّ أنّها من أجل إدخال الجواب.

– ألا يوجد ممرّ على أحد الجانبين؟

– لا.

– ولا ترى جثث الأخرين؟

– لا، لا شيء... هممم... ولكن آثار خطوات. كما لو أنّ عدّة أحذية وصلت إلى أمام هذا الجدار.

– ماذا نفعل؟ همس شرطي. هل نعاود الصعود؟

تفحّص بيلشيم العقبة بغاية الدقّة. جميع هذه الرموز، جميع هذه الألواح من الحديد والخرسانة، هذا يخفي آلية ما. والآخرون، أين طاروا إذاً؟

بينما وراء ظهره جلس رجال الشرطة على درجات السلّم، ركّز

هو على الأزرار. كان يجب استعمال جميع هـذه الأحرف بترتيب محدّد. كان جوناثان ويلز يعمل بمهنة الأقفال، إذاً، لا بدّ أنّه طبّق أنظمة الأمان المتبعة لأبواب المباني. لذا ينبغي العثور على كلمة السرّ.

التفت إلى رجاله.

– ألديكم أعواد كبريت يا رجال؟

كان التوكي ووكي قد نفدَ صبره.

– ألو المفوّض بيلشيم، ماذا تفعل؟

– إذا أردتِ أن تساعدينا بالفعل: حاولي أن تركّبي أربعة مثلّثات بستّة أعواد ثقاب. وأوّل ما تجدين الحلّ عاودي الاتصال بي.

– أتهزأ مني بيلشيم؟

هدأت العاصفة في النهاية. في غضون لحظات، أبطأت الريح رقصتها؛ وعادت الأوراق، والغبار، والحشرات لتخضع مجدّداً إلى قانون الجاذبيّة وتقع ثانية بحسب مصادفة ثقل كلّ منها.

ألقيت الرقم 103683 والرقم 4000 على الأرض لا تفصلهما إلّا مسافة بضع عشرات من الرؤوس. تعاودان الالتقاء، دون أيّ خدش، وتبدأان بتفحّص الأنحاء: منطقة مفروشة بالحصباء لا تشبه بشيء المشهد الطبيعيّ الذي تركاه. لا توجد أيّة شجرة في ذلك المكان، فقط بضع أعشاب بريّة مبعثرة تبعاً لمزاج الرياح. لا تعرفان أين هما...

وبينما تجمّعان قواهما ثانية لمغادرة هذا المكان الكئيب، تقرّر السماء مجدّداً إظهار قوّتها. فتتلبّد الغيوم وتصبح أكثر دكنة. ينفجر وميض البرق شاقاً الأجواء ومحرّراً الضغط الكهربائيّ المحصور داخلها

سائر الحيوانات فهمت هذه الرسالة من الطبيعة. الضفادع غاصت، والذباب توارى تحت الحصى، واتّخذت الطيور لنفسها مسارات منخفضةً.

أخذ المطر بالانهمار. ينبغي على النّملتين أن تجدا لهما ملجأً على وجه السرعة. إذ يمكن لأيّ قطرة أن تكون قاتلة. تسرعان نحو هيئة بارزة، تبدو من بعيد أشبه بشجرة أو صخرة.

رويداً رويداً، بين غزارة القطرات والضباب الزاحف، ترتسم الهيئة بطريقة أوضح. فهي ليست صخرة ولا شجيرة. إنّها كاتدرائية حقيقيّة من التراب، ورؤوس أبراجها العديدة تختفي بين الغيوم. صدمة!

إنّه عشّ الأرَضَة! إنّه عشّ الأرَضَة الشرقيّ!

وجدت المحاربتان نفسيهما محصورتين بين العاصفة المطريّة العنيفة والمدينة العدوّة. بالطبع هما كانتا تنويان زيارتها ولكن ليس بظرف كهذا! ملايين السنين من الكراهية والتنافس لجمت تقدّمهما.

ولكن ليس لزمن طويل. فالتجسّس على عشّ الأرضات هو بالمحصلة ما دفعهما للقدوم إلى هذا المكان. لذا تتقدّمان مرتجفتين نحو مدخل داكن عند قدم المبنى. هما مستعدّتان، بقرون منتصبة

وفكوك منفرجة إلى أقصاها وأرجل مثنيّة، للدفاع عن نفسيهما حتّى الرمق الأخير. ولكن على عكس كلّ توقّع، لم يكن يوجد أيّة جندية عند مدخل عشّ الأرَضَة.

هذا أمر غير اعتيادي بالمطلق. ما الذي يحدث؟

تتوغّل النّملتان عديمتا الجنس داخل المدينة الضخمة. منذ الآن، بدأ فضولهما بالتغلّب على أدنى متطلّبات الحذر. ينبغي الاعتراف بأن أرجاء المكان لا تشبه عشّ النّمل بشيء. فالجدران مشيّدة بمواد لا تتفتّت بسهولة مثل التراب، الإسمنت أقسى من الخشب. الممرّات مشبعة بالرطوبة. لا يوجد أيّ تيار هوائي. والمناخ غني بغاز الكربون بما يفوق الطبيعي.

مضت عليهما 3° - زمنيّة وهما تتجوّلان في الداخل دون أن تصادفا أيّة حارسة! هذا غير مألوف كلّياً... تتوقّف النّملتان، يتباحث قرناهما بالتلامس. ويتّخذ القرار سريعاً: الاستمرار.

ولكن من كثرة ما أوغلتا قدماً فقدتا الاتّجاه. تلك المدينة الغريبة هي متاهة أكثر تعرّجاً من مدينتهما الأم. حتّى أنّ غدة دوفور لا يسعها التقاط روائح العلامات عن الجدران. لم تعودا تعرفان إذا كانتا فوق مستوى الأرض أو تحته!

تحاولان الرجوع على أثر خطواتهما، وهذا يعقّد المشكلة. تكتشفان على الدوام ممرّات جديدة بأشكال غريبة. هما تائهتان بالفعل.

وإذ تكتشف الرقم 103683 ظاهرةً خارقةً للعادة: ضوء! الجنديتان لا تصدقان. ذلك البصيص وسط مدينة الأرَضَة الخاوية، هذا شيء لا يعقل. تتّجهان معاً إلى مصدر الأشعة.

إنّه ضوء أصفر برتقالي يتحوّل أحياناً إلى أخضر أو أزرق. بعد الوميض القوي قليلاً، ينطفئ مصدر الضوء. ثمّ ينشط ثانيةً ويعاود الوميض، منعكساً على الكيتين اللامع للنملتين.

كما لو أنّهما منوّمتان، تتّجه الرقم 103683 والرقم 4000 نحو تلك المنارة التحت أرضيّة.

الإثارة التي انتابت بيلشيم جعلته يتقافز من الفرح، فقد فهم! وضّح لرجال الشرطة كيفية ترتيب أعواد الثقاب للحصول على أربعة مثلّثات. بدت الوجوه مذهولةً، ثمّ تبعها صياح من الحماس. سولانج دومانغ، التي دخلت في اللعبة، زعقت:

– وجدت الحل؟ وجدت الحل؟ أخبرني!

لكنّها لما تُطع، سمعت هرجاً مختلطاً بجلبة ميكانيكيّة. ثمّ خيّم الصمت ثانية.

– ماذا يحدث بيلشيم؟ أخبرني!

أخذ التوكي ووكي يطقطق بعصبيّة.

– ألو! ألو!

- بلى (طقطقات)، اجتزنا الحاجز. يوجد في الخلف (طقطقات) ممرّ. ينعطف إلى (طقطقات) اليمين. سندخل!

- انتظر! كيف توصّلت إلى حلّ مشكلة المثلّثات الأربع؟

ولكنّ بيلشيم ورجاله لم تعد تصلهم رسائل من سطح الأرض. مكبّر الصوت في جهازهم كفّ عن العمل، يرجح حدوث ماس كهربائي. لم يعد بإمكانهم استقبال شيء ولكن لاتزال أمامهم إمكانيّة الإرسال.

- آه! هذا لا يصدّق، كلّما تقدّمنا وجدنا بناء. ثمّة قنطرة، وثمّة ضوء بعيد. سنواصل التقدّم نحوه.

- انتظر، تقول: إنّه يوجد ضوء، هناك في الأسفل؟ كانت سولانج دومانغ تصرخ بلا طائل.

- إنّهم هنا!

- من هناك؟ اللعنة! الجثث؟ أجب!

- انتبهوا...

سُمعت رشقة إطلاقات عصبيّة، تبعه صراخ ثمّ انقطع الخط.

الحبل توقّف عن الامتداد؛ ومع ذلك بقي مشدوداً. عناصر الشرطة الذين فوق الأرض تمسّكوا به وأخذ ثلاثة يسحبونه...، مفترضين بأنّه عالق، ثمّ أصبحوا خمسة. فجأة أفلت.

أخرجوا الحبل ولفوه، ليس في المطبخ، وإنّما في حجرة السفرة، بسبب الحجم الهائل للبكرة. أخيراً، وصلوا إلى الطرف المقطوع، والممزق، كما لو أنّ أسناناً قرضته.

– ماذا نفعل سيدتي؟ همس أحد الشرطيين.

– لا شيء. لا شيء نفعله على الأخص. ولا أيّ شيء سنفعله بعد الآن. ولا أيّة كلمة للصحافة، ولا كلمة لأيّ أحد، وأريدكم أن تسدّوا لي هذا القبو بجدار على وجه السرعة. انتهى التحقيق. سأغلق الملف ولن نأتي يوماً على ذكر هذا القبو اللعين! هيّا أسرعوا، اشتروا لبنات وإسمنت. أمّا أنت، فتولّ أمر أرامل رجال الشرطة.

عند فترة بعد الظهيرة، وفيما كان الشرطيون يتهيؤون لوضع آخر اللبنات تناهى إليهم صوت مكتوم. أحد ما كان يصعد ثانية! أفسح له الطريق. رأس بدأ يطفو من الظلمات ثمّ جسد الناجي كاملاً. كان أحد الشرطيين. سوف نعرف أخيراً ما الذي كان يحدث في الأسفل. كان سيماء الذعر المطلق مطبوعاً على وجهه. كانت بعض عضلات الوجه يابسة في حالة انقباض كما لو أنّها بفعل سكتة دماغية. زومبي حقيقي. وقد جدعت أرنبة أنفه وراحت تنزف بغزارة. كان يرتجف وعيناه مقلوبتان.

– جاباجاااااج، لفظ.

خطّ من اللعاب كان يسيل من زاوية فمه المتدلّي. مرّر على وجهه يداً مثخنة بالجراح التي شبّهتها النظرات الخبيرة لزملائه بضربات سكين.

– ماذا حدث؟ هوجمت؟

– جاووووباجيو!

– هل يوجد أحياء آخرون في الأسفل؟

– باوجاوجااباباجحجابا!

وبما أنّه كان عاجزاً عن قول المزيد، عالجوا جراحه، وأقفل عليه داخل مصحّ لمعالجة الأمراض العقليّة وسدّ مدخل القبو بجدار.

أدنى احتكاك لأرجلهما على الأرض كان يؤدي إلى تغيّر في شدّة الضوء. الذي كان يرتعش، كما لو أنّه يسمعهما قادمتين نحوه، كما لو أنه حيّ.

تسمرت النّملتان مكانهما لتجلوا الأمر. سرعان ما بدأ البصيص يتوهج إلى أن أضاء أدقّ تجاويف الممرّات. توارت الجاسوستان سريعاً لكيلا يرصدهما ذلك الكشّاف العجيب. ثمّ تندفعان، مستغلتين لحظة انخفاض حدّة الضوء، نحو مصدر الأشعة.

حسناً، إنّه خنفساء فوسفوري. يَراعَة في مرحلة التزاوج. أوّل ما تشعر بوجود المتطفلتين تنطفئ بالكامل... ولكن.بما أنّه لم يحصل شيء، تستعيد بهدوء ضوءاً أخضر خافتاً، حذرة بألّا تلفت الأنظار.

تطلق الرقم 103683 روائح غير عنيفة. رغم أن جميع الخنافس تفهم هذه اللغة إلّا أن اليراعة لا تجيب. ضوؤها الأخضر يبهت، يتحوّل

إلى الصفرة قبل أن يميل شيئاً فشيئاً إلى الحمرة. تفترض النّملتان أنّ هذا اللون الجديد يحمل تساؤلاً.

نحن تائهتان في عشّ الأرَضَة هذا، بثت المستكشفة العجوز.

بداية لا تجيب. بعد بضع درجات، تبدأ بالوميض، الذي قد يعبر عن الفرحة أو الغيظ، في حالة من الشكّ تنتظر النّملتان. ثمّ فجأة، تمضي اليراعة في ممرّ عرضي وهي تومض بسرعة أكبر. كما لو أنّها تريد أن تريهما شيئاً ما. فيتبعانها.

ها قد وصلتا إلى مكان أكثر برودة ورطوبة. يسمع صوت أنّاتٍ كئيبة، لا يعرف مصدرها. مثل صراخ استغاثة منتشر على هيئة روائح وأصوات.

تتساءل المستكشفتان. ولكن إذا لم تكن حشرة الضوء تتكلّم إلّا أنها تسمع جيداً. وكما لو أنّها تجيب عن سؤالهما تتوهج وتنطفئ بتواتر سريع، كأنها تقول: **لا تخافا اتبعاني.**

يتوغل الثلاثة في الطبقة الغريبة تحت الأرض، بهذه الطريقة، يصلون إلى منطقة شديدة البرودة، حيث الممرّات أكثر اتساعاً.

تعود الأنّات بقوّة متزايدة.

انتبهي! بثّت بغتة الرقم 4000

التفتت الرقم 103683. اليراعة تضيء شيئاً أشبه بوحش يقترب، وجه عجوز مجعّد، والجسد مغلّف بكفن أبيض شفّاف. تصرخ الجندية

رائحــة ذعر تضــع رفيقتيهــا في حالة مــن الذهول. تســتأنف المومياء تقدّمها، حتّى تنحني كما لو أنّها تريد أن تكلّمهم. في الواقع تتدحرج إلى الأمام. وترتمي بقســوة على الأرض، وهي متمدّدة تتفسّخ القشرة عنها ويتحوّل العجوز المسخ إلى مخلوق جديد...

إنّها حورية أرَضَة!

لا بــدّ أنّهــا كانت مســتندة إلى إحــدى الزوايا. تواصــل المومياء، مشــقوقة البطــن، ترنّحها مصــدرة أنّــات حزينة. ذلك كان مصــدر الصراخ إذاً.

يوجد الكثير من المومياءات، فالحشرات الثلاث كنّ في الحاضــنة. المئات من حوريات الأرَضَــة كانت مصــطفّة عاموديّاً على الجدران. تتفحّصــهم الرقم 4000 وتكتشف بأنّ بعضهم قد مات بسبب نقص الرعايــة. فيما تطلق الناجيات روائح الاســتغاثة لمنــاداة المربّيات. لقد مضــى عليهــم 2° علــى الأقــل دون أن يلعقهم أحــد، جميعهم الآن يموتون جرّاء نقص التغذية.

الأمــر لا يعقل، لم يحدث يوماً أن تخلّــت حشرة اجتماعيّة، حتّى ولــو 1°– زمنيّة، عن أفراخهــا. إلّا إذا... لمعت الفكرة ذاتها في ذهن النّملتــين. إلّا إذا... كانت جميع العاملات قد ماتت و لم يتبق ســوى الحوريّات!

تومض اليراعــة مجدّداً، وهي تشــير لهما أن تتبعاهــا داخل ممرّات جديــدة. تســود في الهــواء رائحة غريبة. تطــأ الجندية بأرجلها شــيئاً قاســياً. ليس لديها عُيَينات تستقبل الأشــعّة تحت الحمراء ولا ترى في

العتمة. يقترب المصباح الحيّ ويضيئ قرب أرجل الرقم 103683. إنّها جثّة جنديّة أرَضَة! إنّها شديدة الشبه بالنّملة إلّا أنّها بيضاء بالكامل وليس لها بطن منفصل...

مئات من هذه الجثث البيضاء تفترش الأرض. يا للهول ما هذه المجزرة! والغريب أنّ جميع الأجساد سليمة لم تمسّ. لم تحدث معركة! لا بدّ أنّ الموت كان صاعقاً. فالسكّان متصلّبون بوضعيّات العمل اليومي. يبدو أنّ بعضهم كانوا يتحادثون وآخرون يقصّون الخشب بين فكوكهم. ما الذي يمكن أن يتسبّب بمثل هذه الكارثة؟

تتفحّص الرقم 4000 هذه التماثيل الفاسدة، المشبعة بروائح واخزة. قشعريرة تعتري النّملتين. إنّه غاز مسمّم. هذا ما يفسّر كل شيء: اختفاء أوّل رحلة استكشافية مرسلة ضدّ عشّ الأرَضَة؛ آخر ناجٍ من ثاني رحلة استكشافيّة والذي نفق دون أيّ جرح.

وإذا كانتا لا تشعران بشيء فلأن الغاز المسمّم تبدّد منذ وقت طويل. ولكن لماذا بقيت الحوريّات على قيد الحياة؟ المستكشفة العجوز تبثّ احتمالاً، لديها مناعة دفاعيّة خاصة؛ ربما تكون شرنقتها قد أنقذتها... ولا بدّ أنّها قد لُقّحت الآن ضدّ السمّ. إنّها المناعة المشهورة التي تسمح للحشرات بأن تقاوم كافّة المبيدات منجبة أجيالاً متحوّلة.

ولكن من يمكن أن يكون قد أدخل هذا الغاز القاتل؟ إنّها مشكلة يصعب حلّها، وهي تبحث عن السلاح السرّي عثرت الرقم 103683 على «أشياء أخرى»، مبهمة بالقدر عينه.

تتمنّى الرقم 4000 أن تغادر. تومض اليراعة علامة موافقة. تعطي

النّملتــان بعضــ السـيللوز لليرقات التي يمكــن أن تنجو، ثمّ تمضــيان باحثتين عن مخرج. تتبعهما اليراعة. كلّما تقدّموا كانت جثث جنديّات الأرَضَة تتبدّل بجثث العاملات المكلّفة بالعناية بالملكة. لا تزال بيوضاً بين فكيّ بعضهن!

تزداد العمارة صـنعة وتعقيداً مع المضي قدماً. تأخذ الممرّات هيئة مثلّثـات منحوتة برموز. تغير اليراعة لونها وتبثّ ضـوءاً مزرقّاً. لا بدّ أنّها رأت شيئاً. بالفعل، يتناهى لهاث من آخر الممرّ.

يصل الثلاثة أمام ما يشبه معبداً محميّاً من قبل خمسة حرّاس عمالقة. جميعهم أموات. والمدخل مسدود بأجساد هامدة لنحو عشرين عاملة صغيرة. تزيحها النّملتان وهما تتناولانها من رجل إلى رجل.

كشف لهم كهف مكتمل التكوّر باكتمال تقريباً. المقصورة الملكيّة للأرَضَة. من هناك كان يأتي الصوت.

تضــيء اليراعة بنور جميل أبيض، يُظهرُ ما يشــبه بزّاقاً غريباً وسط الحجرة. إنّها ملكة الأرَضَــة، صورة كاريكاتورية لملكة النّمل. رأسها الصــغير وصــدرها الهزيل ممتدان ببطن هائل يقارب طوله خمســون رأس. تلك الزيادة المتضخّمة ترجّها تشنجات متواصلة.

يتخبّط الرأس الصــغير من الألم، ويصــدر صراخاً ســمعيّاً وشمّياً. كانت جثث العاملات قد سدّت الفتحة بطريقة جيدة منعت الغاز من التسلّل. لكن الملكة الآن تحتضر بسبب عدم العناية.

انظري إلى بطنها! الصغار يدفعون من الداخل وهي لا تستطيع أن تلد وحدها.

تتسلّق اليراعة السقف وتصدر بعفويّة ضوءاً برتقاليّاً يشبه الضوء الذي تسبح فيه لوحات جورج دولاتور[6].

بفضل الجهود المشتركة للنملتين، تبدأ البيوض بالسيلان من الكيس المنجب الضخم. إنّها حقّاً صنبور حياة. تشعر الملكة بالارتياح، وتكفّ عن الصراخ.

تسأل بلغة شمّية عالمية بدائية عمّن أنقذها؟ تفاجأ وهي تميّز روائح النّمل. هل هما نملتان مقنّعتان؟

النمال المقنّعة هي صنف يتميز جداً بمهارته في الكيمياء العضويّة. حشرات سوداء كبيرة تعيش في الشمال الشرقي. وتجيد إعادة إنتاج أيّ فيرومون بشكل صناعي سواء كان: جواز مرور، أو إشارة طرقيّة، أو تواصل... وذلك فقط بمزج سليم ومتقن لكلّ من النُسغ وغبار الطلع واللعاب.

وبعد أن تقوم بتحضير مزيج التمويه، بإمكانها مثلاً، دخول مدن الأرَضَة دون أن تلفت الانتباه. عندئذ تنهب وتقتل، دون أن تتمكن ضحاياها من تمييزها!

لا، لسنا نمالاً مقنّعة.

تسألهم الملكة الأرَضَة إذا كان ثمّة ناجون في مدينتها، تجيب

6. Georges de La Tour: فنان فرنسي (1593 – 1652)، عرف بلوحاته التي تعكس أجواء ليليّة وتحمل طابعاً دينيّاً.

النّملتان بالنفي. فتبثّ أمنية بأن تُقتل، وأن تختصر آلامها. ولكنّها قبل ذلك ترغب أن تفشي سرّاً.

أجل، تعرف الملكة كيف دمّرت مدينتها. فقد اكتشفت الأرضات منذ مدّة قصيرة النهاية الشرقيّة للعالم. خاتمة الكوكب إنّه بلد معتم، أجرد، وكلّ ما عليه مدمّر.

هناك تعيش حيوانات غريبة، سريعة جداً وشرسة. هم حرّاس نهاية العالم. مسلّحون بصفائح سوداء تسحق أيّ شيء. والآن، علاوة على ذلك، يستخدمون غازات سامّة!

هذا يذكّر بالطموح القديم للملكة بي - ستين - غا. وهو الوصول إلى إحدى نهايات العالم. أيكون ذلك ممكناً؟ النّملتان في حالة دهشة.

كانتا تظنان، إلى الآن، أنّ الأرض لشساعتها يستحيل الوصول إلى حافّتها. ولكن تلك النّملة الملكة تدعي بأنّ نهاية العالم ليست بعيدة من هنا! وأنّها محروسة من قبل وحوش... أيكون حلم الملكة بي - ستين - غا قابلاً للتحقيق إذاً؟

تبدو لهما هذه القصة كبيرة لدرجة أنّهما لا تعرفان بأيّ سؤال سوف تبدآن.

ولكن لماذا «حرّاس نهاية العالم» أولئك تقدّموا إلى هنا؟ وهل يريدون احتلال المدن الغربيّة؟

الملكة البدينة لا تعرف أكثر ممّا قالت. ولا تريد الآن غير الموت. تصرّ عليه. لم تتعلم كيف توقف قلبها. ينبغي قتلها.

لذا قطعت النّملتان رأس ملكة الأرَضَة بعد أن دلّتهما على طريق

المخرج. ثمّ أكلتا بعض البيوض الصغيرة، وتركتا المدينة المهيبة والتي ما عادت أكثر من شبح مدينة.

تضعان على المدخل فيرومونا يحمل حكاية المأساة التي حلّت بهذا المكان. لأنّه لا ينبغي لهما كمستكشفتين فيدراليتين أن تتقاعسا عن أيّ من واجباتهما.

تودّعهم اليراعة. لا بدّ أنها كانت قد تاهت في عشّ الأرض أيضاً وهي تحاول الاحتماء من المطر. الآن عاد الطقس جميلاً وستعود لتعيش رتابة حياتها المعتادة: تأكل، تبثّ النور لتجذب الإناث، تتكاثر... هذه هي حياة اليراعة!

توجّهان نظراتهما وقرنيهما صوب الشرق. من هنا لا تريان الكثير؛ لكنّهما أصبحتا تعلمان: إنّها نهاية العالم لم تعد بعيدة. إنّها هناك.

صدام الحضارات: تكون دوماً لحظة الاحتكاك بين حضارتين، لحظة على غاية من الحساسيّة. وبين أهم المراجعات التي عرفتها الكائنات البشريّة، يمكن ملاحظة حالة الأفارقة السود الذين اختطفوا كرقيق في القرن الثامن عشر. أغلب الشعوب التي استرقّت كانت تعيش على أراض متوغّلة داخل السهول والغابات. ولم يكونوا قد رأوا البحر. وفجأة يأتي ملك من الجوار ويشنّ حرباً عليهم دون سبب واضح، ثم عوضاً عن قتلهم، بدأ يأخذهم كأسرى، يقيدهم بالسلاسل ويدفعهم إلى السير نحو الشاطئ.

في نهاية تلك الرحلة كانوا يكتشفون شيئين غير مفهومين: 1) البحر المفرط الاتّساع، 2) البشرة البيضاء لدى الأوربيين. غير أنّ البحر، حتّى وإن لم يشاهدوه من

قبل، فقد عرفوه من خـلال الحكايات بوصفه بلاد الموتى. أمّا البيض، فكانوا بالنسبة لهـم أشبه بسكّان الفضاء، إذ كانت رائحتهـم غريبة، ولون بشرتهم غريب، وثيابهم غريبة.

كثير منهم كانوا يموتون خوفـاً، وآخرون من ذعرهم يلقون بأنفسهم من السفينة ليأكلهم سمك القرش. الناجون كانوا يتنقّلون من مفاجأة إلى أخرى. وما الذي كانوا يرونه؟ مثلاً، بيض يشربون نبيذاً و كانوا على يقين أنّ ذلك دم، دم أبناء جلدتهم.

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

الأنثى 56 تتضوّر جوعاً. ليس جسمها فحسب، وإنّما شعب بأكمله يطالب بحصّته من السعرات. كيف يمكن إطعام قطيع تحميه في داخلها؟ تقرّر الخروج من الحفرة المخصّصة لتبيض فيها، تجرّ نفسها مسافة بضع مئات من الرؤوس وتحضر ثلاث إبر صنوبر تلعقها وتمضغها بشراهة.

ذلـك لا يكفي. كانت تتمنّى أن تصطاد ولكن ليس لديها القوّة. وفي حـال لو فعلت ستجازف بأن تكون فريسة لآلاف المفترسين المنتشرين في الأرجاء. إذاً تغرز نفسها في حفرتها بانتظار الموت.

ولكن بدلاً عن الموت، بيضة هي التي تظهر. أوّل شليبوكانية لها! بالكاد شعرت بمجيئها. هزّت أرجلها المخدّرة وضغطت بكلّ إرادتها على أحشائها. يجب أن يحصل ذلك، وإلّا سينتهي كلّ شيء. تكرج البيضة، صغيرة، وسوداء تقريباً من كثرة ما هي رماديّة.

إذا تركتها تَفقِس فستنجب نملة ميّتة، وحتّى لو كانت حيّة... فلن تتمكّن من تغذيتها إلى أن تَفقِس. بالمحصّلة، تأكل بكر مواليدها.

يمنحها هذا مباشرة فائضاً من الطاقة. أصبح لديها بيضةً أقلّ في بطنها وبيضة أكثر في معدتها. بهذه التضحية تجد القوّة بأن تبيض بيضة ثانية، فتخرج صغيرة وداكنة مثل الأولى.

تتذوّقها. تشعر بتحسّن أكبر. البيضة الثالثة أفتح بقليل. رغم ذلك تلتهمها.

عند البيضة العاشرة تغيّر الملكة استراتيجيّتها. أصبحت بيوضها رماديّةً وحجمها يساوي كُرات عينيها. تبيض شلي - بو - ني ثلاثاً بهذه المواصفات، فتأكل واحدة وتترك اثنتين تعيشان، وتدفئهما تحت جسدها.

وبينما تُواصل البيض، تتحول تلك المحظوظتان إلى يرقتين طويلتين تبقى ملامحهما مجمّدة على تكشيرة غريبة. وتبدآن بالتذمّر مطالبتين بالطعام. تتعقد عملية الحساب. فبين كلّ ثلاثة بيوض، ينبغي أن تأكل واحدة واثنتان تغذّي بهما اليرقات.

وبهذه الكيفية، داخل دائرة مغلقة، يمكن إنتاج شيء من اللاشيء. حين تصبح يرقة بدينةً نوعاً ما، تعطيها لتأكل اليرقة الأخرى... إنّها الطريقة الوحيدة لتؤمّن لها البروتينات الضرورية من أجل تحويلها إلى نملة حقيقية.

ولكن اليرقة الناجية لاتزال جائعة. تلتوي، وتصرخ. وليمةُ أخواتها

لا تُسكت جوعها. في نهاية المطاف، تأكل شلي - بو - ني محاولتها الأولى في الحصول على ولد مكتمل.

ينبغي أن أستطيع فعل ذلك، ينبغي أن أستطيع فعل ذلك، كرّرت. فكّرت بالذكر 327 وباضت خمس بيوض فاتحة جداً دفعة واحدة. ابتلعت اثنتين وتركت ثلاثاً تكبر.

هكذا، من قتل أطفال إلى ولادة أطفال تتناوب الحياة. ثلاث خطوات إلى الأمام، خطوتان إلى الخلف. رياضة قاسية تفضي في النهاية إلى النموذج الأوّل لنملة مكتملة.

الحشرة صغيرة جدّاً وهزيلة إلى حدّ ما، بسبب سوء التغذية. ولكنها نجحت بإنجاب أوّل شليبوكانية لها! سباق أكل اللحوم لأجل تشييد مدينتها اجتاز نصف الطريق. تلك العاملة المترديّة بإمكانها أن تتحرّك بالفعل وتجلب غذاء من العالم المحيط بها: جثث حشرات، حبوب، أوراق، فطور... وهذا ما فعلته.

أخيراً، بفضل التغذية الطبيعيّة، تنجب شلي - بو - ني بيوضاً فاتحة اللون وأكثر تماسكاً. قشور البيض المتينة تقي داخلها من البرد. أصبحت اليرقات بحجم مقبول. والأولاد الذين فقّسوا من هذا الجيل الجديد كبار الحجم وأقوياء. وسوف يشكلون عماد شعب شلي - بو - كان.

أمّا بخصوص العاملة الأولى المعتلّة، والتي سمحت بتغذية الملكة، فقد أعدمت من قبل أخواتها وأكلت. بعد ذلك، كل الجرائم والأوجاع التي مهّدت لولادة المدينة أصبحت طيّ النسيان.

شلي – بو – كان ولدت للتوّ.

بعوض: هي الحشرة الأكثر استعداداً للمبارزة مع الإنسان. كلّ واحد منّا وجد نفسه يوماً واقفاً على السرير بالبيجامة يمسك بيده الخفّ، والعين تترقّب السقف الخالي.

ثمّة سوء فهم للموقف برمّته. فما يسبّب الحكّة ليس سوى لعاب خرطومها المطهّر، والذي دونه يمكن لأية لسعة أن تلتهب. وعلاوة على ذلك، يكون البعوض حذراً على الدوام بألّا يلسع إلّا بين نقطتين من نقاط استقبال الألم!

في مواجهته مع الإنسان، تطورت استراتيجية البعوض. تعلّم أن يكون أسرع، ولا يلفت الانتباه، وأنشط عند الإقلاع. تزداد صعوبة التقاطه يوماً بعد آخر. لا يتردّد بعض الشجعان من الجيل الأخير بالاختباء تحت وسادة ضحيتهم. اكتشفوا مبدأ «الرسالة المسروقة» لإدغار آلان بو: أفضل مخبأ هو ذلك الذي يفقأ العين، لأننا نفكّر دائماً بالبحث بعيداً عن الشيء الموجود لصقنا.

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

تأمّلت الجدّة أوغستا حقائبها المعدّة. غداً ستنتقل إلى شارع السيباريت. يبدو الأمر لا يصدّق، لكنّ إدمون توقّع اختفاء جوناثان وسجّل بوصيّته: «إذا مات جوناثان أو اختفى دون أن يترك وصيّة، أتمنى أن تكون أوغستا ويلز، أمي، هي من تقيم في شقّتي. وإذا هي اختفت أو

رفضت هذا الميراث، أتمنى أن يرث الشقّة البروفيسور روزنفيلد؛ وإذا هو نفسه رفض أو اختفى، فبإمكان جازون براجيل أن يأتي ويسكن...»

ينبغـي الاعتراف على ضـوء الأحداث الأخيرة، بـأن إدمون لم يكن مخطئـاً عندمـا احتاط للأمر وسـمّى أربعـة ورثة. لكنِ أوغسـتا لم تكن متطيّرة، وهي على يقين أنه حتّى ولو كان إدمون كارهاً للبشر فليس لديه سبب ليتمنى الموت لأمّه أو لابن أخته. أمّا جازون براجيل، فقد كان أعزّ أصدقائه!

فكرة غريبة خطرت لها. كأن إدمون كان يبحث عن إدارة المسـتقبل كما لو أنّ... كلّ شيء سيبدأ بعد موته.

مضـت أيّام، وهما تسـيران صـوب الشـمس المشرقة. صحة الرقم 4000 تـزداد تدهـوراً، ولكـنّ المحاربة العجـوز تواصـل التقدّم دون شـكوى. فهي تملك في الحقيقة شـجاعة وفضـولاً يجعلانهـا ثابتة أمام جميع المحن.

ما بعد ظهيرة أحد الأيّام، وبينما كانتا تتسـلّقان جذع شجرة بندق، تجـدان نفسـيهما محاطتين مـن قبل النّمـل الأحمر. المزيد بعـد من هذه الحيوانـات الجنوبيّة التي تريد أن ترى بلاداً جديدة! أجسـادها متطاولة ونهاياتهـا مـزوّدة بإبرة سـامّة، يعرف الجميـع بأنّ أدنـى تلامس معها سيؤدي إلى الموت المباشر. تتمنّى الصهباوان لو كانتا في مكان آخر.

باسـتثناء بضـع مرتزقات خليعات لم ترَ الرقم 103683 يوماً النمال الحمـر في العـالم الرحـب. بالفعـل، أراضـي الشرق تسـتحقّ مشـقّة الاكتشاف.

تتحرّك القرون. النمال الحمر تجيد التواصل بلغة البيلوكانيين ذاتها.

ليس لديكم فيرومونات جواز المرور الصالحة. أخرجا! هذه أرضنا.

تجيب الصهباوان بأنهما تريدان المرور فقط، وأنّهما ترغبان في المضي إلى النهاية الشرقيّة للعالم. تبدأ النمال الحمر بالتشاور.

تعرّفوا على الاثنتين وعرفوا أنهما من فيدرالية الصهباوات. صحيح أنّ الفيدراليّة بعيدة، لكنّها قويّة (64 مدينة قبل التطريد الأخير) وشهرة جيوشها اجتازت النهر الغربي. يستحسن أن لا يبحثوا عن أسباب للصراع. وحتماً، سيضطر الحمر في يوم ما، والذين هم صنف مهاجر، إلى المرور ضمن أراضي فيدرالية الصهباوات.

تهدأ تدريجيّاً حركات القرون. حان وقت الخلاصة. إحدى الحمراوات تنقل رأي المجموعة:

يمكنكما قضاء ليلة هنا نحن مستعدون أن ندلّكما على الطريق المفضي إلى نهاية العالم، وحتّى أن نصحبكما إليه. وبالمقابل ستتخلّون لنا عن بعض فيرومونات التعريف.

المقايضة عادلة. تعرف المستكشفتان 103683 و4000 أنّه بإعطاء فيروموناتهما تهديان الحمراوات إذناً ثميناً بالمرور في كافّة الأراضي الفيدراليّة الشاسعة. غير أنّ التمكّن من الوصول إلى نهاية العالم والعودة منها لا تقدّر بثمن...

أرشدهم مضيفوهم إلى المخيم، والذي يقع أعلى ببضعة أغصان. ذلك لا يشبه شيئاً معروفاً. النمال الحمر، اللواتي يمارسن النسيج

والخياطـة، أقامت عشّـها المؤقـت بخياطة حوافّ ثـلاث أوراق من شجرة البندق. تكون واحدة بمثابة أرضيّة، والاثنتان الباقيتان كجدران جانبيّة.

تراقـب الرقمـان 103683 و4000 مجموعـة مـن النسّـاجات مشغولات بإغلاق «السقف» قبل حلول الليل. يخترنّ إحدى ورقات شـجرة البندق لكي تصبح سـقفاً. ولكي يجمعن الورقة مع الورقات الثلاث الأخريات، يشـكّلن سـلّماً حيّاً، تتكدّس عشرات العاملات فوق بعضهنّ بعضاً، لينشئوا تلّاً يصل إلى الورقة –السقف.

ينهار التلّ عدّة مرات. إنّها عالية جداً.

فتغـيّر الحمراوات أسـلوبها. مجموعة من العاملات تتسـلّق الورقة –السقف، يتشـبّثن ببعض مشكّلات سلسـلة تتدلّى من طرف النبتة، تهبط السلسـلة شيئاً فشيئاً لكي تصل إلى السلّم الحيّ الذي لا يزال في الأسفل. لايزال بعيداً جداً، تُثقّل آخر السلسلة بعنقود من الحمر.

تقريبـاً انتهى الأمر، تنحني سـاق الورقة. لا ينقص إلّا سـنتمترات إلى اليمين. يبدأ نمال السلسـلة بالتأرجح مثل رقّاص السـاعة لتقليص الفـارق. كانت السلسـلة تتسـع مـع كلّ تأرجح، تبدو على وشـك الانقطاع إلّا أنّها تظلّ متماسـكة. أخيراً تتصـل فكوك البهلوانات في الأسفل والأعلى مع بعضها، تشاك!

المنـاورة الثانية: تقصـير السلسـلة. تخرج العامـلات اللواتي في المنتصـف مـن السلسـلة باحتراس مفرط، وتصـعدن علـى أكتاف زميلاتهـنّ، ويأخذ الجميع بالشـدّ مقرّبين بين الورقتـين. تميل الورقة

–السقف رويداً رويداً نحو القرية، ناشرة ظلّها على الأرضيّة.

ولكن، بعد أن أصبح للعلبة غطاء، ينبغي الآن لصقه. فتندفع حمراء عجـوز داخل منزل وتعاود الخـروج ملوّحة بيرقة بدينة. هذه هي أداة النسيج.

تسوّى حوافّ الورقتين بشـكل متواز، مع المحافظة على بقائهما علـى تماس. ثمّ يجري إحضـار يرقـة طازجة. كانت المسـكينة تحوك شرنقتها لتجري عملية انسلاخ جلدها بهدوء، لن تتاح لها هذه المتعة. تمسـك عاملة طرف خيط من تلك الكبّـة وتبدأ بإفراغها. مع قليل من اللعاب تلصق طرف الخيط على ورقة ثمّ تمرّر الشرنقة إلى جارتها.

حين شـعرت اليرقة بأنّ خيطها يُسـحب، تعيـد إنتاج خيط جديد لتعوّضـ. كلّما تعرّت، تبرد، وكلّما بردت تبصـق حريرها. تسـتغل العاملات ذلك. تمرّر ذلك المكوك الحي من فكّ إلى فك دون أن يبخلن بكمّية الخيط المسـتخدمة. وحين يموت طفلهـم، منهكاً، تحضر آخر. بهذه الطريقة تمّ التضحية باثنتي عشرة يرقة لإنجاز هذا العمل وحده.

يبدو مظهـر القرية بعد إغلاق الجانب الثاني من الورقة –السـقف أشـبه بعلبة خضراء مع درز أبيضـ بارز. تلاحظ الرقم 103683 وهي تتجوّل داخل القرية، كما لو كانت في قريتها، أكثر من مرّة نمالاً سوداء وسط حشود النمال الحمر. فلم تتمكن من منع نفسها عن السؤال.

أولئك مرتزقات؟

لا، إنّهن رقيق.

مـع أنّ الحمـر لا يعـرف عنهـن تقاليـد الـرقّ... تبـادر إحدى الحمـراوات لتشرح أنّهنّ صـادفن منذ مـدّة وجيزة قبيلـة من النمال المُسْـترِقّات واللواتي كنّ مترحلات صـوب الغـرب، وتبادلوا آنذاك بيوضاً لنمال سود مقابل عشّ منسوج يسهل حمله.

لم تفلـت الرقـم 103683 محاورتها بسـهولة وسـألتها إذا كانت انتهـت المقابلة إلى عراك. تنفي الأخرى، وتضـيف بأنّ النمال المرعبة كانت مترعة، ولديها فائض من الرقيق، علاوة على أنّهم كانوا يخشون إبرة الحمر السامّة.

كانت النمال السـود الخارجة من البيض المقايض عليه، قد أخذت روائـح جواز مرور مضـيفيهنّ وكنّ يخدمنهم كما لـو كانوا أهلهنّ. ومـن أين لهنّ أن يعرفن أن مورثاتهنّ تجعل منهن مفترسـات لا رقيقاً؟ فهن لا يعرفن عن العالم شيئاً خارج مالقنهم إيّاه الحمر.

وأنتم ألا تخافون أن يتمرّدوا عليكم؟

صـحيح، سـبق وأن حصـلت بعض التمرّدات. لكنّ الحمراوات عمومـاً كنّ يسـتبقن الأحداث بالقضـاء على المقاومـات المتفرّدات. مادامـت السـوداوات لا يعرفن أنّهنّ نُهبن من عشّ، وأنّهنّ جزء من صنف آخر، فلا حافز حقيقيّ لديهنّ...

الليل والبرد يهبطان على شـجرة البندق. تخصّص للمستكشفتين زاوية يمضون فيها سُباتهم الليليّ القصير.

تبدأ مدينة شلي – بو – كان بالتوسّع تدريجيّاً. أُسّست المدينة المحرّمة أوّلاً. لم تبنَ داخل أرومة، ولكن داخل شيء غريب مدفون هناك؛ علبة صدئة، احتوت في الماضي على 3 كيلو غرامات من هريسة الفاكهة، هي نفاية مأوى قريب للأيتام.

في ذلك القصر الجديد، وبينما كانت تُزقّ بالسكر والدهون والفيتامينات، أخذت شلي – بو – ني تبيض بجنون.

أشاد بناتها الأوائل تحت المدينة المحرّمة حاضنة مدفّأة بدبال في حالة التحلّل. هذا أكثر فعاليّة بانتظار قبّة الغصينات والغرفة الشمسية واللتين باكتمالهما ستنتهي ورشة الأشغال.

تريد شلي – بو – ني لمدينتها أن تتمتّع بكافّة التكنولوجيات المعروفة: المفاطر، نمل الصهاريج، قطعان دوابّ الأرْقة، نباتات اللبلاب الداعمة، قاعات تخمير العُسيل، قاعة طحن الحبوب، قاعات المرتزقات، قاعة الجواسيس، قاعة الكيمياء العضوية، الخ.

جلبة العمل في كلّ الأرجاء، فقد عرفت الملكة الشابّة كيف تنقل لهم حماسها وآمالها. لا تقبل بأن تكون مدينة شلي – بو – كان كسائر مدن الفدرالية الأخريات. تطمح بأن تجعل منها مركزاً رائداً، والأكثر حداثة ضمن الحضارة النّمليّة. تفيض بالمقترحات.

مثلاً، اكتشف حول الطبقة 12 تحت الأرض جدول ماء جوفيّ. برأيها أنّ عنصر الماء لم يلق الاهتمام الكافي. إذ يجب إيجاد طريقة للسير عليه.

في المرحلـة الأولى، يكلّف فريق بدراسـة الحشرات التي تعيش في المياه العذبة: الخنافس العوميـات، حشرات السـيكلوب، وبراغيث المـاء... هل هي صـالحة لـلأكل؟ وهل بالإمـكان تربيتهـا يوماً ببرك مراقبة؟

أوّل كلمة معروفة لها تلقيها حول موضوع الأرْقات:

إنّنـا مقدمون على فترة مـن الاضطرابـات الحربيّة. والأسلحة تـزداد تطوراً باضطـراد. لـن نتمكن دوماً من اللحاق بموكب التطور. ربّمـا يأتي يوم يتوقف فيه الصيـد في الخارج على المصادفة. يجب علينا توقّـع الأسوأ. ينبغي أن تمتدّ مدينتنا إلى أقصـى عمـق نستطيعـه. وعلينـا أن نعتمد على تربيـة الأرْقـة ونفضّل تموينها مـن السكر الحيـوي على كافّة الأنـواع. تلك الماشية ستوضـع في حظائر تقع في الطبقات السفلى...

ثلاثون من بناتها يخرجن في رحلة ويعدن ومعهنّ اثنتان من الأرْقة على وشك الولادة. بعد بضع ساعات يحصلن على نحو مئة من صغار الأرْقة التي تقطع أجنحتها. توضـع النواة الأولى للقطيع في الطبقة 23 تحت الأرض، محميّة بشكل جيّد من الدعاسيق، وتزوّد بكميات وفيرة من الأوراق الطازجة والسيقان الغنية بالنسغ.

ترسـل شـلي – بو – ني مستكشـفات في شـتّى الاتّجاهات. يعود بعضهن محمّلات بأبواغ فطر الغاريقون والذي يزرع لاحقاً في المفاطر. الملكة المولعة بالاكتشافات تقرّر أن تحقّق حلم أمّها أيضاً: فتزرع خطّاً من بذور زهـور آكلات اللحم على الحدود الشرقيّة. تأمل بأن تتمكّن بهذه الطريقة أن تُبطّئ هجوماً محتملاً للأرضات ولسلاحهن السرّي.

لأنّها لم تنس لغز السلاح السرّي، وقتل الأمير 327 والمؤونة الغذائية المخبّأة تحت الغرانيت.

ترسل مجموعة من السفيرات باتجاه بيل - أو - كان. مهمّتها الرسمية تتلخص بإعلام الملكة الأم عن تأسيس المدينة الخامسة والستين والتحاقها بالفيدراليّة. وأمّا مهمتها غير الرسميّة، فتقضي بمحاولة متابعة التحقيق في الطبقة 50 تحت الأرض في بيل - أو - كان.

بينما كانت أوغستا تغرز صورها الثمينة ذات اللون البنيّ الداكن على الجدران الرماديّة، يقرع الجرس. تتأكد أن سلسلة الأمان في مكانها وتشقّ الباب.

كان يقف رجل بعمر متوسط، العناية واضحة على هيأته؛ حتّى القشرة لا تظهر على سترته.

– صباح الخير، سيدة ويلز. أقدّم نفسي: البروفسور لوديك زميل ابنك إدمون. سأوجز. لقد عرفت أنّك خسرت حفيدك وابنه داخل القبو. وبأنّ ثمانية من رجال الإطفاء وستّة شرطيين ومفتّشين اختفوا فيه بالطريقة عينها. ومع ذلك سيّدتي... أرغب في النزول إليه.

لم تكن أوغستا متأكّدة أنّها سمعت جيّداً. عايرت سمّاعة أذنها بوضعها على الحدّ الأقصى.

– حضرتك البروفسور روزنفيلد؟

– لا، لوديك. البروفسور لوديك. أرى أنّ حضرتك سمعت بروزنفيلد، نحن الثلاثة روزنفيلد وإدمون وأنا، ثلاثتنا علماء حشرات. لدينا اختصاص مشترك هو دراسة النّمل، لكن إدمون كان متقدّماً علينا. وسيكون من المؤسف ألا ندع البشريّة تستفيد ممّا وصل إليه... لذا أرغب في النزول إلى قبوكم.

حين لا نسمع جيداً ننظر بإمعان. تفحّصت أذني ذلك اللوديك. ميّزة لدى الإنسان بأنّه يحتفظ بماضيه الأقدم؛ وفي هذا الصدد تمثّل الأذن الجنين. فترمز شحمة الأذن إلى الرأس، ونتوء الصيوان يعطي شكل العمود الفقري، الخ. لا بدّ أنّ ذلك اللوديك كان جنيناً ضعيفاً، وأوغستا لم تكن تحبّذ كثيراً الأجنّة الضعيفة.

– وما الذي تأمل أن تجده في هذا القبو؟

– كتاب. الموسوعة التي كان يدوّن فيها تلقائياً جميع أبحاثه. إدمون كان كتوماً. لابدّ أنه قد دفن كلّ شيء هناك في الأسفل، واضعاً أفخاخاً لقتل أو إبعاد الجهلة. ولكن أنا، ذاهب وعارف، والرجل العارف...

– ... يمكن له أن يقتل بشكل محقّق! أردفت أوغستا.

– دعيني آخذ فرصتي.

– تفضل أستاذ...؟

– لوديك، بروفسور لوران لوديك من مخبر المركز الوطني الفرنسي للبحث العلمي 352.

أوصلته إلى القبو. كان مطليّاً على الجدار الذي أقامته الشرطة عبارة مكتوبة بأحرف عريضة حمراء:

لا نزول بعد اليوم

إلى هذا القبو الملعون!!!

أومأت إلى العبارة بطرف ذقنها.

– أتعرف ماذا يقول سكّان هذه العمارة عن القبو سيد لوديك؟ يقولون إنّه فم جهنّم. يقولون، إنّ هذا المنزل آكل لحوم وإنّه يأكل البشر الذين يحكّون بلعومه... بعضهم يطالب بأن يصبّ بالإسمنت

رمقته من الأعلى إلى الأسفل.

– ألا تخاف أن تموت سيد لوديك؟

– بلى، قال، وابتسم باستخفاف. بلى، أخاف أن أموت غبيّاً، دون أن أعلم ما الذي يخفيه قاع هذا القبو.

منذ بضعة أيام ترك الرقمان 103683 و4000 عشّ النسّاجات الحمر. ترافقهما محاربتان بإبرتين حادتين. سرنَ سويةً لوقت طويل على طرق بالكاد معطّرة بفيرومونات الإشارات الطرقيّة. اجتزن مسافة آلاف الرؤوس منذ أن تركوا العشّ المَخيُوط على غصون شجر البندق. صادفن أنواعاً كثيرة من حيوانات غريبة لا يعرفن حتّى أسماءها. يتفادينها على الشُبهة.

حين يحين الليل، يحفرن في الأرض أعمق ما يستطعن ثمّ يتوغّلن داخلها متمتّعات بالدفء اللطيف وحنان كوكبهنّ الأم.

أوصلتهما الحمراوان إلى قمّة هضبة. ألا تزال نهاية العالم بعيدة؟

طريقها من هناك.

من أعلى هضبتهن، تكتشف الصهباوان على مد نظرهما، عالماً من الدغل الداكن يمتدّ صوب الشرق، تبلغهما الحمراوان أنّ مهمّتهما انتهت، وليس بوسعهما مرافقتهما أبعد من ذلك. إذ أن روائحهم غير مرحّب بها في بعض الأماكن.

ينبغي على البيلوكانيتين أن تستأنفا طريقهما قدماً إلى حقول الحاصدات. اللواتي يعشن دوماً على مقربة من «حافّة العالم»؛ وسيكون بمقدورهن بلا ريب تزويدهما بالمعلومات.

تسلّم الصهباوان، قبل أن تغادرا دليلتيهما، فيرومونات التعريف الثمينة التي تخصّ الفيدراليّة، الثمن المتفق عليه للرحلة. ثمّ تهبطان المنحدر مسرعتين باتّجاه الحقول المزروعة من قبل الحاصدات ذائعات الصيت.

الهيكل العظمي: أيستحسن أن يكون الهيكل العظميّ داخل الجسد أم خارجه؟

حين يكون الهيكل العظمي في الخارج، يكون بمثابة هيكل واق. النسيج العضلي بمأمن من المخاطر الخارجيّة لكنه يصبح مترهلاً وسائلاً تقريباً. وحين تنفذ وخزة إليه رغم الدرع، لا علاج للأضرار الناجمة.

وحين لا يكون الهيكل العظمي أكثر من عمود نحيف وقاس داخل الكتلة، يكون النسيج العضلي الحي عرضة للأضرار الخارجية، وتتعدد الإصابات وتتواصل. ولكن هذا الضعف الظاهر على وجه التحديد يجبر العضلة على أن تقسو والألياف على أن تقاوم. فيتطوّر النسيج العضلي.

رأيت بشراً شكّلوا بفضل فكرهم دروعاً «فكريّة» تقيهم من الغمّ. كان التماسك يبدو عليهم أكثر من المعدّل الطبيعي. كانوا يقولون «أنا لا أبالي» ويسخرون من كلّ شيء. ولكن حين يتمكّن اضطراب من النفاذ إلى درعهم تكون الأضرار فادحة.

رأيت بشراً يعانون من أدنى غمّ، من أدنى خدش، ولكن هذا لم يكن سبباً لإغلاق باب التفكير لديهم، كانوا يحافظون على حساسيتهم لكل ما يطرأ ويتعلّمون من كل اعتداء.

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

المُسْتَرِقّات يهجمن!

ساد الذعر في شـلي – بو – كان. المستطلعون ينشرون الخبر، وقد نال منهم الوهن، داخل المدينة الشابّة.

المُسْتَرِقّات! المُسْتَرِقّات!

سبقتهم سُـمعتهم المرعبة. فكما فضّلت بعض النمال مجالاً للتنمية مـن خلال – تربيـة الحيوانـات، التخزيـن، زراعة الفطور وممارسـة الكيمياء –اختصّت المُسترِقّات في مجال الحرب فقط.

لا تجيد فعل شـيء آخر، غير أنها تمارسـه كفنّ مطلق. وأجسـادها تكيّفت مع ذلك. فأقلّ مفصـل من مفاصـلها ينتهـي بنتوء معقوف، سـمك الكيتين لديها ضعف مثيله عند الصهباوات. رأسها ضيّق على هيئـة مثلث تماماً لا يعطي ممسـكاً لأيّ مخلب. فكوكها، تأخذ شـكل أنياب فيل معكوسة، سيفان محنيّان يستخدمانهما بمهارة مرعبة.

أمّا فيما يخصّ تقاليد الاسـترقاق لديها، فقد أتت انعكاسـاً طبيعيّاً لاختصاصـهن المتطرّف. كادت رغبتها في السلطة أن تمحو جنسها. من كثرة ما تحارب، لا تعرف أولئك النمال كيفيّة بناء العشـوش، ولا تربيـة الصـغار، ولا حتّى... أن تعـدّ طعامها. فكوكها -السـيوف، الفعّالة جـداً في المعارك لا تُظهر ذات الأداء أثناء تناول الطعام. ولكن رغم ولعهنّ بالقتال، فإنّ المُسـترِقّات لسـن غبيّات. وبما أنهنّ لم يكن قادرات على القيام بالأشـغال المنزليّة اليوميّة والتي لا غنى عنها للبقاء على قيد الحياة...، كان على آخرين التكفّل بهذه الأعمال نيابة عنهنّ.

تهاجم المُسـترِقّات على نحو خاص العشـوش الصغيرة والمتوسّطة للنمال السـود، البيض أو الصـفر -جميع الأصناف غير المزوّدة بإبرة أو غـدّة تفرز حمض النّمليك. في البداية يحاصرن القرية المسـتهدفة. وأوّل ما تكتشـف المحاصرات بأنّ جميـع العاملات اللواتي يخرجن يقتلـن، تقرّر سـدّ المداخل. عند هذه اللحظة يختار المُسـترِقّات القيام بهجمتهنّ الأولى. يخترقن بسـهولة خطوط الدفاع، ويحدثن ثغرات في سور المدينة، وينشرن الهلع في الممرّات.

عندئذ تحاول العاملات المذعورات إيجاد مخرج يسـمح لبيوضهنّ بأن تكون في مأمن. تماماً، كما توقّع المُسـترِقّات. فيبدأنَ حينها بإقامة

الحواجز عند المخارج ويجبرن العاملات على التخلّي عن حملهنّ الثمين، ولا يقتلن إلّا من يرفض الانصياع لأوامرهنّ؛ عند النّمل ليس ثمّة من قتل مجّاني، البتّة.

عند نهاية المعارك، تحاصر المُسترِقّات العشّ، ويطلبن من العاملات الناجيات أن يعدن وضع البيوض مكانها ومواصلة العناية بها. وحين تفقس تربّى الحوريات من أجل خدمة الغازيات وبما أنّها لا تعلم شيئاً عن الماضي، يعتقدن أنّ إطاعة تلك النمال الضخام هي الطريقة الأمثل لحياة طبيعية.

أثناء الغارات، تبقى المُسترَقّات الأقدم في الخطوط الخلفيّة، مختبئات بين الأعشاب، بانتظار أن تمشّط سيّداتها المنطقة. وبعد أن تحسم المعركة، تتركّز تلك الرقيقات في الأماكن كربّات منازل جيّدات، تخلط الغنيمة القديمة من البيوض بالجديدة وتربّي سويّة الأسيرات والصغار الذين بعهدتها. وهكذا تتكدّس أجيال المختطفات تبعاً لترحّل قراصنتها.

على العموم، تحتاج كل محتكرة إلى ثلاث رقيقات يقمن على خدمتها. واحدة تتكفّل بإطعامها (لا تستطيع أن تأكل سوى طعام مجترّ يزقّ لها زقاً)؛ وواحدة تنظّفها (إذ أنّ غددها اللعابية ضامرة)؛ وواحدة لإخراج فضلاتها والتي إذا تركت تتجمّع حول درعها وتتآكله.

ولا شيء بالطبع يسوء هاتيك الجنديّات المحضة سوى أن تهجر من قبل خادماتها. حينئذ تهرع خارج العشّ المسروق باحثة عن مدينة

جديدة تجتاحها. إذا لم تجدها قبل الليل يمكن أن تموت من الجوع والبرد. الميتة الأكثر عبثيّة لهؤلاء المحاربات الرائعات!

سبق وأن سمعت شلي - بو - ني ملاحم عديدة عن المُسترِقّات. يقال إنّ ثورات للرقيق قد اندلعت في الماضي، ويقال بأنّ الرقيقات اللواتي كنّ يعرفن سيّداتهنّ جيّداً لم تكن خاسرات دوماً. ويحكى أيضاً أنّ بعض المُسْتَرِقّات يجمعن بيوض النّمل بغرض أن يكون لديها من كافّة الأحجام والأصناف.

تخيّلت قاعة ممتلئة بجميع تلك البيوض وبكافّة الأحجام والألوان. وتحت كلّ قشرة بيضاء... بذرة نمليّة محدّدة، جاهزة بأن تستيقظ لخدمة تلك الوحوش البدائيّة.

تنتزع نفسها من هذا الشرود الصعب. يجب التفكير بداية في صدّها. أعلن أنّ قطيع المُسْتَرِقّات قادم من الشرق. المستطلعون والمستكشفون الشليبوكانيون يؤكدون أنهنّ بين أربعمائة إلى خمسمائة ألف جنديّة. اجتزن النهر مستخدمات ممرّ مرفأ ساتيي تحت الأرض. ويقال: إنّهنّ «مغتاظات» فلأجل اجتياز النفق اضطررن للتخلي عن عشّ متنقل من أوراق منسوجة. لذا لم يعد لديهنّ مسكن، وإذا لم يتمكنّ من السيطرة على شلي - بو - كان، فسيجبرن على أن يبتن ليلتهن في العراء! تحاول الملكة الشابّة أن تفكر بأهدأ ما تستطيع:
إذا كانت سعيدة إلى هذا الحدّ بعشّها المتنقّل المنسوج، فلماذا شعرت بضرورة اجتياز النهر؟ لكنّ الجواب لم يكن غائباً عنها.

المُسْتَرِقّات تكره المدن، تكرهها بشكل عميق ومبهم في الوقت

عينه. وكلّ مدينة تمثّل لأجلها تهديداً وتحدّياً. إنّها منافسة أزليّة بين أهل السّـهوب وأهل المدن. إلّا أنّ المُسْـترِقّات يعرفن أن في الجهة الأخرى مـن النهر توجد مئات من مدن النّمـل، وكل واحدة أغنى وأرقى من الأخرى.

للأسف لم تكن شـلي – بو – كان مستعدّة بعد لمثل هجوم كهذا. صحيح، أن المدينة تطفح هذه الأيّام بنحو مليون ساكن، وصحيح، أنّ جـداراً من النباتات آكّلات اللحوم رفع في الجهة الشرقيّة... لكنّ كلّ ذلـك لا يكفي أبداً. تعرف شـلي – بـو – ني أن مدينتها لا تزال فتيّة، وغـير معتادة بعد على خشـونة الحرب. علاوة على ذلك، لم تصـلها إلى الآن أخبار عن السـفيرات اللائي أرسـلتهنّ إلى بيلوكان لكي تبلغ عـن انتمائها إلى الفيدراليّة. لذا لا يمكنها الاعتماد على تضـامن المدن المجاورة. وحتّى غابي – تيولو تفصل بينهما بضعة آلاف من الرؤوس، يستحيل إنذار سكان ذلك العشّ الصيفي...

كيف كانت الأمّ ستتصرّف في مثل هذه الحالة؟ قرّرت شلي – بو – ني أن تجمع نخبة من أمهر الصـيّادات (واللواتي لم تتح لهنّ بعد فرصة إثبـات أنهنّ محاربـات) من أجل إجراء اتصـال مطلـق. الأمر طارئ ويحتاج لوضع خطّة عاجلة

كـنّ لا يزلن مجتمعات في المدينة المحرّمة لمّا أعلن حرّاس الشـجيرة التي تظلّل شلي – بو – كان، أنّ روائح جيش مسرع بدأت تلحظ.

الجميع يتهيّأ. لم يتسـنّ لهنّ وضع أيّة خطة. ينبغي الارتجال. يُعطى الأمـر بالتهيؤ للمعركـة، تتجمّع الفيالق كيفما اتفق (لا يعرفون شـيئاً

عن الخبرة المكتسبة والتي دفع ثمنها غالياً إبّان مواجهة القزمات).
في الواقع معظم الجنديّات يفضلن أن يضعن آمالهنّ في جدار نباتات آكلات اللحم.

في مالي: في مالي، يعتبر شعب الدوغون أنه عندما حدث الاقتران بين السماء والأرض، كان العضو التناسلي للأرض عشّ نمل.

لمّا اكتمل العالم الذي نتج عن ذلك النكاح، أصبح الفرج فماً، خرجت منه الكلمة ودعائمها المادّية: تقنية النسيج، والتي نقلها النمل إلى البشر.

ولا تزال حتّى اليوم طقوس الخصب عندهم مرتبطة بالنملة. النساء العقيمات يذهبن ويجلسن على عشّ نمل ليطلبن من الإله «أمّا» أن يمنحهنّ الخصوبة.

ولكن النمل لم يقدم للإنسان ذلك فقط، أروهم أيضاً كيف يعمّرون منازلهم. وأخيراً دلّوهم إلى الينابيع. لأنّ قبائل الدوغون فهموا أنّ عليهم أن يحفروا تحت عشّ النمل ليعثروا على الماء.

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

يبدأ الجراد بالقفز في شتّى الاتجاهات. هذه علامة. وراء ذلك الجراد، بدأت النمال المزوّدة ببصر حاد، تلمح عموداً من الغبار.

أن يحكى عن المُسْترِقّات شيء، وأن تراهنّ هاجمات شيئاً آخر

تماماً. لم يكن لديهنّ سلاح خيّالة هنّ أنفسهن الخيّالة. أجسادهنّ مرنة بكاملها وقويّة وأرجلهنّ ثخينة وعضليّة، رؤوسهنّ منسابة وحادة ممدّدة بقرون متحرّكة والتي هي في الواقع فكوكهنّ.

ديناميكيتها الهوائيّة مكونة بطريقة تجعل جمجمتها لا تصدر أيّ صفير وهي تشقّ الهواء، مأخوذة بسرعة أرجلها.

ينحني العشب لدى مرورها، ترتجف الأرض، وتتموّج الرمال. قرونها الموجّهة للأمام تترك فيرومونات لاذعة إلى حدّ تبدو معه أشبه بالصراخ.

هل ينبغي أن نغلق على أنفسنا ونقاوم الحصار من الداخل أو أن نخرج ونحارب؟ شلي - بو - ني حائرة، خائفة من المجازفة حتّى باقتراح. لذا تقوم الجنديّات الصهباوات بما لا يجب حتماً القيام به. ينقسمن. نصف يخرج لمواجهة العدو دون تغطية؛ ونصف يظل مختبئاً داخل المدينة كقوة احتياطيّة ومقاومة في حالة الحصار.

تحاول شلي - بو - ني أن تستعيد ذكريات معركة الخشخاش، المعركة الوحيدة التي عرفتها. ويبدو لها، أنّ سلاح المدفعيّة هو أكثر من أحدث أضراراً في صفوف العدوّ. تأمر على الفور بأن تكون ثلاثة صفوف من المدفعيّة في الخطوط الأولى.

حالياً فيالق المُسْتَرِقّات تهجم على جدار النباتات آكّلات اللحم. الوحوش النباتية تنحني لدى مرورها منجذبات برائحة اللحم الدافئ. لكنّها بطيئة جداً، فتمرّ جميع المحاربات المعاديات قبل أن تتمكن أيّة مصيدة فينوس حتّى من قرصها.

كانت الأمّ مخطئة في حكمها!

على وشـك تلقّي الهجمة، يرمي الصفّ الأوّل من الشليبوكانيات طلقاته غير الدقيقة فلا تقضـي على أكثر من عشرين مقتحمة. لا يلحق الصف الثاني أن يأخذ مكانه، حتّى تُلتقطُ جميع المدفعيّات من خناقها ويقطع رأسها دون أن يتسنّى لها أن تطلق ولو قطرة حمض.

إنّه فنّ المُسْـتَرِقّات الكبير بألا يهجمن إلّا على الرأس. يقمن بذلك بمهارة. رؤوس الشـليبوكانيات الشّـابّة تطير. الأجسـاد دون رؤوس تواصل القتال أحياناً بعماء أو تهرب مسرعة باثة الرعب عند الناجيات.

بعـد اثنتي عشرة دقيقة، لم يبق الكثير من فرق الصـهباوات. يسـدّ النصـف الآخر من الجيش جميع المداخل. بما أنّ شـلي - بو - كان لم تشيّد بعد قبّتها، تبدو على سطح الأرض على هيئة نحو عشرة تجاويف صغيرة محاطة بحصباء ناعمة.

الجميـع مشـدوه. بعد كل تلك الجهـود التي بذلتها مـن أجل بناء مدينـة حديثة، ها هم الآن يرونها تحت رحمة عصـابة بربرية، وبدائية إلى الحدّ الذي يعجزن معه عن الأكل بمفردهن!

مهما ضـاعفت شـلي - بو - ني من الاتّصالات المطلقة لا تهتدي إلى طريق مقاومتهنّ. فالحصـى التي تسدّ المداخل لن تصمد في أحسن الأحوال أكثر من ثوان قليلة. أمّا بالنسـبة للشـليبوكانيات فهنّ لسـن مهيّئات لحرب الأروقة أكثر من استعدادهنّ للحرب المكشوفة.

ما تبقى من الجنديّات الصهباوات في الخارج يستبسلن في القتال.

تمكّــن بعضــهن من الانســحاب، إلّا أن معظمهنّ رأى المداخل تســدّ وراء ظهرهــنّ. بالنسـبة لهنّ قضــي الأمر. وبمــا أنّه لم يتبــقّ لديهن ما يخسرنه يتفانين في القتال ظانّات بذلك أنّهن كلما أبطأن الغزاة أعطين لزملائهنّ الفرصة في إحكام الإغلاق.

آخر شليبوكانية بدورها يقطع رأسها، يقوم جسدها بآخر ردّة فعل له واضـعاً نفسه أمام أحد المداخل غارزاً مخالبه فيه، واقفاً أمامه كترس بلا طائل.

داخل شلي - بو - كان يسود الانتظار.

انتظار المُسْتَرِقّات بتسليم كئيب. القوّة البدنيّة الصرف لديها فعّالية لم تتمكن التكنولوجيا إلى الآن من التفوق عليها...

لكنّ المُسْــتَرِقّات لم يهجمنّ. يتردّدن بأن ينتصرن كما تردّد هانيبال أمــام رومــا. إذ أنّ الأمــر يبدو مفرط الســهولة. لا بــدّ أن يكون ثمّة فــخّ. فــإذا كانت ســمعتها كقاتلات تسـبقها في الأرجــاء، فإن لدى الصَــهْباوات أيضاً شــهرتها. إذ يقال عنهنّ بين المُسْتَرِقّات بأنّهنّ مهرة في نصــب فخاخ ماكرة. ويحكى أيضاً أنهنّ يجدن إقامة تحالفات مع مرتزقات يظهرن في وقت غير متوقّع. وأنّهن يعرفن أيضاً طرق تدجين الحيوانات المفترســة، وصــناعة أسلحة سرّية تسـبّب آلاماً غير محتملة. ومــن ناحية أخرى على قدر ما تظهر المُسْــتَرِقّات مرتاحات في العراء يكرهن أن تكون مطوّقة بالجدران.

بالمحصلة، لا يخترقن الحواجز التي تسدّ المداخل. ينتظرن. لديهنّ متّســع من الوقت. فعلى أيّة حال أمام الليل خمس عشرة ســاعة تقريباً لكي يهبط.

يســو د الاســتغراب عشّ النّمل. لماذا لا يهجمن؟ شــلي – بو – ني ليســت مرتاحة لذلك. أكثر ما يقلقها، أن «يتصرف الخصم على نحو يفلــت مــن منطق فهمهــا»، في الوقت الذي هو بغنــى عن ذلك على اعتبــاره الأقوى. بعض بناتها تبثّ بخجــل رأياً، ربما يحاولن تجويعنا. احتمال كهذا يبثّ الشجاعة بين الصهباوات. فبفضل حظائرهنّ تحت الأرضــ، ومفاطرهــنّ، وغرف المؤونــة من طحين الحبــوب، النمال الخزّانات المتخمة بالعُسيل بإمكانهنّ مقاومة الحصــار شــهرين على الأقل.

لكن شلي – بو – ني لا تعتقد أنّه حصار. ما تريده الأخريات هناك في الأعلــى هو عشّ لقضــاء الليلة. تعاود التفكير بمقولــة الأم: **إذا كان الخصــم أقوى، تصرّف على نحو يفلت من منطق فهمه.** أجل، التكنولوجيات المتطوّرة، أمام تلك الفظّات، هي الخلاص.

يقوم الشــليبوكانيات الخمسمائة ألف باتصــالات مطلقة مكثّفة. يطفو على السطح أخيراً حوار مهمّ. عاملة صغيرة تبثّ:

لقد أخطأنا حين أردنا أستخدام الأسلحة والخطط ذاتها التي استخدمها كبارنا في بيلــو – أو – كان. لا ينبغــي أن ننقل، يجب أن نبتكــر حلولنا الخاصة لمشاكلنا الذاتيّة.

أوّل مــا أطلقت هذه الفيرومونة، أخذت الأفكار بالتحرّر. واتّخذ قرار على الفور. وبدأ الجميع بالعمل.

الإنكشــاريّ: في القــرن الرابع عشر، أسّــس السلطان مــراد الأوّل فرقة جيش

لهـا بعض الخصوصيّة، أطلق عليها اسـم الإنكشاريون (yeni tcheri والتي تعني بالتركيّة الجيش الجديد). لدى الجيش الإنكشاري ميّزة: كان مكوّناً من اليتامى فقط. كان الجنـود الأتراك بالفعل، حين ينهبـون قرية أرمنية أو سلافيـة، يأخذون الأطفال الصغـار جـداً ويقفلون عليهم في مدرسة حربيّة خاصة والتـي لم يكن يسعهم داخلها معرفـة أيّ شـيء عن العالم. يتربّون على فنون القتال فقـط، يصبح هؤلاء الأطفال من أشدّ المحاربين بأساً في عموم السلطنة العثمانيّة، يخرّبون دون رحمة القرى المسكونة مـن عوائلهـم الحقيقية. لم يخطر لهـم يوماً القتـال إلى جانب أهلهم ضـد خاطفيهم. وبالمقابل، كانت قوّتهم آخذة بالاتسـاع، ذلك ما أقلق في النهاية السلطان محمود الثاني الذي ارتكب فيهم مجزرة وأحرق مدرستهم سنة 1826.

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

أحضر البروفســور لوديك صـنـدوقين كبيرين. أخرج من أحدهما نموذجاً غريباً من ثقّابة تعمل على الوقود. وبدأ على الفور ثقب الجدار المقام من قبل الشرطة، حتّى وسّع فيه حفرة دائريّة تسمح له بالمرور.

حـين توقّفت أصـوات الطرق، أتــت الجدّة أوغســتا تعرض عليه شـراب اللويـزة، ولكــن لوديك رفضـ شــارحاً بتــأدّب أنّ ذلك قد يجعله يبول. التفت نحو الصـندوق الآخـر وأخذ منه اللوازم الكاملة لمستغوري الكهوف.

– هل تعتقد أنّه عميق إلى هذا الحدّ؟

- لأكـون صريحـاً معك سـيدتي العزيـزة، قبل أن آتـي لمقابلتك أجريت بحثاً عن هذه العمارة. لقد سـكنت في عصر النهضـة من قبل علماء بروتسـتانتيين الذين حفروا ممرّاً سرّياً. أنا متأكد تقريباً أنه يفضي إلى غابـة فونتينبلو من هنـاك كان أولئك البروتسـتانتيون يهربون من مضطهديهم.

- ولكـن إذا كان الأشـخاص الذين نزلوا إلى الأسـفل خرجوا في الغابـة، لا أفهم لمـاذا لم يظهروا أنفسـهم؟ يوجد ابنـي وحفيدي... وكنّتي، إضـافة إلى أكثر مـن عشرة رجال من الإطفـاء والشرطة، كلّ أولئـك الأشـخاص ليس لديهم أيّ سـبب ليختبئـوا. لديهم عائلات وأصدقاء. ليسوا بروتستانت ولا توحد حروب دينية.

- أمتأكّدة إلى هذا الحدّ سيدتي؟

ورمقها بنظرة غريبة.

- الأديان أخذت تسـميات جديدة، تتبجح بأنها فلسـفات أو... علوم. إلّا أنّها على ذات الدرجة من العقائديّة.

ذهـب إلى حجرة أخـرى ليرتـدي ملابس الاسـتغوار. حين عاد للظهـور، محرجاً ببدلة ضـيقة عند فتحـة الأكتاف. والرأس محشـور بخوذة حمراء فاقعة مثبّت عليها لمبة جبهيّة، كادت أوغسـتا أن تنفجر مقهقهة.

أردف قائلاً كأنّ شيئاً لم يحدث.

- بعد البروتسـتانتين، عاشـت في هذه الشـقّة أخويّات سرّية من

جميع الأنواع. بعضهم كانوا يكرّسون أنفسهم لعبادات وثنيّة قديمة، وآخرون لا أدري ما الذي كان يعبدونه ربّما البصل، أو الفجل الأسود!

– البصل والفجل الأسود مفيدان جدّاً للصحة. أقدّر أن يكون هناك من يعبدهما. انظر إليّ إنّي صماء وسأكون عمّا قريب خرفة، وكل يوم أموت أكثر قليلاً... الصحة هي أهم شيء في الوجود.

حاول أن يكون مطمئناً.

– لا تكوني متشائمة، لا تزال النضارة بادية عليك.

– حسناً، كم تقدّر عمري؟

– لا أعرف... ستون، سبعون عاماً.

– مائة عام سيدي! أتممت عامي المئة منذ أسبوع، جسدي بأكمله مريض، والحياة كل يوم يزداد تحمّلها صعوبة، وعلى الأخص حين فقدت كلّ من كنت أحبّ.

– أفهمك سيّدتي، الشيخوخة بالفعل محنة شاقّة.

– هل في جعبتك الكثير بعد من الجمل اللاذعة؟

– ولكن سيّدتي...

– هيّا أنزل سريعاً. إذا لم تظهر في الغد، سأتّصل بالشرطة وبالتأكيد سيرفعون حينها جداراً سميكاً لن يتمكّن أحد من أن يكسره بعد الآن.

متآكلة على الدوام الرقم 4000، من قبل اليرقات النمسيّة، لم تعد تجد النوم حتّى في ليالي البرد القارس.

لذا تنتظر الموت بهدوء، وهي تقوم بنشاطات مثيرة وتنطوي على مجازفة لن تجد الشجاعة للإقدام عليها في ظروف مختلفة. مثلاً، اكتشاف حافّة العالم.

لا زالتا على طريق حقول الحاصدات. تستغل الرقم 103683 السير على الطريق لتتذكّر بعض دروس مربّياتها. شرحت لها بأنّ الأرض مكعب، وليس ثمّة من حياة إلّا على وجهه العلوي.

ماذا سترى، إذا وصلت أخيراً إلى نهاية العالم، حافّته؟ هل سترى مياهاً؟ أم فراغاً لسماء أخرى؟ ستعرف هي وزميلتها، التي يستمهلها الموت، أكثر من جميع المستكشفات، ومن جميع الصهباوات منذ بدء الزمن!

تحت البصر المندهش للرقم 4000، تتحوّل خطوات الرقم 103683 بغتة إلى خطوات عازمة.

عند منتصف ما بعد الظهيرة، حين تقرّر المُسْترِقّات أن يخترقن المداخل، يفاجأن بعدم وجود أدنى مقاومة. رغم معرفتهنّ بأنّهن لم يدمّرن جيش الصهباوات بأكمله، حتّى بالنسبة لحجم مدينة صغير. إذاً ينبغي الاحتراس...

وبما أنّها معتادة على الحياة في العراء وتتمتع ببصر حادّ في الضوء،

تمضـي قدماً بحذر شـديد، إذ أنهنّ عمياوات بالكامل تحت الأرض. الصـهباوات عديمات الجنس لا ترى تحت الأرض أيضاً، لكنهنّ بالحدّ الأدنى معتادات على التقدّم داخل أحشاء ذلك العا لم من الظلمات.

تصل المُسْـترِقّات المدينة المحرّمة. كلّ شيء مقفر. حتّى أنّ كمّيات سليمة من الطعام ملقاة على الأرض! تهبط أكثر؛ فتجد قاعات المؤونة مليئة، لا بدّ أنّ أشخاصاً كانوا في هذه الحجرات منذ قليل.

في الطبقــة 5 تحت الأرضـ، تجد فيرومونات حديثـة. تحاول فكّ شـيفرة الأحاديث التي دارت هناك، ولكنّ الصهباوات وضعن غصن زعتر بريّ يبثّ عطوراً تشوّش كافة روائح الفيرومونات.

في الطبقــة 6 تحت الأرض. هي لا تحبّ أن تجد نفســها محصــورة تحــت الأرض. كم هــي معتمةٌ هذه المدينة! كيف بوســع النمال تحمّل مواصلة العيش داخل هذا المكان الضيّق والداكن مثل الموت؟

في الطبقة 8 تحت الأرض، تكتشف فيرومونات أكثر طزاجةً. تغذّ السير، لا بدّ أنّ الصهباوات لم يعدن بعيدات.

في الطبقــة 10 تحــت الأرض تفاجئ مجموعةً مــن العاملات تلوّح بالبيوضـ. واللواتي يهربن أمام الغزاة. هكذا إذاً! أخيراً فهمن، المدينة جميعها نزلت إلى الطبقات السفلى بغية إنقاذ ذرّيتها الثمينة.

بما أنّ الأمر بات واضحاً ومفهوماً، تتخلّى المُسْتَرِقّات عن احتراسها وتركضـ مطلقــةً فيرومون صرخة الحــرب المشــهور في الممرّات. لم تتمكّــن العاملات الشــليبوكانيات من تضــليلهنّ، وقد أصــبحن في الطبقة الثالثة عشر تحت الأرض.

فجـأة، تختفـي حاملات البيوض بطريقة يصـعب تفسـيرها. أمّا بالنسـبة للممرّ الذي كنّ يركضن عليه فقد أفضى إلى قاعة هائلة كانت أرضـيّتها غارقة ببرك العُسـيل. ترتمي المُسْـترِقّات تلقائياً لتلعق الخمرة الثمينة قبل أن تمتصّها الأرض.

تتدافع المحاربات المتأخّرات، غير أنّ القاعة شاسعة بالفعل، يوجد متّسع وبركة عُسَيل تكفي الجميع. كم هو لذيذ وحلو! لا بدّ أن تكون هذه إحدى قاعات النمال الخزّانات، إحدى المُسْترِقّات سمعت عنها: **مـا يدعونـه تقنيّة حديثة هي تلك التـي تجبر عاملة مسكينة علـى قضاء كلّ حياتها برأس منكّس إلى الأسفل والبطن مشدود إلى الأعلى.**

يسـخرن ثانية من المدنيّات وهنّ يسـتمتعن بالعُسيل. ولكن فجأة تفصيل يسترعي انتباه إحدى المُسْتَرِقّات. من الغرابة ألّا تزوّد قاعة بهذا الحجم بغير مدخل واحد...

لا يتسـنى لها الوقـت لتفكّر أكثر. انتهت الصـهباوات من الحفر. سيل من الماء انبجس من السقف. تحاول المُسْتَرِقّات الهروب من الممرّ لكنه قد سدّ الآن بصخرة كبيرة. وبدأ مستوى الماء يعلو. التي لم تصرع بصدمة عمود الماء أخذت تتخبّط بأقصى طاقتها.

الفكـرة أتت من المحاربة الصـهباء التي أعلنت أنّـه لا ينبغي النقل عن الكبار. سـألت سؤالاً فيما بعد: ما هي خصوصيّة مدينتنا؟ لم يبث سوى فيرومون واحد: **جدول جوفي في الطبقة 12 تحت الأرض.**

إذاً حوّلت الصـهباوات فرعاً صـغيراً من الجـدول، وحفرن لهذا الفـرع قناة مـن الماء جاعلات أرضـيّتها كتيمة عبر أوراق دسـمة. ما

تبقى من الخطّة كان مرتبطاً بتقنية الصهاريج. كانت قد عمّرت خزّان ماء ضخم في قاعة ثم ثقبوا مركزه بغصن. الأمر الأكثر صعوبة كان المحافظة على توجيه الغصن الثاقب فوق الماء. كانت النمال المعلّقة بسقف قاعة الصهاريج هي التي نجحت في القيام بذلك ببراعة.

يأخذ المُسْتَرِقّات في الأسفل يلوّحن ويتخبّطن. لقد غرق معظمهنّ، ولكن عندما يصبّ جميع الماء في القاعة التحتيّة يرتفع مستوى الماء ويصل عالياً ممّا يسمح لبعض المحاربات الطافيات بالخروج من ثقب السقف. عندئذ، بوسع الصهباوات إسقاطها بسهولة برمايات الحمض.

بعد ساعة، توقف حساء المُسْتَرِقّات عن التلاطم. الملكة شلي – بو – ني انتصرت. عندئذ بثّت أوّل حكمة تاريخيّة لها: **كلّما كانت العقبة عالية، كلّما أجبرتنا أن نتفوّق على أنفسنا.**

صوت طرق أصمّ ومنتظم أخذ أوغستا إلى المطبخ، تماماً في الوقت الذي كان فيه البروفسور لوديك يلتوي خارجاً من ثقب الجدار. غير معقول بعد أربع وعشرين ساعة! المرّة الوحيدة التي حدث أن يعود فيها أحد، فيكون الشخص الفظّ الذي لا تأبه لاختفائه، أكان يجب أن يعود!

كانت بزته الإستغواريّة مقطّعة، لكنّه كان سالماً. وبدا بوضوح شمس الظهيرة أنّه عاد خالي الوفاض.

– إذاً؟

– إذاً، ماذا إذاً؟

– وجدتهم؟

– لا...

أوغستا كانت مغتمّة. لأوّل مرّة أحدهم يعاود الصعود حيّاً من تلك الحفرة ودون أن يفقد صوابه. يمكن للمرء أن ينجو من مغامرة كهذه إذاً!

– حسناً، ماذا يوجد في الأسفل! هل يفضي إلى غابة فونتينبلو كما كنت تعتقد؟

نزع خوذته.

– أعطني أوّلاً شيئاً أشربه من فضلك. استهلكت مؤونتي الغذائية ولم أشرب شيئاً منذ ظهيرة البارحة.

أحضرت له كأساً من اللويزة كانت تحفظه ساخناً في ترمس.

– تريدين أن أخبرك ماذا يوجد في الأسفل؟ يوجد درج حلزوني يهبط مئات من الأمتار عمودياً. يوجد باب. وجزء من ممرّ بانعكاسات حمراء، مليء بالجرذان، ثم بأسفله حائط لا بدّ أن حفيدك جوناثان من رفعه. حائط متين جداً، حاولت ثقبه بالمثقب دون أن يعطي ذلك أيّة نتيجة. في الواقع، لا بدّ أنّه يدور أو يقلب، لأنّ فيه نظام أزرار بأحرف أبجديّة لرمز سرّي.

– أزرار بأحرف أبجديّة لرمز سرّي؟

– بلى، على الأرجح يجب ضغط أحرف كلمة تكون جواباً عن سؤال.

– أيّ سؤال؟

– **كيف يمكن تشكيل أربعة مثلّثات متساوية الأضلاع بستّة أعواد ثقاب؟**

لم تتمالك أوغستا نفسها، فانفجرت ضاحكة. الأمر الذي أغاظ الباحث جدّاً.

– تعرفين الإجابة!

تمكّنت بين قهقهتين أن تلفظ:

– لا! لا! لا أعرف الجواب! ولكنّي أعرف السؤال جيداً!

كانت تضحك، وتضحك. تذمّر البروفسور لوديك.

– بقيت ساعات أبحث. بالطبع نصل إلى نتيجة.بمثلّثات داخل V ولكنها ليست متساوية الأضلاع.

انصرف إلى توضيب أدواته.

– إذا تسمحين سأذهب لسؤال صديق عالم بالرياضيات وسأعود.

– لا!

– كيف ذلك؟

– لمرّة واحدة، الفرصة لمرّة واحدة. إذا لم تتمكّن من استغلالها، فقد فات أوانها. تفضل وأخرج الصندوقين خارج منزلي. وداعاً سيدي!

حتّى لم تتصل له بتكسي. كان نفورها قد تغلب. حقّاً، له رائحة لا تروق لها.

جلست في المطبخ، أمام الحائط المهدّم. قد تطوّر الوضع الآن. عزمت على الاتصال بجازون براجيل وبذاك السيد روزنفيلد. إذ قرّرت أن تتسلّى قليلاً قبل أن تموت.

الفيرومون البشريّ: تماماً مثل الحشرات، التي تتواصل بالروائح، الإنسان لديه لغة شمّية يتحاور بها بتكتّم مع أقرانه.

بما أنه ليس لدينا قرون بثّية، نطلق فيرومونات في الهواء من تحت الآباط، من الحلمات، من جلدة الرأس ومن الأعضاء التناسليّة.

تلك الرسائل تقرأ باللاوعي ولكن هذا ليس سبباً يجعلها أقلّ فاعليّة. الإنسان لديه خمسون مليوناً من النهايات العصبيّة الشمّية؛ خمسون مليون خليّة قادرة على تحديد آلاف الروائح، فيما يعجز لساننا عن التعرّف سوى على أربعة طعوم.

كيف نستخدم نحن هذه الطريقة بالتواصل؟

أولاً، بالنداء الجنسي. ذكر بشري بإمكانه أن يكون منجذباً من قبل أنثى بشريّة لأنّه فقط أعجب بروائحها الطبيعيّة (مخبأة معظم الأوقات بعطور اصطناعيّة!) وقد ينفر في الطريقة عينها من أنثى أخرى فيروموناتها «لا تكلّمه».

العمليّة رهيفة. لن يتبادر الشك لأيّ من الكائنين أنّ حواراً شميّاً قد أجري. سيُكتفى بالقول «الحبّ أعمى».

هذا التأثير للفيرومونات البشريّة قد يظهر أيضاً في العلاقات العنيفة. وكما عند

الكلاب، حين يشتمّ الإنسان روائح تحمل رسائل «خوف» من خصمه سيرغب تلقائيًا بالهجوم عليه.

وأخيرًا، إحدى النتائج الأكثر إدهاشًا لتأثير الفيرومونات البشرية، بلا ريب هو تزامن دورات الطمث الشهرية. إذ لوحظ أنّه حين تقيم أكثر من أنثى سويّة، يبثون روائح تعاير أجسادهن جاعلة الدورات الشهريّة تنشط للجميع في الوقت عينه.

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

رأيا أولى الحاصدات وسط الحقول الصفراء. أو بالأحرى، ينبغي التحدث عن حطّابات؛ إذ أنّ حبوبها أكبر منها وعليها قطع جذر الساق لتهوي حبوبها المغذّية.

ما عدا جني الحبوب، نشاطهنّ الرئيسي إزالة النباتات الأخرى التي تنمو حول زراعتهنّ. ولهذه الغاية تستخدم مبيد أعشاب من صناعتهنّ: حمض الخليك يرششنه من غدّة في البطن.

لم تعر الحاصدات انتباههن للمستكشفتين 103683 و4000 حين وصلتا. لم تر أبداً نمالاً صهباوات من قبل، ولم تر في هاتين الحشرتين أكثر من رقيقتين فارّتين أو نملتين باحثتين عن إفراز روّاغة. بالمحصلة، إمّا متشرّدتان أو تتعاطيان المخدّرات.

ومع ذلك تلحظ إحدى الحاصدات ذرّة من روائح نملة حمراء. فتترك عملها وتقترب نحوهما، متبوعة بزميلتها.

هل صادفتما الحمر في طريقكما؟ أين هم؟

وهنّ يتحادثن، تعرف البيلوكانيتين أنّ الحمراوات قد هجمن على عشّ الحاصدات منذ بضعة أسـابيع؟ وقتلن بإبرهنّ المسمومة أكثر من مائـة عاملـة وذوات جنس، ثـمّ نهبن جميع مؤونـة طحين الحبوب. وعنـد عودة جيش الحاصـدات من حملة صـوب الجنـوب بحثاً عن بذور جديدة، لم يجد أمامه ما يفعله سوى إحصاء الأضرار.

تعـترف الصـهباوان بأنّهما قابلتـا الحمراوات بالفعل. وتشـيران لهنّ على الاتّجاه الذي ينبغي أن يسـلكنه للعثور عليهن. تُسألان، فيما ترويان أوديستهما الخاصة.

أنتما تبحثان عن نهاية العالم إذاً؟

تـردّان بالإيجاب. عندئذ تنفجر الأخريات بفيرومونات ضـحك لها روائح مفرقعة. لماذا يقهقهن؟ هل نهاية العا لم ليس لها وجود؟

بلى، موجودة! وأنتما وصلتما إليها! ما عدا الحصاد، ينصبّ نشاطنا الأساسي على محاولة اجتياز نهاية العالم.

تتكفّـل الحاصـدات بأن تدلّ «السـائحتين» عند صبـاح الغد إلى ذلك المكان الميتافيزيقي. انقضت الأمسية بأحاديث، تحت عشّ صغير حفرته الحاصدات في لحاء شجرة زان.

وحراس نهاية العالم؟ سألت الرقم 103683.

لا تقلقي، سترينهم عاجلاً.

هل صحيح أنّ لديهم سلاح قادر على سحق جيش كامل بضربة واحدة؟

تفاجأت الحاصدات بمعرفة هاتين الغريبتين بتلك التفاصيل.

صحيح تماماً.

أخيراً إذاً، ستعرف الرقم 103683 حلّ لغز السلاح السرّي!

تلك الليلة، رأت حلماً. رأت الأرض تنتهي عند زاوية قائمة، حيث يرتفع حائط عموديّ من الماء يصل كبد السماء، وتظهر نمال زرقاء خارجة من ذلك الحائط المائيّ، حاملةً غصون أكاسيا مفرطة التدمير. يكفي بأن يمسّ طرف غصن من تلك الأغصان السحريّة أيّ شيء حتّى يحيله هشيماً.

(4)

نهاية المطاف

أمضت أوغستا اليوم بطوله أمام أعواد الثقاب الستّة. الجدار نفسيّ أكـثر منه واقعي، وقد أدركت ذلك من جملة إدمون الشـهيرة «يجب التفكير بطريقة مختلفة!»... لا بدّ أنّ ابنها قد اكتشـف شيئاً، لا ريب، ويخفيه بذكاء.

تذكّـرت أعشـاش طفولتـه، «أوكاره». ربّما لأنّنـا هدمناها كلّها حاول أن يصـنع لنفسه وكراً لا يمكن الوصـول إليه، مكان لا يزعجه فيـه أحد... مكان داخلي، يجد فيه سـلامه... ورغبته بأن يكون غير مرئيّ.

نفضـت الخـدر الزاحـف في أوصـالها. أخذت تطفو صـور من ذكريات شـبابها. في ليلة شتوية، وكانت صغيرة جداً، فهمت أنّه ثمّة أعداد تحت الصـفر... 3، 2، 1، 0 ومن ثـمّ 1-، 2-، 3-... أعداد معكوسـة! كما لو أنّك تقلب قفّاز الأرقام. ليس الصـفر إذاً بداية كلّ شـيء أو نهايته. كان ثمّة عالم آخر لا نهائيّ على الضفة الأخرى. كما لو أنّ جدران «الصفر» تقوضت.

كان عمرها سـبع سـنوات أو ثمان، غير أنّ اكتشافها قلب كيانها وحرمها النوم تلك الليلة.

الأرقام المعكوسة... انفتاح على بعد آخر. البعد الثالث. النّفور!

يا إلهي!

أخـذت يداها ترتجفان من فرط التأثر، تبكي، دون أن تفقد قدرتها على الإمسـاك بعيدان الثقاب. تضـع ثلاثة على شكل مثلّث ثمّ تثبت في كل زاويـة عود ثقاب وترفعه إلى أن تتلاقى أطراف العيدان الثلاث في نقطة عالية.

ذلك يشكل هرماً. هرماً وأربعة مثلّثات متساوية الأضلاع.

ها هو الحدّ الشرقي للأرض. مكان مذهل. ليس فيه شـيء طبيعي، ولا شيء أرضي. الأمر ليس كما تصورته الرقم 103683. حافة العالم سـوداء، لم تر من قبل شيئاً بهذا السـواد قط! إنّه قاس، وأجرد، دافئ، وله رائحة زيوت معدنيّة.

وعوضاً عن محيط عمودي يوجد هنا تيّارات هوائيّة، عنفها مدعاة للعجب.

يلبثـن لوقت طويل محاولات فهم ما الذي يجري. يحصـل اهتزاز من وقت لآخر. شـدته تتضاعف بطريقة أُسّية. ثمّ فجأة تهتزّ الأرض، ريـح قوية ترفع القرون، ضـجيج لا يطاق تصـطفق له طبلات الآذان في السـيقان. كأنّها عاصفة عنيفة ولكن، لا تكاد الظاهرة تظهر حتّى تختفي، تاركة وراءها بضع دوّامات من الغبار.

الكثير من الحاصـدات أردن اجتياز هذه الحـدود، ولكنّ الحرّاس كانوا لهنّ بالمرصاد. لأنّ ذلك الصوت، وتلك الريح، وذلك الاهتزاز، تصـدر عنهم: حرّاس حافة العالم، قاتلو كلّ مـن حاول التقدّم داخل الأرض السوداء.

هل سبق لهن أن رأين أولئك الحرّاس؟ قبل حصول الصهباوات على جواب، يصـدر مجدّداً صوت تحطّم، ثم يتلاشـى. إحدى الحاصدات السـتّة اللواتي يرافقنهما تؤكّد أنّ أحداً لم يتمكّن يوماً من السـير على تلك «الأرض الملعونة» والعودة حيّاً. الحرّاس يسحقون كلّ شيء.

الحرّاسـ... لا بـدّ أنّهم هم الذين هجموا على لا – شـولا – كان والرحلـة الاستكشـافيّة للذكر 327. ولكـن لماذا تركـوا نهاية العالم وزحفوا إلى الغرب؟ هل أرادوا بذلك اجتياح العالم؟

لا تعـرف الحاصـدات عن هذا الموضـوع أكثر من الصـهباوات. هل يمكنهنّ وصـفهم على الأقل. جلّ ما يعرفنه، أن اللواتي اقتربن من الحراس متن مسـحوقات. لا أحد يعلم ضمن أيّ صنف من الكائنات الحيّة يمكن وضع هؤلاء: هل هم حشرات عملاقة؟ طيور؟ نباتات؟ كل ما تعرفه الحاصـدات عنهم، أنّهم سريعون جـداً، أقوياء جداً. إنّها قوّة تتجاوز فهمهنّ ولا تشبه شيئاً معروفاً...

في تلـك اللحظة تأخذ الرقم 4000 مبـادرة مفاجئة وغير متوقّعة. تنفصل عن المجموعة وتجازف بالدخول في الأرض المحرّمة. إذا كان لا بـدّ من الموت، فليكن في محاولة اجتيـاز نهاية العالم هكذا، بجرأة. تنظر الأخريات نحوها، وهنّ في حالة من الذهول.

تتقـدم ببـطء، مترقّبـة أدنى اهتـزاز، أدنى رائحة تنـذر بالموت في الطرف الحسّـاس لأرجلها. ها... خمسون رأسـاً، مائة رأس، مائتي رأس، أربعمائة، سـتمائة، ثمانمائة رأس اجتازت. ولا شيء، هي سالمة لم يمسسها أيّ ضرر!

تحيّيها رفيقاتها. ترى حيث هي موجودة خطوطاً بيضـاء متقاطعة من اليسـار إلى اليمين. كلّ شيء على الأرض السّوداء موت؛ لا توجد أيّة حشرة، أيّة نبتة. والأرض مغرقة في السـواد... هذه ليسـت أرضاً حقيقيّة.

تلاحظ وجود نباتات في البعيد. هل يمكن أن يوجد عالم بعد نهاية العالم؟ ترمي بضـع فيرومونات إلى رفيقاتها اللواتي بقين على الضـفّة لكي تخبرهن بكلّ شـيء، لكنّ الحوار على مسافة بعيدة إلى هذا الحدّ يكون سيّئاً.

تسـتدير لكي تعود، عندئذ يبدأ الزلزال مجدّداً والضـجيج الهائل. عودة الحرّاس! تعدو بأقصى قوّتها للالتحاق برفيقاتها.

أولئـك يتجمّدن مـن الذعر، خلال جزء خاطف مـن الزمن، تعبر كتلة مدهشـة سماءهم مصدرة أزيزاً هائلاً. مرّ الحرّاس، مثيرين روائح زيوت معدنيّة واختفت رقم 4000.

تفهم النمال حين تدنو قليلاً من الحافّة. لقد سـحقت الرقم 4000 بقوة، لدرجة أن سمْك جسدها أصبح لا يتجاوز عِشرَ الرأس، كما لو أنّه رُصِّعَ على الأرض السوداء!

لم يبق شـيء من المستكشفة البيلوكانيّة العجوز. وفي الوقت عينه،

ينتهي أخيراً عذاب بيوض النمسيّة. نرى يرقة من هذا الزنبور اخترقت ظهرها للتوّ، ليست أكثر من نقطة بيضاء في جسد صهباويّ مفلطح...

هكذا إذاً تضرب حرّاس نهاية العالم. يسمع ضجيج، ثمّ يلاحظ هبّة ريح وكل شيء يُدمّر على الفور، يتحطّم ويسحق. لم تنته الرقم 103683 من تحليل الظاهرة حتّى يُسمَعَ صوت انفجار آخر. الموت يضرب حتّى حين لا يتجاوز أحد عتبته. يثور الغبار مجدّداً.

ومع ذلك، تودّ الرقم 103683 محاولة الاجتياز. تعاود التفكير بمرفأ ساتيي. المشكلة مشابهة. إذا لم ينجح العبور من الأعلى يجب العبور من الأسفل. يجب اعتبار هذه الأرض السوداء كما النهر، والطريقة الأمثل لعبور الأنهر هو حفر نفق تحتها.

تتكلم بذلك مع الحاصدات الستّة، اللواتي تبدين حماسة على الفور. لشدّة بداهة الأمر يتساءلن: لماذا لم يفكّرن فيه من قبل! فإذاً يبدأن جميعهنّ الحفر بكل بأس فكوكهنّ.

لم يكونا يوماً، جازون براجيل والبروفسور روزنفيلد، متيّمين بزهورات اللويزة، ولكنّهما الآن يصبحان كذلك. روت لهما أوغستا كلّ شيء بالتفصيل. وأخبرتهما أنّ ابنها أوصى لهما بالشقّة من بعدها. ويحتمل أن تجتاحهما الرغبة يوماً في النزول واكتشاف ماذا يوجد في الأسفل، كما تجتاحها الرغبة الآن. لذا تفضّل تجميع كافة الطاقات لإحراز ضربة فعّالة.

لم يتكلم الثلاثة كثيراً، بعد أن قدّمت أوغستا هذه المعطيّات

الأوليّة الضروريّة. فليسوا في حاجة للكلام ليفهموا بعضهم. نظرة فابتسامة... لم يشعر أيّ من الثلاثة بتناضح فكريّ فوري إلى هذا الحدّ. الأمر يتعدّى مسألة العقل فقط؛ كأنّهم ولدوا ليكمّلوا بعضهم، كأنّ برامجهم الجينيّة متداخلة ببعضها ومندمجة. كانت لحظة سحريّة. أوغستا كانت عجوزاً جداً، ورغم ذلك كان الآخران يريانها آية في الجمال...

أتوا على ذكر إدمون؛ عاطفتهم الصافية تجاه المتوفّي والتي لا تشوبها شائبة، أثارت دهشتهم. جازون براجيل لم يأت على ذكر عائلته، ودانيال روزنفيلد لم يتكلّم عن عمله، وأوغستا لم تذكر مرضها. قرروا جميعاً النزول في مساء اليوم ذاته. لقد أدركوا أنّ هذا هو الشيء الوحيد الذي ينبغي عليهم القيام به، هنا وفي هذا الوقت بالذات.

لمدّة زمنيّة طويلة: لمدة زمنيّة طويلة اعتقد الناس بأنّ المعلوماتية على العموم وبرامج الذكاء الاصطناعي ستقوم بصهر المفاهيم البشريّة وإعادة تقديمها بوجهات نظر جديدة. باختصار، كان ينتظر من الإلكترونيات أن تقدّم فلسفة جديدة. ولكن حتّى بتقديمها بطريقة مختلفة، تبقى المادة الأولى هي عينها: أفكار منتجة من قبل تخيّلات بشريّة. إنّه طريق مسدود. أفضل السبل لتجديد الفكر هو الخروج من الخيال البشريّ.

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

كبرت شلي – بو – كان بالحجم والذكاء، هي الآن مدينة «مراهقة». واتّخذت سبيل التكنولوجيات المائية، فأقامت شبكة كاملة من القنوات المائيّة في الطبقة 12 تحت الأرض. تسمح تلك الأذرع المائية بنقل الغذاء بسرعة من أوّل المدينة إلى أخرها.

تسنى للشليبوكانيات الوقت الكافي لابتكار تقنيّاتهنّ للنقل المائي. ذروة هذه الابتكارات هي ورقة عنبية عائمة. يكفي أخذ تيار بالاتّجاه الصحيح حتّى يتاح السفر واجتياز مئات الرؤوس على الطريق النهري، كاجتياز المسافة مثلاً، بين المفاطر الشرقيّة والحظائر الغربيّة.

تأمل النمال بأن تنجح يوماً بتدريب العوميات. تلك الخنافس الضخمة التي تعيش تحت الماء، والمزوّدة بجيوب هوائية تحت أجنحتها الغمديّة، هي تسبح بسرعة حقّاً. إذا تسنّى إقناعها بدفع الأوراق العنبيّة، ستكون لدى الطوّافات طريقة إبحار تعتمد على قوّة دفع أقلّ خضوعاً للصدفة من التيّارات.

تطلق شلي –بو – ني هي ذاتها فكرة مستقبليّة أخرى. تتذكر خنفس وحيد القرن الذي حرّرها من شبكة العنكبوت. أيّة آلة حرب عظيمة! ليس القرن الجبيني الكبير هو ما يميز خنافس وحيد القرن فقط، ولا الجسد المدرّع، وإنّما هي تطير بسرعة عالية أيضاً. ذهبت الأم بعيداً في خيالاتها وتخيّلت فيلقاً من هذه الدّابات تعتلي رأس كلّ واحدة منها عشرة مدفعيّات. بدأت منذ الآن ترى هذه الطواقم هاجمة، لا يمكن هزيمتها تقريباً، على فرق عدوّة تغرقها بالحمض...

العقبة الوحيدة في تطويع خنافس وحيد القرن وهي ذاتها بالنسبة للعوميات أنّ لغتها غير مفهومة! تقضي بضع عشرات من العاملات وقتهنّ بفكّ رموز رسائلها الشميّة وبمحاولة إفهامها اللغة الفيرومونيّة النّمليّة.

حتّى لو كانت النتائج رديئة إلى الآن، إلّا أنّ الشليبوكانيات نجحن في الحدّ الأدنى باستمالتها إلى جانبهن وهنّ يتخمونها بالعُسيل. الغذاء في النهاية هو اللغة الحشريّة المشتركة بشكل أفضل.

على الرغم من هذه الحيويّة الجماعيّة، إلا أنّ شلي – بو – ني مهمومة. فقد أرسلت ثلاث فرق من السفراء باتّجاه الفيدراليّة للاعتراف بمدينتها المدينة الخامسة والستّين ولم يصل إلى الآن أيّ جواب. هل ترفض بيلو – كيو – كيوني التحالف؟

كلّما فكّرت بهذا الموضوع، تقول شلي – بو – ني في سرّها لا بدّ أنّ السفيرات الجاسوسات ارتكبن حماقات، والتقطن من قبل المحاربات ذوات رائحة الصخر. إلّا إذا تركن أنفسهنّ ببساطة يغرقن بروائح مهلوسة للروّاغة في الطبقة 50 تحت الأرض... أيّ شيء آخر يمكن أن يكون؟

تريد التأكّد. إذ لا تنوي التخلي عن اعتراف الفيدراليّة بها ولا عن متابعة التحقيق! تقرّر بأن تبعث الرقم 801، أفضل وأذكى محاربة لديها. ولكي تزوّدها بكل نقاط القوّة، تقوم الملكة بإجراء اتصال مطلق مع الجنديّة الشابّة، بهذه الطريقة ستعرف بقدر ما تعرف الأمّ عن هذا اللغز. وستصبح بذلك:

العين التي ترى

والقرن الذي يستشعر

والمخلب الضارب لشلي – بو – كان.

لقد هيّأت السيدة العجوز حقيبة ظهر مليئة بالطعام والشراب، وبين الأشربة ثلاثة ترامس من اللويزة الساخنة. أهمّ شيء، ألّا نضطر مثل ذلك الفظ لوديك للصعود سريعاً لأنّه أهمل العنصر الغذائيّ... ولكن على أيّة حال هل كان سيعثر يوماً على كلمة الرمز؟ كانت أوغستا تسمح لنفسها بالشكّ في ذلك.

بين معدات أخرى أحضر جازون براجيل أسطوانة مسيلة للدموع من الحجم الكبير مع ثلاثة أقنعة واقية من الغاز؛ أمّا دانيال روزنفيلد فقد أحضر آلة تصوير مع فلاش من آخر طراز.

إنّهم الآن يدورون داخل الدوّامة الحجرية. مثل حال كلّ من سبقهم، النزول كان يجعل الذكريات، الأفكار المدفونة، الطفولة المبكرة، الأبوين، العذابات الأولى، الأخطاء المرتكبة، الحبّ الخائب، الأنانيّة، الكبرياء، الندم... تعود مجدّداً وتطفو على السطح.

كانت أجسادهم تتحرّك تلقائيّاً خارج أيّ شعور بالتعب. كانوا يغوصون في أديم الكوكب، كانوا يغوصون في حياتهم الماضية. آه!

كم الحياة طويلة، وكم يسعها أن تكون مدمّرة، هي مدمّرة بسهولة أكثر من كونها خلّاقة... في النهاية وصلوا أمام باب. عليه كتابة.

الروح عند لحظة الموت يسكنها ذات الشعور الذي اختبره من استناروا بالأسرار الكبيرة.

في المستهلّ، إنّها سباقات تحصل تبعاً لانعطافات شاقّة، رحلات مقلقة لا حدّ لها عبر الظلمات.

ثمّ، قبل النهاية، يصل الذعر ذروته. يسيطر الارتعاد، والارتجاف، والعرق البارد، والرعب الكبير.

يعقب هذا الطور على الفور تقريباً الصعود ثانية إلى النور، إشراق مباغت.

ضياء رائع يتراءى للعيون، نجتاز أماكن صافية وسهولاً حيث تصدح أصوات ورقصات.

كلمات مقدّسة توحي بالإجلال الديني. الإنسان الكامل والمستنير يصبح حرّاً، ويحتفي بالأسرار.

التقط دانيال صورة.

– أعرف هذا النصّ، أكّد جازون. إنّه لبلوتارك.

– إنّه نص جميل.

– ألا يخيفكما هذا الشيء. سألت أوغستا.

– بلى، إنّه مكتوب لهذه الغاية. وعلى أيّة حال يقول: إنّه بعد الذعر يأتي الإشراق. دعونا نمضي مرحلة تلو الأخرى. فإذا كان قليل من الرعب ضرورياً، فلنرتعب.

– تماماً، الجرذان...

وكما لو أنّ التكلّم عنها كان يكفي لتحضر. كانت هناك. يشعر المستكشفون الثلاثة بوجودها الخاطف على حوافّ أحذيتهم العالية، متخوفين من التلامس. أدار دانيال آلته من جديد. أظهر الفلاش صورة مقزّزة لبساط من كرات رماديّة وآذان سوداء. أسرع جازون بتوزيع الأقنعة الواقية، قبل أن يرشّ بوفرة غازه المسيل للدموع. لم تضطرهم القوارض على أن يعيدوا الكرّة...

استأنفَوا النزول الذي استغرقَ وقتاً طويلاً.

– ما رأيكما بتناول وجبة أيها السيدان؟ اقترحت أوغستا.

تناولوا الوجبة. بدت قصة الجرذان منسيّة، كان الثلاثة في مزاج أفضل. وبما أنّ الطقس كان بارداً قليلاً، أنهوا وجبتهم الخفيفة بجرعة كحول وقهوة ساخنة. بشكل طبيعي لم تكن زهورات اللويزة تقدم إلّا بعد الظهيرة.

حفرن طويلاً قبل أن يعاودن الصعود في منطقة أرضها طريّة. ينبثق قرنان أخيراً، مثل منظار؛ تغمرهنّ روائح مجهولة.

هواء طلق. ها هم في الجهة الأخرى لنهاية العالم. لا يوجد حتّى الآن جدار مائيّ. ولكن حقّاً إنّه عالم لا يشبه الآخر في شيء. تمتدّ بعد بضع أشجار وبضع بقع من العشب، صحراء رماديّة، قاسية وجرداء. لا يظهر على مدّ النظر أيّ عش نمل أو عشّ أرَضَة.

يقطعن بضع خطوات. تتهاوى حولهنّ أشياء سوداء كما يهوي الحرّاس تقريباً، إلّا أنّها تهوي بمحض الصدفة.

وهذا ليس كلّ شيء. إلى الأبعد قليلاً ينتصب حجر عملاق، من فرط علوّه لا يسع قرونهن رؤية حدوده. يغشي السماء ويسحق الأرض.

لا بدّ أن تكون هذه جدران نهاية العالم، وخلفها يوجد الماء، فكّرت الرقم 103683.

يتقدّمن أكثر قليلاً، يصادفن وجهاً لوجه عدداً من الصراصير ملصقة على قطعة... لا تعرف ما هي. دروعها الشفّافة تظهر للناظر كلّ الأحشاء، وكلّ الأعضاء وحتّى الدم الذي يخفق في شرايينها! مقزّز جداً! تسحق ثلاث حاصدات وهنّ ينسحبن جرّاء سقوط كتلة.

تقرّر 103683 وزميلاتها الثلاث الباقيات الاستمرار رغم كل شيء. يعبرن جدراناً صغيرة بمسامات، لا يزلن سائرات نحو الحجر الذي ضخامته غير محدودة. يجدن أنفسهن فجأة في منطقة تبعث

على الحيرة أكثر. الأرض حمراء ولها بشرة الفريز. يكتشـفن ما يشـبه بئـراً ويفكّرن بالنزول إليه ليحظين ببعض الظل، حين تبرز فجأةً كرة بيضاء ضخمة يبلغ قطرها عشرة رؤوس على الأقلّ من السماء، وتأخذ تطاردهنّ قافزة. يلقين بأنفســهنّ في البئر... بالكاد يلتصقن بجدرانه حين سقطت الكرة في قاعه.

يخرجــن مجدّداً، مذعورات، ويركضــن. الأرضــ حولهنّ زرقاء، خضراء أو صفراء، وفي كل الأنحاء تنتشر مثل هذه الآبار وهذه الكرات البيضــاء التي تلاحقهنّ. هذه المرة طفح الكيل، للشجاعة حدود. هذا العالم مختلف كثيراً إلى حدّ لا يحتمل.

يهربن راكضــات إلى أن تقطّعت أنفاســهنّ، يعــدن ويأخذن النفق عائدات إلى العالم الطبيعي بأقصى سرعة.

الحضارة (تتمّة): صدمة كبيرة أخرى بين الحضارات: لقاء الغرب مع الشرق.

تذكـر حوليـات الإمبراطوريـة الصينية، أنه في نحـو سـنـة115 لعهدنا، وصل مركب، يرجّح أنّه مـن أصل روماني، كانت العاصفة قد أضرت به فجنح إلى الشاطئ بعد مسير أيام دون هدى.

إلّا أنّ معظـم الـركّاب كانوا من البهلوانات ولاعبي الخفّـة الذين، أوّل ما وطئوا الأرض أرادوا كسب ودّ سكان ذلك البلد المجهول بتقديم عرض لهم. بهذه الطريقة رأى الصينيـون – بأفواه فاغـرة – أولئك الغرباء أصحاب الأنـوف الطويلة ينفثون النار، يقيّدون أطرافهم، ويحوّلون الضفادع إلى أفاع، الخ. استنتجوا من وراء ذلك،

وذلك مبرّر، أنّ الغرب كان مسكوناً بالمهرّجين وآكلي النار. ومرّت مئات السنين قبل أن تسنحَ فرصة تبدّد وهمهم.

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

أصبحوا أخيراً أمام جدار جوناثان. **كيف نركّب أربعة مثلّثات من ستّة أعواد من الثقاب؟** لم يتردّد دانيال بالتقاط صورة. كتبت أوغستا كلمة «هرم» وأخذ الجدار ينقلب بانسيابيّة. شعرت عندئذ بالفخر من صنيع حفيدها.

عبروا، لم يمض وقت طويل حتّى عاد الجدار إلى مكانه. أضاء جازون الجدران؛ الصخر منتشر في المكان، لكنه ليس الصخر ذاته الذي كان منذ قليل. كان الصخر أحمر قبل الجدار، والآن أصفر، معرّق بالكبريت.

مع ذلك ظلّ الهواء صالحاً للتنفس. يشعرون كما لو أنّ نسمة هبّت عليهم. هل كان البروفسور لوديك على حق؟ وهل يفضي هذا النفق إلى غابة فونتينبلو؟

صادفوا فجأة قطيعاً جديداً من الجرذان، أعنف بكثير من التي التقوها سابقاً. فهم جازون ما الذي كان يحدث لكنه لم يشرحه للآخرين: أجبروا ثانية على ارتداء الأقنعة الواقية وعلى رشّ الغاز. كلّما كان ينقلب الجدار، وذلك لم يحصل لمرات كثيرة، كانت جرذان المنطقة «الحمراء» تنتقل إلى المنطقة «الصفراء»، باحثة عن الطعام.

ولكن إذا كانت جرذان المنطقة الحمراء لا تزال تجد شيئاً تأكله، فإنّ الأخرى – النازحين – لم تجد ما تأكله سوى بعضها بعضاً.

جازون وأصدقاؤه كانوا يتعاملون مع الفئة الناجية، أو بالأحرى مع الأكثر شراسة. معهم ظهر الغاز المسيل للدموع بلا جدوى. تهجم! تقفز، محاولة التشبّث بالأذرع...

على حافة الهستيريا، كان دانيال يرشق ومضات فلاش تعمي، غير أن هذه الدواب الكابوسيّة كانت تزن بالكيلوغرامات و لم تكن تخاف الإنسان.

ظهرت أوّل الجروح. سحب جازون سكينه ماركة أوبينل، وطعن اثنين منهما وألقاهما للآخرين تأكلهما. وأطلقت أوغستا عدّة طلقات من مسدّس صغير... بهذه الطريقة تمكّنوا من الفرار. أخيراً!

حين كنت: حين كنت صغيراً، كنت أبقى لساعات مستلقياً على الأرض أراقب أعشاش النّمل. كان ذلك يبدو لي واقعيّاً أكثر من التلفزيون.

من بين الألغاز التي كان يطرحها عليّ عش النّمل، ما يلي: لماذا كانت النمال، بعد أن خرّبت عشّها في إحدى المرات، تسحب بعض المجروحات وتترك الأخريات تموت؟ للجميع ذات الحجم... بحسب أية معايير اختيار كان فرد يعدّ مهمّاً وآخر غير مهمّ؟

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

كانوا يركضون داخل النفق المخطّط بالأصفر.

وصلوا فيما بعد إلى شبكة فولاذيّة. في وسطها فتحة لها هيئة سلّة مصيدة السمك. تتخذ شكل مخروط كان يضيق بطريقة تسمح بمرور جسد بشري بعرض متوسّط ولكن دون إمكانية العودة، بسبب الحراب المسنّنة المحيطة بمخرج المخروط.

– هذا عمل يدويّ حديث...

– همم، كأنّ الذين صنعوا هذا الباب وسلّة المصيدة هذه لا يريدون لنا العودة إلى الخلف...

تعرّفت أوغستا مرّة ثانية على شغل جوناثان، خبير الأبواب والمعادن.

– انظروا!

أضاء دانيال على عبارة مكتوبة:

هنا ينتهي الوعي

هل تريدون الدخول في اللاوعي؟

ظلوا فاغري الأفواه.

– ماذا نفعل؟

فكّر الجميع بالأمر ذاته وفي اللحظة عينها.

- بعد المرحلة التي وصلنا إليها، سيكون من المؤسف أن نعود أدراجنا. اقترح عليكم الاستمرار!

- سأجتاز أولاً، قال دانيال وهو يحشر ذنب الحصان في ياقته كي لا يعلق.

زحفوا كلٌّ بدوره عبر سلّة المصيدة الفولاذيّة.

- الأمر مضحك، قالت أوغستا، ينتابني شعور أنّي عشت سابقاً هذه الخبرة.

- سبق وكنت في سلّة مصيدة تضيق وتمنعك من العودة إلى الوراء؟

- أجل. كان ذلك منذ زمن طويل جداً.

- ما هذا الذي تسمّينه زمناً طويلاً جداً؟...

- أوه! كنت صغيرة، في عمر... ثانية أو ثانيتين.

تروي الحاصدات في مدينتهن مغامراتهنّ في الجانب الآخر من العالم، إنّها بلاد وحوش وظواهر لا يمكن فهمها. الصراصير، الكتل السوداء، الحجر العملاق، الآبار، الكرات البيضاء... إنّه كثير! لا توجد أيّة فرصة لبناء قرية في عالم على هذا القدر من الغرابة.

تبقى 103683 في زاوية، محاولة استعادة قواها. تفكّر. حين ستسمع أخواتها بقصّتها، ستضطرّ إلى إعادة تعديل جميع الخرائط وإعادة النظر بالمبادئ الأساسيّة لعلومهنّ الفلكيّة. تقول في سرّها: إنّ الوقت قد حان للعودة إلى الفيدراليّة.

اجتازوا ما يقارب عشر كيلومترات منذ أن عبروا سلّة المصيدة... ولكن، كيف بوسعهم أن يعرفوا، علاوة على أنّ التعب بدأ ينال منهم.

وصلوا إلى جدول ضيّق يتقاطع مع النفق كانت مياهه دافئة على نحو خاص ومشبّعة بالكبريت.

توقّف دانيال فجأة. بدا له أنّه رأى نملاً فوق طوّافة من ورقة نبات تسير على سطح الماء! تمالك نفسه؛ يرجّح أنّ انبعاثات غبار الكبريت «جعلته يهلوس»...

إلى أبعد بنحو بضع مئات الأمتار، وطأ جازون بقدمه على شيء أصدر طقطقة. أضاء. قفص صدري لهيكل عظمي! صرخ. أضاءا دانيال وأوغستا ما حولهم بالمصابيح اليدويّة واكتشفوا هيكلين عظميين آخرين، كان واحداً منهم بحجم طفل. هل يمكن أن يكونوا جوناثان وعائلته؟

عادوا وأخذوا الطريق، وسرعان ما اجبروا على الركض: صدرت خشخشة كثيفة تعلن عن قدوم الجرذان. اللون الأصفر للجدران كان يتحول رويداً رويداً إلى البياض. أحجار كلسيّة. وصلوا أخيراً إلى نهاية النفق منهكي القوى. عند قدم درج حلزوني آخذ بالصعود!

أطلقت أوغستا آخر طلقتين لديها صوب الجرذان، ثمّ اندفعوا داخل الدرج. كان لا يزال لدى جازون الانتباه الكافي ليلاحظ أنّه كان على عكس الأول، أي كان الصعود مثل النزول يدور بحسب عقارب الساعة.

أثــار خبر وصــول بيلوكانية إلى المدينة للتوّ ضــجّة كبيرة. يقال في الجوار: إنّها لا بدّ أن تكون سفيرة من الفيدراليّة، أتت لتؤكّد الالتحاق الرسمي لشلي – بو – كان وتعلنها المدينة الخامسة والستّين للفيدراليّة.

شــلي – بو – ني أقلّ تفاؤلاً من بناتها. لا تطمئن لتلك القادمة. ما الــذي يمنع أن تكون محاربة ذات رائحة صــخر مبعوثة من بيل – أو – كان لتتسلّل إلى مدينة الملكة المشاغبة؟

كيف هي؟

هي خائرة القوى على وجه الخصوص! لا بدّ أنّها ركضت من بيل – أو – كان لتجتاز المسافة ببضعة أيّام فقط.

الراعيات من اكتشــفها، منهكة، تســير بلا هدى في الجوار. وإلى الآن لم تبثّ شــيئاً، أوصــلناها على الفور إلى قاعة النمال الصــهاريج لتجدّد قواها.

أحضروها إلى هنا، أريد أن أقابلها بمفردي، ولكن أريد أن تظل الحارسات عند مدخل المقصورة الملكيّة جاهزات للتدخّل عند أيّة إشارة منّي.

كانت شــلي – بــو – ني ترغب دوماً أن يصــلها أخبــار عن مدينة مســقط رأسها، ولكن بعد أن وصــلت ممثلة عن المدينة، أول ما يخطر لها هو أن تعتبرها جاسوســة وتقتلها. ســتنتظر حتّــى تراها، ولكن إذا التقطت أيّ ذرة من رائحة الصخر، ستأمر بإعدامها دون أدنى تردّد.

أُحضرت البيلوكانيّة. أوّل ما تعارفتا، اندفعتا نحو بعضهما بعضاً، بفكوك موسّعة إلى أقصاها، وغرقا... بأدسم وألذّ تطاعم. من شدّة الانفعال لم يتمكّنا من البثّ مباشرة.

شلي – بو – ني تطلق الفيرومون الأوّل.

إلى أين وصل التحقيق؟ هل كانت هي الأرضات بالفعل؟

تروي الرقم 103683 بأنّها اجتازت النهر الشرقي وزارت مدينة الأرَضَة؛ وبأنّ هذه المدينة دمّرت و لم ينج منها أحد.

إذاً من كان وراء كل ما حدث؟

المسؤولون الحقيقيون عن مجمل هذه الأحداث غير المفهومة، بحسب المحاربة، هم حرّاس حافّة العالم الشرقي. حيوانات لفرط غرابتها لا نراها، ولا نشعر بها. تنبثق فجأة من السماء، فيموت الجميع!

تصغي شلي – بو – ني بانتباه. ولكن، يبقى هناك عنصر بحاجة إلى تفسير، أضافت 103683، كيف تمكّن حرّاس نهاية العالم من استخدام الجنديّات ذوات رائحة الصخر؟

لدى شلي – بو – ني فكرة عن هذا الأمر. تروي لها بأنّ الجنديّات ذوات رائحة الصخر لسن جاسوسات ولا مرتزقات، هنّ قوّة سرّية مكلّفة بمراقبة مستوى التوتّر في جسم المدينة. يكتمن جميع المعلومات التي قد يكون من شأنها إقلاق المدينة... تروي كيف اغتالت تلك القاتلات الرقم 327 وكيف حاولن اغتيالها.

ومؤونة الغذاء تحت صخرة قاع المدينة؟ وممرّ الغرانيت؟

لم يكن لدى شلي – بو – ني جواب بهذا الخصوص. وبالمناسبة قد أرسلت سفيرات جاسوسات في محاولة حلّ هذا اللغز المزدوج.

تقترح الملكة الشابة على صديقتها أن تأخذها بزيارة لرؤية المدينة، وتشرح لها على الطريق الإمكانيات المدهشة التي يوفرها الماء. النهر الشرقي، مثلاً، كان دائماً يعدّ قاتلاً، رغم أنّه ماء ليس أكثر، الملكة سقطت به و لم تمت جرّاء ذلك. ربّما يسعنا يوماً النزول إلى ذلك النهر على طوّافات من أوراق النبات واكتشاف الحافّة الشمالية للعا لم... يغلب الحماس شلي – بو – ني، فتردف: على الأرجح ثمّة حرّاس في الحافّة الشماليّة، وقد يكون بوسعنا أن نحرّضهم على قتال حرّاس الحافّة الشرقيّة.

لاحظت الرقم 103683 أنّ شلي – بو – ني تطفح بالمشروعات الجريئة. ومعظمها غير قابل للتحقّق ولكن ما أنجز حتّى الآن مدهش: لم تر الجنديّة يوماً مفاطر أو حظائر بهذا الاتساع، لم تر طوّافات عائمة على قنوات جوفيّة...

ولكن أكثر ما فاجأها هو آخر فيرومون صدر عن الملكة:

تؤكّد بأنّه إذا لم ترجع سفيراتها في غضون خمسة عشر يوماً، فإنّها ستعلن الحرب على بيل – أو – كان. على اعتبار أنّ مدينة مسقط رأسها غير مواكبة لهذا العا لم. مجرّد وجود المحاربات ذوات رائحة الصخر يظهر بأنّ المدينة عاجزة عن مواجهة الحقائق. إنّها مدينة هشّة مثل حلزون. كانت ثوريّة في الماضي، أمّا الآن فهي متخلّفة

عـن زمانها. يجب إحداث تغيير. هنا في شـلي - بـو - كان، النمال تتقـدّم أسرع. وتعتبر شـلي - بو - ني أنّها إذا ما أصـبحت على رأس الفيدراليّـة، فإنها تسـتطيع دفعها للتطور بسرعـة. مبادراتها، مع 65 مدينة متّحدة، سـتحقّق نتائج مضـاعفة بعشر مـرّات. لقد بدأت منذ الآن تفكّر بالاسـتيلاء على مجـاري المياه وبتجهيز فيلق طائر مسـتغلّة خنافس وحيد القرن.

تـتردّد الرقـم 103683. كانت تنوي الالتحـاق ببيل - أو - كان لـتروي حكاية أوديسّـتها، ولكن شـلي - بـو - ني طلبـت منها بأنّ تتراجع عن هذا المشروع.

لقـد أنشـأت بيـل - أو - كان جيشـاً كاملاً لكي «لا تعلـم»، لا تجبريها على معرفة ما لا تريد معرفته.

نهاية الدرج الحلـزوني متمدّد بدرجات من الألمنيوم. هذه لا تعود إلى عصر النهضة! يصلون أمام باب أبيض. وكتابة من جديد:

ووصلـت إلى قـرب جدار مشيد من بلّـور ومحاط بألسنة اللهـب. وذلك بدأ يخيفني.

ثمّ دخلت في ألسنة النار إلى القرب من منزل كبير مشيد من بلوّر.

وجدار المنزل كان مثل تدفق مربّعات من البلور وأساساته كانت من بلّور

سقفه كان مثل درب النجوم.

وثمّة بينهم رموز من النار

وسماؤهم صافية مثل الماء. (إنوش، 1)

يدفعون الباب، ويصعدون ممرّاً شديد الانحدار. تفتح الأرضية فجأة تحت أقدامهم - أرضيّة متحرّكة! لفرط طول سقوطهم... عبرت مرحلة الخوف، وبدأوا يشعرون بأنّهم يطيرون. إنهم يطيرون فعلاً!

يخفّف من وقع سقوطهم شبكة جمباز، شبكة هائلة الحجم بغرز ضيّقة. زاحفين على أربعة أرجل، أخذوا يتلمّسون في الظلمة. ميّز جازون براجيل باباً جديداً... ليس له كلمة سريّة، وإنما مقبض عادي. ينادي رفاقه، بصوت خافت. ثمّ يفتح الباب.

عجوز: في إفريقيا، نبكي موت عجوز أكثر من موت مولود جديد. يشكّل العجوز كمّاً من الخبرات التي تفيد سائر القبيلة بينما المولود الجديد، بما أنه لم يحيَ، فهو لا يعي حتّى موته.

في أوربا، نبكي المولود الجديد لأنّنا نقول لأنفسنا إنّه من المؤكّد سيقوم بأشياء

عظيمة فيما لو أنه عاش. وعلى خلاف ذلك نعطي القليل من الاهتمام إلى موت العجوز. فقد تمتّع، على أية حال، بالحياة.

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

المكان غارق في ضوء أزرق.

إنّه معبد دون صورة، أو تمثال.

تعود أوغستا للتفكير بكلمات البروفسور لوديك. بلا ريب أنّ بروتستانتيين لجأوا إلى هذا المكان في الماضي، حينما كان يُمارسُ بحقّهم أشد أنواع الاضطهاد.

تحت قناطر عريضة من الحجر المقصّب، قاعة واسعة، مربّعة، شديدة البهاء. الأثاث الوحيد هو أرغن صغير وقديم ينتمي لذلك الزمن وضع في وسط القاعة. أمام الأرغن، منضدة وعليها حافظة أوراق سميكة.

الجدران مغطاة بكتابات، والكثير منها، حتى من وجهة نظر دينيّة، تبدو أقرب إلى السحر الأسود منها إلى السحر الأبيض. لوديك كان على حق، لا بدّ أنّه توالى على هذا الملجأ تحت الأرضي عدد من الأخويات السرّية. ولكن، آنذاك لم يكن يوجد حائط يستدير، ولا سلة مصيدة أو شرك شبكي.

يسمع خرير، كما لو أن مياهاً تجري. لا يرون مصدرها مباشرة. اللون المائل للزرقة يأتي من الجهة اليمنى. هناك يوجد ما يشبه مخبر،

ملـيء بالحواسـيب وأنابيب الاختبـار. جميع الآلات لاتـزال تعمل؛ شاشات الحواسيب هي التي تصدر تلك الهالة التي تضيء المعبد.

– ذلك يوقعكم بالحيرة، أليس كذلك؟

نظروا إلى بعضـهم. لم ينبس أيّ منهم ببنت شـفة. أضاءت لمبة في السقف.

استداروا. جوناثان ويلز، بمئزر أبيض يتجه نحوهم. دخل من باب للمعبد في الجهة الأخرى من المخبر.

– مرحبـاً جدتي أوغسـتا! أهـلاً جـازون براجيل! أهـلاً دانيال روزنفيلد!

بقـي الثلاثـة جامدين مكانهم في حالة من الوجـوم، عاجزين عن الإجابـة. ألم يكن ميتاً إذاً! يعيش في هذا المكان! كيف بوسـع المرء أن يعيش هنا؟ لا يعرفون بأي سؤال يبدؤون...

– أهلاً بكم في جماعتنا الصغيرة.

– أين نحن؟

– أنتـم هنا في معبد بروتسـتانتي شـيّد من قبل جـان أندرويه دو سيرسـو في بداية القرن السـابع عشر. آندرويه اشتهر ببناء فندق سولّي بشـارع سـانت أنطوان في باريسـ، ولكن في رأيي هـذا المعبد تحت الأرضـي هو تحفتـه الأهـم. كيلو مترات من الأنفاق بحجر مقصّـب. رأيتـم، الهـواء متوفر على طول المسـافة. لا بدّ أنّه وضـع مداخن، أو

عرف كيف يستخدم جيوب الهواء للأروقة الطبيعية. نعجز أن نفهم كيف تمكّن من فعل ذلك. وهذا ليس كلّ شيء، إذ لا يقتصر الأمر على الهواء فقط وإنّما الماء أيضاً. لا بدّ أنّكم لاحظتم جداول تتقاطع مع بعض المسافات من النفق. انظروا، أحدهم يصبّ هنا.

يشير إلى مصدر الخرير المستمرّ، نافورة منحوتة وراء الأورغ.

– الكثير من الناس، على مرّ العصور، اعتزلوا هنا ليجدوا السلام والسكينة للقيام بأشياء تستدعي، دعونا نقول... كثيراً من التركيز. لقد اكتشف خالي إدمون في كتاب طلاسم قديم وجود هذا الوكر وهنا كان يعمل.

اقترب جوناثان أكثر؛ تنبعث منه لطافة وسكينة نادرتين. ممّا أدهش أوغستا.

– ولكن لا بدّ أنكم مرهقون. اتبعوني.

دفع الباب الذي ظهر منه منذ قليل، وأخذهم إلى غرفة فيها عدّة دواوين موضوعة على شكل دائري.

– لوسي، نادى، لدينا زوّار!

– لوسي؟ إنها معك؟ صرخت أوغستا بسعادة.

– همم، كم عددكم هنا؟ سأل دانيال.

– كنّا إلى الآن ثمانية عشر: لوسي، نيكولا، رجال الإطفاء الثمانية، ومفتش، وخمس شرطيين، المفوّض وأنا. باختصار كلّ الناس الذين

تكبّدوا عناء النزول. ستروىنهم عمّا قريب. اعذرونا، ولكن.بما يخصّ جماعتنا الساعة الآن الرابعة صباحاً، والجميع نائم. قدومكم لم يوقظ غيري، رغم الجلبة الكبيرة التي أثرتموها في الممرّات...

ظهرت لوسي، ترتدي مئزراً أيضاً.

– صباح الخير!

تقدمت، مبتسمة، وقبّلت الجميع. ظهرت من فرجة الباب، وراءها، عدّة هيئات بالبيجاما ليروا «القادمين الجدد».

أحضر جوناثان أبريقاً من ماء النافورة وكؤوساً.

– سنترككم قليلاً، حتى نرتدي ثيابنا ونتهيّأ. نستقبل الجدد عادة باحتفال صغير، ولكن الآن لم نكن نعرف أنكم ستصلون عند منتصف الليل... نراكم بعد قليل!

لم يتزحزحوا، أوغستا وجازون ودانيال من مكانهم. لفرط ما بدت هذه القصة هائلة، قرص دانيال ذراعه. أوغستا وجازون أيضاً يقومان بالشيء ذاته. ولكن كلّا، الواقع أحياناً يحلّق أبعد من الحلم. يتبادلون النظرات والابتسامات، مندهشين بغبطة.

.بمضي بضع دقائق، كان الجميع مجتمعين، وجالسين على الأرائك. أوغستا، وجازون ودانيال استعادوا تمالك أنفسهم وهم الآن متعطّشون لمعرفة المزيد.

– كنت تتكلّم منذ قليل عن المداخن، هل نحن بعيدون عن سطح الأرض؟

– لا، ثلاثة أمتار أو أربعة بالحدّ الأقصى.

– فإذاً، يمكننا الخروج إلى الهواء الطلق؟

– لا، لا. جان أندرويه دو سيرسو حدّد الموقع وبنى المعبد بالضبط تحت صخرة مسطّحة ضخمة صلابتها تمكّنها من المقاومة – صخرة غرانيت!

– مع أنّها مثقوبة بثقب بحجم ذراع، أردفت لوسي. تلك الفوّهة كانت تستخدم هنا كمدخنة تهوية أيضاً.

– كانت تستخدم؟

– بلى، أمّا الآن فهذه القناة مخصّصة لاستخدام آخر. هذا ليس مشكلة، يوجد مداخل أخرى للتهوية الجانبيّة. ترون جيداً أنّنا لا نختنق هنا...

– لا نستطيع الخروج؟

– كلّا. أو على أيّة حال ليس من الأعلى.

بدا القلق واضحاً على جازون.

– ولكن جوناثان، لماذا بنيت الحائط المتحرّك، وسلّة المصيدة تلك، والأرضيّة التي تفتح تحت القدمين، وشبكة الجمباز؟... نحن عالقون تماماً هنا!

– وهذا هو المطلوب بالضبط. تطلّب مني ذلك إمكانيات وجهود

كبـيرة. ولكن ذلك كان ضرورياً. حين وصـلت للمرّة الأولى إلى هذا المعبد وقعت عيناي على المنضــدة. ووجدت عليها إضافة إلى **موسوعة العلم النسبيّ والمطلق**، رسالة من خالي موجّهة لي شخصياً. ها هي.

أخذوا يقرأون الرسالة:

«عزيزي جوناثان،

«أخذت قرارك بالنزول رغم تحذيري. أنت إذاً أشــجع مما ظننتك. أحيّيك. بالنســبة لي، كانت فرصتك بالنجاح لا تتجاوز الواحد على خمســة. لقد أخبرتنــي أمّك عن رهابك من الظلمــة. ولكن إذا كنت الآن هنا فهذا يعني أنّك نجحت، من بين أشــياء أخر، بأن تتجاوز هذه العقبة وبأنّ إرادتك قد شُحذت. وسنحتاج لذلك.

«ســتجد في هذه الحافظة **موسوعــة العلم النسبــيّ والمطلق**، والتي هي في الوقــت الذي أكتب فيه هذه الكلمات، تضــمّ 288 فصــلاً تتناول انشغالاتي. أتمنّى أن تتابعها، إنّها تستحقّ المشقّة.

«الأســاســي في هذه البحوث يدور حول حضــارة النّمل. ســتقرأ وســتفهم. ولكن في البداية لديّ طلب ملحّ أرجوه منك. ففي الوقت الذي وصلتُ فيه إلى هنا، لم يكن قد أتيح لي بعد الوقت الكافي لإعداد الحمايات لسرّي (لو تسنّى لي ذلك لما كنتَ عثرتَ على الرسالة مكتوبة بهذا الشكل).

«أطالبك بإقامتها. بدأت ببضــعة تصــاميم أوليّــة، ولكن أعتقد أنّ

بإمكانك تحسين تلك المقترحات بحسب خبرتك المهنيّة. هدف هذه الميكانيكيات بسيط. يجب ألا تتمكن الناس من الدخول بسهولة إلى مقرّي الجوفيّ، ولكن ينبغي على من وصله ألا يتمكّن يوماً من العودة والحديث عمّا رآه.

«آملُ أنّك ستنجح، وأنّ يمنحك هذا المكان «ثروات» بالقدر الذي منحني.

«إدمون.»

– جوناثان دخل في اللعبة، شرحت لوسي. وأقام جميع الفخاخ المطلوبة، وقد لاحظتم فعاليتها.

– والجثث؟ هل هم أشخاص سقطوا بين مخالب الجرذان؟

– كلا. (ابتسم جوناثان) أؤكد لكم أنّه لم يمت أحد في هذا الدهليز منذ أن أقام إدمون فيه. الجثث التي رأيتموها تعود إلى خمسين سنة بالحدّ الأدنى. لا نعلم أيّة مآس حدثت آنذاك في هذا المكان. ربّما جماعة سرّية ما...

– ألن يكون بإمكاننا أن نصعد أبداً؟ سأل جازون قلقاً.

– أبداً.

– يجب الوصول إلى الفوهة الموضوعة فوق الشبكة (على علو ثمانية أمتار!)، وتجاوز السلّة المصيدة في الاتجاه المعاكس، وهذا ضرب

من المستحيل، وليس لدينا أيّة أداة قادرة على تذويبها، فضلاً عن عبور الحائط (إذ أنّ جوناثان لم يحسب حساب فتحه من هذه الجهة)...

– دون التطرّق إلى موضوع الجرذان...

– كيف فعلت لتحضر الجرذان إلى الأسفل؟ سأل دانيال.

– إنها فكرة إدمون. كان قد وضع زوجاً من الجرذان من الصنف النرويجي، والذي يتّصف بالبدانة والعنف داخل تجويف عميق في الصخر، مع مؤونة كبيرة من الغذاء. كان يعلم بأنّ ذلك سيكون قنبلة موقوتة. فعندما تتغذى الجرذان جيداً ستتكاثر بسرعة هائلة. ستّة أفراخ كلّ شهر، والتي بدورها سوف تتكاثر بعد أسبوعين... ولكي يحمي نفسه منها كان يستخدم بخّاخ فيرومون عنفيّ لا تحتمله تلك القوارض.

– أيعني ذلك أنها هي التي قتلت ورزازات؟ سألت أوغستا.

– للأسف، بلى. وجوناثان لم يحسب حساب أنّ الجرذان التي ستجتاز «حائط الهرم» ستصبح أشدّ شراسة.

– أحد رفاقنا الذي كان لديه رهاب الجرذان، أصابه مسّ حين قفز أحد هذه الدوابّ الضخمة على وجهه وقرض أرنبة أنفه. عاد وصعد على عقبه، قبل أن ينتهي حائط الهرم من الهبوط عائداً إلى مكانه. هل لديكم أخباره على سطح الأرض؟ سأل أحد الشرطيين.

– سمعت أنّه جنّ وأغلق عليه في مصح الأمراض العقليّة، أجابت أوغستا، ولكن هذه «إشاعات».

نهزت لتأخذ كأس ماء، غير أنّها لاحظت وجود الكثير من النّمل على الطاولة. صرخت، وتلقائياً، كنّستهم بظاهر يدها. قفز جوناثان، وأمسكها من معصمها، نظرته القاسية تتعارض مع ذروة السكينة التي كانت تطفو في جوّ المجموعة حتّى الآن؛ وعادت له حركة الفم الذي بدا أنّه قد شفي منها.

- لا تكرّري... ذلك... البتة!

وحدها داخل مقصورتها، بيلو - كيو - كيوني تأكل وهي ساهمة فوجاً من بيوضها؛ بالمحصلة هذا هو غذاؤها المفضّل.

هي تعلم بأنّ تلك التي تدّعي أنّها 801 ليست سفيرة للمدينة الجديدة فحسب. رقم 56 أو بالأحرى الملكة شلي - بو -ني.بما أنّها تريد أن يكون اسمها هكذا، أرسلتها لمتابعة التحقيق.

لا داعي للقلق، فمحارباتها ذوات رائحة الصخر لا بدّ أن يتخلّصوا منها بسهولة. العرجاء، على نحو خاص، موهوبة جداً في فن إزالة ثقل الحياة - فنانة!

مع أنّ هذه هي المرّة الرابعة التي ترسل لها شلي - بو - ني سفيراتها المفرطات الفضول. الدفعة الأولى قتلت قبل حتّى أن يجدوا قاعة الرواغة. الدفعة الثانية والثالثة ماتت من جرّاء مواد الهلوسة للخنفساء المسمّمة.

أمّا بالنسبة للرقم 801 يقال أنّها نزلت ما إن انتهت من مقابلة الأم.

لا يلبثن أن يكنّ أكثر توقاً للموت! لكنّهن في كل مرّة يمضين أعمق في المدينة. ولكن ماذا لو تمكّنت واحدة منهن أن تجد الممرّ رغم كل شيء؟ وإذا اكتشفت السرّ؟ وإذا نشرت رائحته؟...

عندئذ لن يتفهّم القطيع. وسيكون لدى المحاربات - مضادات التوتّر القليل من الحظ لكتم المعلومة في الوقت المناسب. ماذا ستكون ردّة فعل بناتها؟

تدخلُ محاربة ذات رائحة صخر على عجل.

الجاسوسة تغلّبت على الروّاغة! هي الآن في الأسفل!

وها هو، ما كانت تخشى حدوثه قد وقع...

666 هو اسم الوحش (سفر الرؤيا بحسب القديس يوحنا).

ولكن من سوف يكون الوحش، بالنسبة لمن؟

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

أفلت جوناثان معصم جدّته. قبل أن يرخي الإحراج ظله، حاول دانيال صرف الانتباه.

- وهذا المخبر في المدخل، بماذا يستخدم؟

– إنّه حجر رشـيد! جميع جهودنا من أجل خدمة طموح واحد: التواصل معهنّ!

– هنّ... من هنّ؟

– هن النمال. اتبعوني.

تركوا حجرة الصـالون وذهبوا جميعـاً إلى المخبر. أخذ جوناثان، الذي بدا واضـحاً تمكّنه مـن دوره كخليفة لإدمون، عن طاولة المخبر أنبوبة اختبار مليئة بالنّمل ورفعها إلى مستوى النظر.

– انظروا، إنّها مخلوقات. مخلوقات مكتملة. ليسوا حشرات صغيرة عديمـة القيمة، وهذا ما فهمه خالي على الفور... تشـكّل النمال ثاني حضـارة أرضيّة كبيرة. أمّا بالنسـبة لإدمون، فهو نوع من كريستوف كولومبوس إذ اكتشـف قارة أخرى بين أصـابع أقدامنا. أوّل من فهم بأنّه قبل البحث عن سكان من خارج الأرض في أقاصي الفضاء يجب إيجاد صلة... مع سكّان داخل الأرض.

لم ينبس أحد ببنت شـفة. تذكرت أوغسـتا. منذ بضعة أيام كانت تتنزه في غابة فونتينبلو وشـعرت فجأة بكتل صغيرة جداً تطقطق تحت نعلها. لقد داست مجموعة من النّمل. انحنت. فوجدت أنّ جميعها قد مات، غير أنّه ثمّة لغز فقد كانت مصـطفّة كما لو كانت تشكّل سهماً برأس مقلوب...

بعد أن أعاد أنبوبة الاختبار، استأنف جوناثان كلامه:

– حين عـاد إدمون من إفريقيا، عثر أولاً علـى هذه العمارة، ومن

ثمّ نفقها في الأسفل، ثمّ المعبد. كان مكاناً مثاليّاً، أعدّ فيه مخبره... في المرحلـة الأولى مـن أبحاثه كان يحاول فكّ رمـوز فيرومونات حوار النّمـل. هذه الآلة هي مقياس طيفي للكتلة. وكما يدلّ اسـمها على ذلـك هي تعطي طيـف الكتلة، تعيد أيّـة مادة إلى عـدد الذرات التي تُشكّلها... قرأتُ ملاحظات خالي. في البداية، كان يضع نمال اختباره تحت جرس من زجاج موصول بقناة تسحب المعلومات إلى المطياف. كان يضع نملة على تماس مع قطعة تفاح، ثم تقابل هذه النّملة نملة أخرى وحتماً كانت ستقول لها: «يوجد تفاح هناك» بالمحصلة، كانت هذه فرضـية البداية. هو، كان يسـحب الفيرومونات المنبثّة، يفكّ رموزها ويصل إلى صـياغة كيميائية... «يوجد تفاح في الجهة الشماليّة» يقال مثلاً: «ميثيـل 4- ميثيل بيرول 2- كربوكسـيلات». الكميات قليلة جداً، من 2 إلى 3 بيكو غرامات (10^{-12} غ) في الجملة... ولكن ذلك كان كافيـاً. بهذه الطريقـة كنّا نعرف «التفاحة» و«الجهة الشـماليّة» يتابـع الخبرة مع العديد من الأشـياء، أغذية أو حـالات. بهذه الطريقة حصـل على قاموس حقيقي فرنسـي -نملي. بعد أن عرف ما يقارب مائة اسـم من الفاكهـة، وثلاثين من الزهور، ونحـو عشرة اتّجاهات، تعلّم فيرومونات الإنـذار، وفيرومونات اللذة، والتي للاقتراح، والتي للوصـف؛ وقابل حتّى ذوات جنس علّمنَهُ كيف يعبّر عن «مشـاعر مجرّدة» للجزء السـابع القرني... ومع ذلك لم تكن إجادة «سماعهن» تكفيه. أراد أن يكلّمهن، وأن يجري معهن حواراً حقيقياً.

- معجزة! لم يستطع البروفسور روزنفيلد تمالكَ نفسه عن الغمغمة بهذه الكلمة.

- بـدأ بإجراء مقابلة بـين كل معادلة كيميائية وصـوت من النوع

المقطعي. مثيل 4- متيلبيرول 2- كربوكسيلات سيقال مثلاً، م ت4 م ت ب 2 ك إكس ثمّ ميتيكاميتيبيدسيكسو وأخيراً خزّن في ذاكرة الحاسوب ميتيكاميتيبي = تفاحة؛ و: دسيكسو = يقع في الشمال. يجري الحاسوب الترجمة في الاتجاهين. حين يقرأ «دسيكسو» يترجمها إلى جملة «يقع في الشمال» وحين ندقّ «يقع في الشمال» يحوّل هذه الجملة إلى «دسيكسو»، مصدراً بث كربوكسيلات من جهاز الإرسال هذا...

- جهاز إرسال؟

- بلى، هذا الجهاز.

يشير إلى ما يشبه مكتبة مكوّنة من آلاف الحواجل الصغيرة وفي نهاية كل حوجلة أنبوب متصل بمولد كهربائي.

- تسحب الذرات من كل حوجلة عن طريق المولّد، ثمّ ترسل إلى هذا الجهاز الذي ينتقيها ويعطيها حجم المعيار الدقيق والمحدّد في القاموس المعلوماتي.

- رائع، استأنف دانيال روزنفيلد، ببساطة إنّه رائع. وهل توصّل حقاً إلى الحوار معهن؟

- همم... إلى المرحلة التي وصلنا إليها من الأفضل أن أقرأ لكم ملاحظاته في الموسوعة.

مقتطفات من محادثة: مقتطف المحادثة الأولى مع نملة محاربة من فصيلة فرميكا روفا.

إنسان: هل تستقبلينني؟

نملة: كرررررررر

إنسان: إنّي أبثّ، هل تستقبلينني؟

نملة: كررررررركرررركرررررر. النجدة.

(ملاحظـة: تمّ تعديل المعايرة عدة مرّات. كانت الإرســالات قوية جداً، لدرجة تخنق موضوع التجربة. يجب وضع مفتاح معايرة البثّ على الرقــم 1. وبالمقابل دفع مفتــاح معايرة الاســتقبال إلى الرقم 10 لكيلا نخسر أيّة ذرة.)

إنسان: هل تستقبلينني؟

نملة: بوغو.

إنسان: إنّي أبثّ، هل تستقبلينني؟

نملة: زغوغنو. النجدة. أنا مغلق عليّ.

مقتطف المحادثة الثالثة.

(ملاحظـة: المفــردات ازدادت هذه المــرّة إلى ثمانـين كلمة. كان الإرســال لا يزال قويّاً جداً. معايرة جديدة، يجب وضع المفتاح قريب

جداً من الصفر.)

نملة: ماذا؟

إنسان: ماذا تقولين؟

نملة: لا أفهم شيئاً. النجدة!

إنسان: لنتكلم ببطء أكثر!

نملة: أنت تبث بقوّة كبيرة! قرناي مشبعان. النجدة! أنا مغلق عليّ.

إنسان: والآن، أفضل؟

نملة: لا، ألا تجيد الحوار.

إنسان: في الواقع...

نملة: من أنت؟

إنسان: إنّي حيوان كبير. اسمي إد - مون. أنا إن - سان.

نملة: ماذا تقول؟ لا أفهم شيئاً، النجدة! ساعدوني! أنا مغلق عليّ!...

(ملاحظة: من تبعات هذا الحوار، مات موضوع التجربة، مات بعد نهايتها بخمس ثوان. هل لا يزال البثّ شديد السميّة؟ هل كان خائفاً؟)

توقف جوناثان عن القراءة.

- كما ترون، ليس الأمر بهذه البســاطة! لا يكفي تجميع المفردات لنكلّمهنّ. إضــافة إلى أنّ لغة النّمل لا تجري وفق نظام لغتنا. فالتواصل بينهن لا يعتمد على انبثاثات الحوار التي تستلم فقط، وإنما يوجد أيضاً انبثاثات أخرى مرســلة من قبل أجزاء القرن الأحد عشر، والتي تُظهِرُ هوية الفرد، وانشــغالاته، والحالة النفســيّة... نوع من الحالة النفسية الكليّة للتفاهم بين الأفراد بطريقة جيّدة. لهذا الســبب اضــطر إدمون إلى التخلّي عن مشروعه. سأقرأ لكم ملاحظاته.

كم غبيّ أنا: كم غبيّ أنا!

ولنفترض أنّه ثمّة سكان فضاء لن نتوصّل إلى فهمهم. بالتأكيد لن يكون لدينا ذات المرجعيّـات. ربما نأتي لهم ممدودي اليد، وقـد يُفهم ذلك بالنسبة لهم حركة تهديد.

نعجــز حتّــى عن فهــم اليابانيــين في انتحارهــم الطقســي أو الهنـود في نظام طوائفهــم. نعجز عن فهم بعضنــا كبشر... كيف واتاني الغرور بــأن أدّعي القدرة على فهم النّمل!

لم يتبــقّ للرقم 801 غير جزء من بطنهــا. حتّى ولو تمكّنت من قتل الروّاغة في الوقت المناسب، فإنّ المعركة ضدّ المحاربات ذوات رائحة الصــخر في المفاطر أنقصها. هذا جيد أم ســيء: ليكن، بلا بطن تحسّ نفسها أكثر خفّة.

تأخذ الممرّ العريض المحفور في الغرانيت. كيف استطاعت فكوك النمال حفر مثل هذا النفق؟

في الطبقة الأدنى، تكتشف ما دلّتها عليه شلي - بو - ني: القاعة المليئة بكمّيات كبيرة من الأغذيّة. ما إن اجتازت بضع خطوات في القاعة حتّى وجدت مدخلاً آخر. ولجته فوجدت نفسها في مدينة، مدينة كاملة بروائح الصخر! مدينة تحت المدينة.

- أفشل إذاً؟

- بالفعل، بقي لفترة طويلة يجترّ مرارة ذلك الفشل. كان يعتقد بعدم وجود أيّ مخرج، وبأنّ الاعتداد بانتمائه للجنس البشريّ قد أعماه. ثمّ أيقظته المشاكل. بغضه القديم للبشريّة كان بداية انطلاق.

- ما الذي حصل؟

- أتتذكر بروفسور أنّك أخبرتني أنّه عمل في شركة «Sweetmilk Corporation» وبأنّه تنازع مع زملائه.

- بالفعل!

- أحد رؤسائه في العمل فتّش في مكتبه، وهذا الرئيس لم يكن سوى مارك لوديك، أخي البروفسور لوران لوديك!

- عالم الحشرات؟

– هو ذاته.

– هـذا لا يصـدّق... أتـى لرؤيتـي وقدّم نفسـه على أنّه صـديق لإدمون، ونزل.

– نزل إلى القبو؟

– أوه! لا تهتـم لم يمض بعيداً. لم يتمكـن من اجتياز حائط الهرم، فعاد وصعد.

– همم، أتى أيضـاً لرؤية نيكولا وحاول وضع يده على الموسوعة. حسناً... مارك لوديك لاحظ بأنّ إدمون يعمل بولع على تصاميم بعض آلات (في الواقع هي أوائل مخطّطات حجر رشيد). نجح في فتح خزانة إدمون ووقع على الحافظة التي تضمّ موسوعة العلم النسبيّ والمطلق. وجد فيهـا ثلاثة مخطّطات لأول جهاز للتواصـل مـع النّمل. حين فهم غاية اسـتخدام هذه الآلة (وكان يوجد ما يكفي من التعليقات لكي يفهم)، أثار الموضوع مع أخيه. والذي أبدى بدوره اهتماماً شديداً وطلب منه فوراً سرقـة الأوراق... ولكن إدمون كان قد لاحظ أنّ أحداً قد عبث بأغراضـه، ولكـي يحميها من زيـارة جديدة، أطلق أربعـة زنابير من صـنف النمسـيّة في الدرج. وأوّل ما أعاد مارك لوديك محاولته ثانية، لسـعته تلك الحشرات التي لديها عادة بشعة بوضع يرقاتها المفترسة في الجسـد الذي تغرز فيهـا إبرتها. في اليوم التالي، اكتشـف إدمون آثار اللسـعات وأراد أن يكشـف المتهم للعلن. وأنت تعرف تبعات ذلك، هو الذي طرد في النهاية.

– والأخوان لوديك؟

– مارك لوديك عوقب جيداً! اليرقات النمسيّة كانت تنهشه من الداخل وذلك استمرّ لمدّة طويلة جدّاً، عدة سنوات حسب ما يقال. وبما أنّ اليرقات لم تكن تستطيع الخروج من ذلك الجسد الهائل لتتحول إلى زنابير، كانت تحفر في كل الاتجاهات لتعثر على مخرج. في النهاية، من شدة ما كان الألم لا يطاق ألقى بنفسه تحت سكّة ميترو. قرأت ذلك صدفة في الجرائد.

– ولوران لوديك؟

– حاول كل شيء ليجد الآلة...

– قلت بأنّ ذلك قد منح إدمون الرغبة مجدّداً للعودة إلى أبحاثه. ما هي العلاقة بين هذه القضايا القديمة والأبحاث.

– بعد ذلك، اتصل لوران لوديك بإدمون مباشرة. واعترف له بأنه على علم بجهازه الخاص «لمحادثة النّمل». كان يقول بأنّه مهتمّ ويريد العمل معه. لم يعارض إدمون هذه الفكرة، فعلى أيّة حال لم يكن يحرز تقدماً، وكان يتساءل لماذا لا يرحب بمساعدة خارجيّة. «يأتي وقت لا يمكن فيه أن نكمل بمفردنا» كما يقول الإنجيل. كان إدمون مستعدّاً ليدل لوديك على وكره الجوفي، لكنه أراد أولاً أن يعرفه جيّداً. تحادثا مراراً وتكراراً. حين بدأ لوران يمتدح نظام وانضباط النّمل، مؤكّداً على أنّ التكلّم مع النّمل سيسمح للإنسان بتقليدها، فقد إدمون صبره، وغضب بشدّة وطلب منه بألا يدخل بيته أبداً.

– بففف، هذا الشيء لا يفاجئني. تنهد دانيال. لوديك هو جزء من ثلّة من علماء السلوك الحيواني، تلك الثلّة هي أسوأ ما في

المدرسة الألمانيّة، التي تريد تغيير الإنسانية بنقل جانب محدّد من تقاليد الحيوانات. فموضـوعات من قبيل مفهوم الأرض، وانضباط أعشاش النّمل... تدفع إلى التوهّم.

– نجـم عن ذلك، إمسـاك إدمـون بالحجّة ليبـدأ العمـل. أراد أن يتحاور مع النّمل من منظور... سياسـي؛ كان يظـن بأنّ النّمل يعيش حسب نظام فوضوي وكان يريد منهم أن يؤكّدوا له ذلك.

– بالطبع! همس بيلشيم.

– كان هذا يتحوّل إلى تحدّ. فكّر خالي مطوّلاً وقال لنفسه إنّ أفضل طريقة للتكلّم هي صناعة «نملة آليّة».

لوّح جوناثان بأوراق مليئة بالرسومات.

– وها هي مخطّطاتها. إدمون أسـماها «دكتور ليفينغسـتون». هو من البلاستيك. لا تتخيّلوا العمل المتناهي الدقّة والضروري لإنجاز هذه التحفة الصـغيرة! أعيد تكوين جميع المفاصـل وأصـبحت متحرّكة، بفضل محرّكات مجهريّة كهربائية موصولة ببطارية موضوعة في البطن، زيـادة على أنّ القـرن يتألف بالفعل مـن أحد عشر جـزءاً قادرين معاً على بـثّ أحد عشر فيروموناً مختلفاً!... الفـارق الوحيد بين الدكتور ليفينغسـتون والنّملة الحقيقية: بأنّه موصول بأحد عشر خرطوماً، كلّ منهم بحجم شعرة، هي ذاتها مضمومة بشكل أشبه بحبل سرّة بثخانة خيط رفيع.

– معجزة! معجزة ببساطة! تحمّس جازون.

– ولكن أين الدكتور ليفينغستون؟ سألت أوغستا.

كانت المحاربات ذوات رائحة الصخر يطاردنها. الرقم 801، وهي تركض هاربة، تكتشف فجأة رواقاً واسعاً وتندفع خلاله. بهذه الطريقة تصل إلى قاعة ضخمة، يوجد في وسطها نملة غريبة، بحجم أكبر من المتوسط بوضوح.

تقترب منها الرقم 801 بحذر. روائح النّملة الغريبة الوحيدة هي نصف حقيقيّة. عيونها لا تلمع، وتبدو بشرتها مغطاة بصباغ أسود... تتمنى أن تفهم الشليبوكانيّة الشابّة. كيف يمكن أن يكون الفرد قليل النّمليّة إلى هذا الحدّ؟

ولكنّ سرعان ما تكتشفّ الجنديّات مخبأها. تقترب العرجاء بمفردها للمبارزة. تنقض على قرنيها وتأخذ بعضّهما. يتدحرجان معاً على الأرض. تذكرت الرقم 801 نصائح أمّها: **انظري إلى حيث يفضّل العدو أن يضربك فهي على الأغلب نقطة ضعفه**... بالفعل، أوّل ما التقطت قرون العرجاء، أخذت هذه تتلوّى بجنون. لا بدّ أنّ قرنيها مفرطا الحساسيّة، المسكينة! رقم 801 تبترهما بضربة واحدة وتنجح بالفرار. غير أنّ قطيع يعدّ أكثر من خمسين قاتلة يندفع إلى مطاردتها.

– تريدون معرفة مكان الدكتور ليفينغستون؟ اتّبعوا الأسلاك الخارجة من مطياف الكتلة...

لاحظوا بالفعل أنبوباً شفّافاً، ممتداً على طاولة المخبر، يصل الجدار،

ويصـعد إلى السقف، لكي يغرز في صندوق خشبي كبير، معلّق وسط المعبـد فوق الأرغن تماماً. هذا الصـندوق مملوء على الأغلب بالتراب. القادمون الجدد يمطّون أعناقهم ليتفحّصوه بشكل أفضل.

– ولكن أنت قلت يوجد صخرة شديدة المتانة فوق رؤوسنا. قالت أوغستا.

– بلى، ولكن أخبرتكم عن وجود مدخنة تهوية لم تعد تستخدم...

– وإذا لم تعـد تسـتخدم، أكمل المفتش غالان، فهـذا ليس لأنّنا سددناها!

– إذا لم تكونوا أنتم...

– ... إنهم هم!

– النّمل!

– تماماً! مدينة عملاقة من النمال الصـهباوات مزروعة فوق هذا اللوح الصـخريّ، كما تعرفون، إنّها تلك الحشرات التي تشيد قبباً من الغصينات في الغابات...

– حسب تقديرات إدمون، يوجد أكثر من عشرة ملايين!

– عشرة ملايين؟ ولكن يمكن أن يقتلونا جميعاً!

– لا، لا شـيء يدعو للقلق، أولاً لأنهـم يتكلّمون معنا ويعرفوننا. وأيضاً ليست جميع نمال المدينة على علم بوجودنا.

بينما يقول جوناثان ذلك، تسـقط نملة من صندوق السقف هابطة على جبين لوسي. تحاول لوسي أخذها برفق ولكن الرقم 801 تخاف

وتضيع في شعرها الأصهب، تنزلق نحو شحمة أذنها، وتكرج سريعاً على عنقها، تغوص في القميص، تستدير حول الثديين ثمّ السرة، تعدو على بشرة الفخذ الرقيقة، وتقع حتّى الكاحل، ومن هناك تقفز إلى الأرض. للحظة تبحث عن اتجاهها... ثمّ تهرع نحو إحدى فتحات التهوية الجانبيّة.

– ماذا حصل لها؟

– من يعلم. على أيّة حال مجرى الهواء النقي للمدخنة سحبها، لن يصعب عليها الخروج مجدّداً.

– ولكن هناك، لن تجد مدينتها، ستصل إلى أقصى الجهة الشرقية من الفيدراليّة، أليس كذلك؟

تمكّنت الجاسوسة من الفرار! إذا استمرّ الأمر على هذا النحو عندها سيكون علينا الهجوم على المدعوّة: المدينة الخامسة والستين...

قدّمت الجنديّات ذوات رائحة الصخر تقريرهن، بقرون منخفضة. بعد أن انسحبن عادت بيلو – كيو – كيوني تجترّ للحظة مرارة هذا الفشل الخطير لسياسة السرّ. ثمّ، بضجر، تعود لتتذكّر كيف ابتدأ كلّ شيء.

حين كانت شابّة صغيرة، واجهت هي أيضاً إحدى هذه الظواهر المدهشة التي تفترض وجود كائنات عملاقة. كان ذلك بعد إفراقها تماماً؛ لقد رأت كتلاً سوداء تسحق عدّة ملكات مخصّبة، دون حتى أن

تأكلهـا. فيما بعد، بعدما أنجبت مدينتها، اسـتطاعت تنظيم لقاء حول هذا الموضوع، حضرت معظم الملكات آنذاك، أمهات أو بنات.

لاتـزال تتذكّر كانـت زوربي - زوبـي - ني أوّل من تكلّم. قالت حينها بأنّ العديد من رحلاتها الاستكشـافية خضـعت إلى أمطار من الكرات الورديّة أودت بحياة أكثر من مائة ضحية.

أخواتها بززنها وزدن عليهـا. فأخذت كل واحدة تعرض قائمتها من الأموات والمعاقين جرّاء الكرات الوردية والكتل السوداء.

لاحظت الأم العجوز شولب - غاهي - ني، أنه بحسب الشهادات أنّ الكرات الوردية تتنقل بقطعان مكونة من خمسة فقط.

أخـت أخرى، روبـغ - فايلي - ني، قالت بأنّهـا عثرت على كرة زهرية لا حراك فيها على بعد ثلاثمائة رأس تحت الأرض تقريباً. الكرة الوردية كانت متمدّدة بمادة لينة ورائحة قويّة على نحو خاص. عندئذ ثقبوها بالفك ووصـلوا إلى سـيقان قاسية وبيضـاء... كما لو أن تلك الحيوانات لديها درع داخل الجسد عوضاً عن خارجه.

في نهايـة الاجتماع، توصـلت الملكات إلى اتفاق، بمـا أنّ ظواهر كهـذه تتجاوز الفهم، قرّرت جميعهنّ الاحتفاظ المطلق بالسرّ لتجنّب حالة الذعر في أعشاش النّمل.

فكـرت بيلو - كيو - كيـوني بسرعة، من جهتها، بإنشـاء «شرطة سريّـة»، خلية عمـل مؤلّفة في تلـك الأيام من نحو خمسـين جنديّة. مهمتها: القضـاء على من شـاهدو ظاهرتي الكرات الورديّة أو الكتل السوداء لتجنب أيّ حالة جنون -ذعر.

إلّا أنّه، في أحد الأيّام، حدث شيء لا يصدّق.

أمسكت محارباتها ذوات رائحة الصخر بعاملة لمدينة مجهولة. لفرط غرابة ما قالته هذه العاملة والذي فاق كلّ ما سمعته الأمّ في حياتها، رحمتها.

ادعت العاملة بأنّها اختطفت من قبل كرات ورديّة! أولئك وضعوها في سجن شفّاف، برفقة بضع مئات من النمال الأخرى. وعرّضوهنّ إلى العديد من الخبرات. أغلب الأوقات، كانوا يضعوهنّ تحت جرس وكنّ يستلمن روائح شديدة التركيز. كان ذلك في البداية مؤلماً جداً، ثمّ أخذت الروائح تُخفّف تدريجيّاً، فتحوّلت الروائح إلى كلمات!

في المحصلة، بوساطة تلك الروائح وتلك الأجراس، تكلّمت معهن الكرات الورديّة مقدّمين أنفسهم كحيوانات عملاقة تدعو نفسها «بشر». هم (أو هنّ؟) أعلنوا عن وجود ممرّ محفور بالغرانيت تحت المدينة وبأنهم يريدون التكلّم مع الملكة. والتي تستطيع الاطمئنان بأنّه لن يلحق بها أيّة أذية.

ثمّ أخذت وتيرة الأحداث تتسارع. التقت بيلو - كيو - كيوني بنملتهم «السفيرة»، الدك - تور لي - فينغ - ستون. كانت نملة غريبة ممتدة بمعي شفاف. ولكن كان بالإمكان التحادث معها.

تحاورتا مطوّلاً. لم تكونا في البداية تفهمان بعضهما. ولكن كلتاهما كانتا تتقاسمان بوضوح الحماس ذاته. كان يبدو أن لديهما الكثير من الأشياء لتقولانه...

فيما بعد، وضع البشر الصندوق الممتلئ بالتراب على مخرج المدخنة. وزرعت الأمّ المدينة الجديدة بالبيوض، خفيةً عن أبنائها الآخرين.

غير أنّ بيل – أو – كان 2 كانت أكثر من مدينة للمحاربات ذوات رائحة الصخر. إذ أنّها أصبحت المدينة – الصلة بين عالم النمال وعالم البشر. وهناك كان يقيم باستمرار الدك – تور لي – فينغ – ستون (اسم مضحك نوعاً ما).

مقتطفات محادثة: مقتطف المحادثة الثامنة عشرة مع الملكة بيلو – كيو – كيوني:

النّملة: الدولاب؟ لا يعقل أنّ فكرة استخدام الدولاب لم تخطر لنا على بال. رغم عدد خنافس الروث التي رأيناها وهي تدفع كراتها، لم تستنتج أيّة واحدة منّا فكرة الدولاب.

الإنسان: كيف تنوين استخدام هذه المعلومة؟

النّملة: إلى الآن لا أدري.

مقتطف المحادثة السادسة والخمسون مع الملكة بيلو – كيو – كيوني:

النّملة: لديك نبرة حزينة.

الإنسان: لابدّ أن يكون السبب معايرة خاطئة لأرغن روائحي. كأنّه منذ أن أضفت إليه نظام لغة التعبير عن المشاعر، بدأت تظهر أعطال بالجهاز.

النّملة: لديك نبرة حزينة.

الإنسان:...

النّملة: لم تعد تبث؟

الإنسان: أعتقد أنّها مجرد مصادفة. ولكن أنا بالفعل حزين.

النّملة: ما الذي يحصل؟

الإنسان: كان لديّ أنثى. عندنا تعيش الذكور مدّة طويلة، لذا نعيش كثنائي، ذكر واحد لأنثى واحدة. كان عندي أنثى وفقدتها، وهذا منذ بضع سنوات. وكنت أحبّها، وأعجز عن نسيانها.

النّملة: ماذا يعني «أحبّ»؟

الإنسان: لدينا الروائح نفسها، ربّما؟

تتذكّر الأم نهاية الإن – سان إد – مون. حصل ذلك أثناء الحرب الأولى ضد القزمات. أراد إدمون مساعدتهن. فخرج من الدهليز. ولكن من فرط تعامله مع الفيرومونات، امتصّ منها الكثير. إلى درجة كان يُظنّ، دون علمه، حين يمرّ بالغابة... أنّه نملة صهباء من الفيدراليّة. ولمّا التقطت زنابير شجرة التنوب (التي كانت في حرب معهنّ آنذاك) روائح جواز مروره انقضّت عليه جميعها.

قتلوه وهم يعتقدون أنّه بيلوكانيّاً. لابدّ أنّه مات سعيداً.

فيما بعد، أعاد ذلك الجوناثان وجماعته التواصل...

صبّ ثانية قليلاً من خمر العسل في كؤوس الثلاثة الجدد، الذين لم يكونوا يتوقّفون عن طرح الأسئلة:

– هل هذا يعني بأنّ الدكتور ليفينغستون قادر على إعادة إنتاج كلماتنا هناك في الأعلى؟

– أجل، ونحن قادرون على سماع كلماتهن. نرى ظهور أجوبتهن على هذه الشاشة. لقد نجح إدمون بالفعل!

– ولكن ما الذي كانوا يتبادلنه بينهن؟ وماذا تتبادلون أنتم معهن؟

– همم... بعد نجاحه أصبحت ملاحظات إدمون غامضة قليلاً. كأنه لم يكن مصرّاً على تدوين كلّ شيء. دعنا نقلْ في البداية، تبادلوا مواصفات بعضهم بعضاً، كلّ واحد وصف عالمه. بهذه الطريقة عرفنا أن مدينتهم اسمها بيل – أو – كان؛ وبأنّها مركز فيدراليّة لعدّة ملايين من النّمال.

– لا يصدّق!

– فيما بعد قدّر الطرفان بأنه من المبكر نشر المعلومة بين شعبيهما. فأبرموا اتفاقاً يضمن السرّية المطلقة بخصوص «الاتّصال» بينهما.

– لهذا السبب أصرّ إدمون كثيراً على أن يقوم جوناثان بكل أدوات الحماية هذه، تدخّل أحد رجال المطافئ. الأهمّ كان بالنسبة له ألا تعرف الناس مبكراً. كان يتخيّل باشمئزاز الفوضى التي قد يثيرها التلفزيون، الراديو والصحف من أجل هكذا خبر. سيصبح النّمل رائجاً. كان يرى مسبقاً أفلاماً إعلانيّة، وعلّاقات مفاتيح، وتي

شيرتات، وبرامج استعراضيّة... كلّ هذا الهراء الذي يمكن أن يقوموا به حول هذا الاكتشاف.

– من ناحيتها بيلو – كيو – كيوني، ملكتهم، كانت تعتقد أنّ بناتها ستهرع مباشرة لمحاربة أولئك الغرباء الخطرين، أضافت لوسي.

– لا، الحضارتان غير مستعدتين بعد لتتعارفا – لنكن واقعيين– أو تفهما بعضهما... النمال ليسوا فاشيين، ولا فوضويين، ولا ملكيين... إنّهم نمل، وكل ما يتعلق بعالمهم مختلف عن عالمنا. وهذا مصدر ثرائهم.

المفوّض بيلشيم هو صاحب هذا الإعلان المدوّي؛ بلا ريب لقد تغيّر كثيراً منذ أن ترك سطح الأرض – ورئيسته سولانج دومانغ.

– كلتا المدرستين الألمانيّة والإيطاليّة مخطئتان، قال جوناثان، لأنّهما تحاولان شملهنّ ضمن إطار فهم «بشريّ». هذا التحليل رديء بلا ريب. كما لو أنّ النمال تحاول فهم حياتنا بمقارنتها بحياتها. ظاهرة التشبّه بالنّملة، بشكل أو بآخر... غير أنّ، أدق تفصيل يخصّ النمال هو مدهش. نحن لا نفهم اليابانيين، والتيبتيين أو الهندوس، ولكن ثقافتهم، وموسيقاهم، وفلسفتهم مدوّية، حتّى حين تكون مشوّهة بعقلنا الغربي! ومستقبل أرضنا هو في التمازج، وهذا بديهي.

– ولكن ماذا يمكن للنمل أن يضيف لثقافتنا؟ سألت أوغستا مندهشة.

جوناثان، دون أن يجيب، أشار للوسي؛ التي انسحبت بضع لحظات وعادت حاملة ما يبدو أنّه مرطبان مربّى.

– انظروا، مجرّد هذا كنز! عُسَيل الأرْقة. هيّا تذوّقوه!

جازفت أوغستا بسبابة حذرة.

– همم، إنّه شـديد الحلاوة... لكنّه لذيـذ جداً! طعمه مختلف عن طعم عسل النحل.

– أترين! ألم تسـألي نفسـك ماذا نفعل لكي نأكل كل يوم، في هذا المأزق المزدوج تحت الأرض؟

– بلى، بالضبط...

– النّمل هو الذين يطعمنا من عُسَـيله ومـن طحينه. النمال تخزن مؤونة لأجلنا هناك في الأعلى. ولكن ليس هذا كلّ شـيء، نقلنا عنهم تقنية زراعة فطر الغاريقون.

يرفـع غطاء علبة كبيرة من الخشـب. نرى تحته فطوراً بيضـاء تنمو على سرير من أوراق متخمّرة.

– غالان هو المختصّ عندنا بالفطر.

ابتسم هذا الأخير بتواضع.

– لازال أمامي الكثير لأتعلّمه.

– ولكن بالاعتماد على الفطر والعسـل... سـيكون لديكم رغم ذلك نقص بالبروتينات؟

– لأجل البروتينات الاختصاصي هو ماكس.

يشير أحد رجال الإطفاء بإصبعه إلى السقف.

– أنا، أجمع جميع الحشرات التي يضعها النّمل في العلبة الصغيرة على يمين الصندوق. نغليها لفصل الجلود عنها؛ وما يتبقى نعدّه كما نعدّ القريدس الصغير، وبالمناسبة له ذات الطعم وذات المظهر.

– أتعرفون، هنا، نتدبّر أمورنا بشكل جيد، لدينا كلّ الراحة التي نبتغيها، أضاف أحد رجال الشرطة. الكهرباء تتولّد من محطّة نوويّة صغيرة، والتي ستستمرّ لخمسمائة سنة قادمة. إدمون هو من أقامها هنا في أوائل أيّام وصوله... الهواء يعبر من المداخن، الطعام يأتي من النّمل، لدينا نبع ماء بارد، وعلاوة على ذلك، لدينا انشغال مثير. نشعر أنّنا روّاد لأمر على غاية من الأهمية.

– في الحقيقة نحن مثل رواد فضاء يعيشون في قاعدة ويتحاورون أحياناً مع جيرانهم من سكان الكواكب.

ضحكوا. تيار من المزاج الجميل مسّ النخاعات الشوكية. اقترح جوناثان العودة إلى الصالون.

– أتعرفون، لمدّة طويلة بحثت عن طريقة تجعل أصدقائي يتواجدون حولي. حاولت كثيراً من خلال التجمّعات، ووضع اليد على أماكن شاغرة، الفلانستير[7]... لم أنجح يوماً. وصلت بالنهاية إلى الظنّ بأنّي طوباوي طيب، كي لا أقول غبي. ولكن في هذا المكان... هنا ثمّة

7. الفلانستير: Phalanstere، وهو الاسم الذي اختاره شارل فورييه لمدينته الفاضلة، وهي عبارة عن فندق ضخم يتسع لألف وخمسة مائة شخص، يعيشون حياة متماثلة ومشتركة في مختلف جوانب الحياة.

ما يحصل. نحن مجبرون على أن نتعايش، أن نتكامل، أن نفكّر سوية. ليس لدينا الخيار: إذا لم نتفاهم سنموت. لا يوجد مهرب. غير أنّي، لا أعرف إذا كان هذا الشيء ناجماً عن اكتشاف خالي أو مما يعلّمنا إيّاه النّمل بوجوده فوق رؤوسنا، ولكن إلى الآن جماعتنا تسير على أحسن ما يرام!

– تسير، حتّى عنوةً عنّا...

– أحياناً نشعر بأننا ننتج طاقة مشتركة، يستقي كل واحد منها بحريّة. وهذا الأمر عجيب.

– سبق وسمعت كلاماً بهذا الخصوص، عند جماعة الصليب الوردي وعند بعض الجماعات الماسونية، قال جازون. يدعون ذلك **الإيغريغور**: رأسمال «القطيع» الروحي. مثل وعاء يسكب كلّ واحد فيه قوّته ليصنع منه حساء يستفيد منه الجميع... على العموم، دائماً يوجد سارق يستغل طاقة الآخرين لغايات شخصية.

– ليس لدينا هنا مشكلة من هذا النوع. إذ لا يمكن أن يكون لدينا طموحات شخصيّة ونحن نعيش ضمن مجموعة صغيرة تحت الأرض...

صمت.

– ثم لا نلبث أن نتكلّم أقل، لم نعد في حاجة ذلك لنفهم بعضنا بعضاً.

– بالفعل، ثمّة أشياء تحدث. ولكن لا نفهمها و لم نسيطر عليها

بعد. لم نصل بعد، نحن لا نزل في منتصف الرحلة.

صمت من جديد.

– حسناً، في النهاية، أتمنّى أن تسعدوا ضمن جماعتنا الصغيرة...

وصلت الرقم 801 خائرة القوى إلى مدينة مسقط رأسها. نجحت! نجحت!

شلي – بو – ني تقوم فوراً باتصال مطلق لتعرف ما الذي حدث. ما تسمعه يؤكّد احتمالاتها الأسوأ بالنسبة للسرّ المخبأ تحت لوح الغرانيت.

تقرّر بعد ذلك مباشرة شنّ هجوم عسكريّ على بيل – أو – كان. طوال الليل، الجنديّات تعدّ العدة. الفيلق الجويّ الجديد جداً لوحيد القرن أصبح على أهبة الاستعداد.

تبث الرقم 103683 اقتراح خطّة. في الوقت الذي سيقاتل فيه جزء من الجيش وجهاً لوجه، سيلتفّ اثنا عشر فيلقاً متسلّلاً للهجوم على الأرومة الملكيّة.

العالم يعضي: العالم يعضي إلى مزيد من التعقيد. من الهيدروجين إلى الهيليوم، ومن الهيليوم إلى الكربون. لا يلبث أن يكون أكثر تعقيداً، أكثر تطوراً هذا هو الاتجاه الذي تتقدم نحوه الأشياء.

بين جميع الكواكب المعروفة، كوكب الأرض هو الأكثر تعقيداً. هو موجود في منطقة حيث يمكن لحرارته أن تتغيّر. تغطّيه محيطات وجبال. ولكن إذا كانت أشكال الحياة متنوّعة ولا تنضب تقريباً، إلّا أنّ ثمّة اثنان يتربّعان في القمة فوق الآخرين بذكائهما. النّمل والإنسان.

كأنّ الله استخدم كوكب الأرض ليقوم بتجربة. فأطلق جنسين، بفلسفتين متناقضتين كليّاً، على سباق الوعي ليرى من سيصل أولاً:

الهدف هو على الأرجح الوصول إلى وعي جماعي كوني: أي اندماج جميع عقول الجنس. بالنسبة لي هذا هو الطور القادم لمغامرة العقل. في مستوى التعقيد القادم.

ولكن، الجنسان الزعيمان اتخذا طريقي تطوّر متوازيين:

– فلكي يصبح الإنسان ذكيّاً، ورّم عقله إلى أن اتخذ حجماً هائلاً. نوع من القرنبيط الكبير المائل إلى الوردي.

– ولكي يحصل النّمل على النتيجة ذاتها، فضّل استخدام الآلاف من العقول الصغيرة المتجمّعة ضمن أنظمة اتصالات متناهية الدقّة.

كقيمة مطلقة، يوجد ذكاء في فئات قرنبيط النّمل بما يعادل قرنبيط البشر. في هذه المبارزة أسلحة كلَيْ الطرفين متعادلة.

ولكن ماذا سيحدث لو أنّ كلا الذكاءين، عوضاً عن الركض متوازيين، تعاونا؟...

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

شغف جان وفيليب منصبّ على التلفزيون فقط، وإلى حدّ ما، ألعاب الفليبر. حتى ملعب الغولف الصغير، الذي أنشئ حديثاً جدّاً، لا يكترثان له. أمّا بخصوص النزهات في الغابة... فلا يوجد بالنسبة لهما ما هو أسوأ من الوقت الذي يجبرهم المشرف فيه على الخروج إلى الهواء الطلق.

صحيح أنّهما في الأسبوع الماضي تسلّيا بثقب انتفاخات الضفادع، لكنّ وقت المتعة كان قصيراً جدّاً.

ورغم ذلك، يبدو أنّ جان اليوم قد عثر على نشاط يستحقّ فعلاً الاهتمام. يأخذ صديقه بعيداً عن مجموعة اليتامى، الذين يجمعون بغباء الأوراق الميتة ليصنعوا منها لوحات سخيفة، ويشير له إلى ما يشبه مخروطاً من الإسمنت. عشّ أرَضَة.

يبدؤون على الفور تكسيره بأقدامهم، ولكن لا يخرج منه شيء، عشّ الأرَضَة فارغ. ينحني فيليب ويشتمّ.

- لقد أبادهم الجنائني. انظر، لاتزال رائحة المبيد تفوح منه، مات جميع من في الداخل.

كانا يهمّان للالتحاق بالآخرين، خائبين، لمّا اكتشف جان من الجهة الثانية من النهر هرماً مختبأً نصفه تحت شجيرة. هذه المرّة، هذا هو الطلب المناسب! عشّ نمل مدهش، قبّة بعلو متر على الأقل! أرتال طويلة من النّمل تدخل وتخرج، مئات، بل آلاف من العاملات والجنديّات والمستكشفات. المبيد (DDT) لم يمرّ من ذلك المكان بعد.

أخذ جان يقفز من الإثارة.

- هل رأيت ذلك؟

- أوه لا! لن تأكل المزيد من النّمل مجدّداً... في المرّات الأخيرة كان طعمها مقرف.

- مـن تكلّم عـن الأكل! أمامك مدينة، الظاهـر منها فقط بحجم سكّان نيويورك أو مكسيكو. أتتذكر ما قالوه في البرنامج؟ إنّ داخلها يعجّ بالحثالة. انظر إلى أولئك الحمقاوات كيف يعملن كالأغبياء!

- طيـب... ألم تر أنّ نيكولا من فرط اهتمامه بالنّمل كيف اختفى في النهايـة. أنـا متأكد أنه كان يوجد نمل في أسـفل قبـوه وقد أكلوه. وشـيء آخر أنـا لا أحبّ البقـاء بالقرب من هذا الشـيء. لا يعجبني! نملات قذرات، في الأمس رأيت بعضها يخرج من أحد ثقوب ملعب الغولف الصـغير، ربما كانت تريد أن تبني عشّـها في أسفله... النمال القذرات الحمقاوات السافلات.

جون يهزّ كتفه.

- تماماً! أنت لا تحبّ النّمل، ولا أنا أيضـاً! فلنقتلهم! ثأراً لصديقنا نيكولا.

الاقتراح حظي باهتمام فيليب.

- نقتلهم؟

- بلى طبعاً! و لِمَ لا؟ فلنحرق هذه المدينة بالنار! أتتخيل مكسـيكو تتصاعد منها ألسنة اللهب، لمجرد أنّ ذلك يروق لنا؟

– حسناً، سنحرقها. بلى. لأجل نيكولا...

– انتظـر، لديّ فكرة أجدى: سـنحشر بداخلها مبيد الأعشـاب، بهذه الطريقة، ستحصل فرقعة حقيقيّة.

– رائع...

– اصـغ، السـاعة الآن الحادية عشرة، نلتقي هنا بعد ساعتين تماماً. بهذه الطريقة لن يزعجنا المشرف وسـيكون الجميع في مطعم المأوى. سأذهب وأحضر المبيد. أنت، عليك تدبّر إحضار علبة كبريت، أفضل من الولّاعة.

– اتفقنا!

تتقدم فيالق المشاة بوتيرة سريعة. حين كانت مدن الفيدراليّة الأخرى تسألهم عن وجهتهم، كانت الشليبوكانيات تجيب بأنه اكتشف وجود حرذون في منطقة الغرب وأنّ المدينة المركزيّة طلبت مؤازرتها.

فـوق رؤوسـهم تئزّ خنافـس وحيد القـرن، بالـكاد يبطئها وزن المدفعيّات التي تتحرك محمولة على رؤوسها.

السـاعة الواحدة عند الظهيرة. بيل – أو – كان في أوج نشـاطها. تسـتغل الدفء لتجميـع البيوض والحوريـات والأرْقـات في الغرفة الشمسيّة.

– أحضرت كحولاً لكي تندلع النار أكثر، أعلن فيليب.

– رائع، قال جان، وأنا اشتريت مبيد الأعشاب. السفلة! أخذوا ثمنه عشرين فرنكاً.

الأم تلعب مع نباتاتها آكلة اللحوم. هذه النباتات عندها منذ مدّة طويلة، تتساءل لماذا لم ترفع منها جدار حماية كما أرادت منذ البداية.

ثمّ تعود للتفكير في الدولاب. كيف يمكن استخدام تلك الفكرة الرائعة؟ ربما بالإمكان تصنيع كرة إسمنتيّة ضخمة يمكن دفعها بالأرجل لسحق الأعداء. يجب أن تباشر بالمشروع.

– تمّ الأمر، وضعت كل شيء، الكحول ومبيد الأعشاب.

فيما كان جان يتكلم، تتسلق عليه نملة مستكشفة. تضرب قماش سرواله برؤوس قرونها.

تبدو هيكلَ عملاق حيّ، هل بإمكانك أن تعطيني معلومات عن هويتك؟

يلتقطها ويسحقها بين السبابة والإبهام. بفوت! يسيل السائل الأصفر والأسود على أصابعه.

– هذه واحدة قد نالت نصيبها، أعلن جان. حسناً ابتعد الآن سيصدر شرر!

– ستحدث وليمة شواء هائلة، أردف فيليب.

– بحسب رؤيا يوحنا! قهقه الآخر.

– كم سيكون عددها في الداخل؟

– لا بدّ أنها بالملايين. يقال أنّه في السنة الماضية هجم النّمل على فيلا في المنطقة.

– سننتقم لهم أيضاً، قال جان. هيا، اختبأ خلف تلك الشجرة.

الأم تفكّر بالبشر. أن تسألهم المزيد في المرّة القادمة. كيف يستخدمون الدولاب؟

يشعل جان عود ثقاب ويرميه على قبّة من الغصينات وإبر الصنوبر. ثم يبدأ بالجري، خوفاً من أن يصيبه الشرر.

تمّ الأمر، بدأت المدينة المركزيّة تظهر للجيش الشليبوكاني. كم هي كبيرة!

يحطّ عود الثقاب الطائر على منحنى نازل إلى الأسفل.

تقـرّر الأمّ أن تكلّمهـم دون أيّ انتظـار. وعليهـا أن تخبرهم أنها تستطيع أن تزيد ببساطة كمية العُسَيل المقدّمة لهم؛ إنتاجية الموسم هذا العام تَعدُ بالوفرة.

يسقط عود الثقاب على غصينات القبّة.

يصبح الجيش الشليبوكاني قريباً بما يكفي. يستعد للهجوم.

يقفز جان خلف شـجرة الصـنوبر الكبيرة، حيث سـبق واحتمى فيليب.

لم يقابل عود الثقاب أيّة منطقة متشرّبة بالكحول أو بالمبيد. فينطفئ إذاً.

ينهض الصبيان مجدّداً.

– تباً!

– أعرف ماذا علينا فعله. يجب أن نضع مزقة ورق، بهذه الطريقة

نحصل على شعلة ضخمة لا بدّ أن تلمس الكحول.

– معك ورق؟

– همم... بطاقة ميترو فقط.

– هاتها.

تلاحظ حارسة القبّة شيئاً غريباً: فليست رائحة الكحول التي أخذت منذ قليل تفوح في بعض الأحياء فحسب. وإنّما أيضاً توجد قطعة خشب صفراء ظهرت للتوّ مغروزة في القمّة. تتصل على الفور بخليّة عمل لتنظيف الغصينات من ذلك الكحول ومن أجل أن يسحبوا أيضاً العارضة الصفراء.

تصل حارسة أخرى راكضة إلى الباب رقم 5.

إنذار! إنذار! جيش من النمال الصهباوات يهجم علينا!

تحترق الورقة المقوّاة، ويعود الصبيّان للتّواري خلف شجرة الصنوبر.

الحارسة الثالثة ترى لساناً كبيراً من اللهب يرتفع في نهاية قطعة الخشب الصفراء.

تعدو الشليبوكانيات بسرعة هاجمات، كما رأوا المُسْتَرِقّات تفعل ذلك.

دويّ التفجير الأول.

تندلع النار فجأة في كامل القبّة.

انفجارات، شرار يتطاير.

يحاول جان وفيليب المحافظة على عينيهما مفتوحة رغم انتشار الحرارة. المشهد لم يخذلهما. الخشب الجافّ يلتقط النار بسرعة. حين يصل اللهب إلى مبيد الأعشاب، يحدث الانفجار. تصدر فرقعات وتنبجس حزم خضراء، وحمراء، وبنفسجيّة من «مدينة النّملة التائهة».

يتوقّف فجأة الجيش الشليبوكاني. تندلع النار في الغرفة الشمسيّة أولاً، تحرق جميع ما في داخلها من بيوض ودوابّ، ثمّ يزحف الحريق على القبّة بأكملها.

أرومة المدينة المحرّمة أصيبت منذ اللحظات الأولى للكارثة. انفجرت البوابات. تندفع المحاربات لإنقاذ البيّاضة الوحيدة. ولكن الأوان قد فات، فقد اختنقت بتلك الغازات السامّة.

بدأت الإنذارات تتدفّق بالسرعة القصوى من جميع الأنحاء. إنذار المرحلة الأولى: الفيرومونات المثيرة أطلقت؛ إنذار المرحلة الثانية: قرع طبول بطريقة مأساوية في جميع الممرّات؛ إنذار المرحلة الثالثة: «مجنونات» تركض في الممرات مرسلة ذعرها؛ إنذار المرحلة الرابعة:

كلّ ما هو ثمين (بيوض، ذوات جنس، ماشية، غذاء...) ينزل إلى أكثر الطبقات عمقاً، بينما بالاتجاه المعاكس تصعد الجنديّات للمواجهة.

يحاول الجميع داخل القبّة إيجاد حلول. تنجح فيالق المدفعيّات بإطفاء بعض المناطق برشقها بحمض النّمليك المركّز بنسبة أقل من 10%. يبدأ أولئك الاطفائيون المرتجلون، بعد أن اكتشفوا فعّاليّة أدائهم، يرشون المدينة المحرّمة ربما بإغراقها يتمكّنون من إنقاذ الأرومة.

ولكن النار تزحف. المدنيون العالقون يختنقون بسبب الدخان السام. أقواس الخشب المجمّرة تتساقط على الحشود المذهولة. الأجساد المدرّعة تأخذ بالذوبان والالتواء كبلاستيك في مقلاة. لا شيء يقاوم هجمات ذلك الوهج اللاهب.

مرحلة: لقد أخطأت. نحن لسنا متساوين، ولا متنافسين. وجود البشر ليس سوى مرحلة «قصيرة» من سيادتهم المطلقة على الأرض.

هم أكثر عدداً منّا بما لا يقاس. لديهم مدناً أكثر، هم يتّبعون أنماطاً حياتيّة أكثر تنوعاً. يعيشون في المناطق الجافة، في المناطق الجليدية، الحارة أو الرطبة حيث لا يسع أيّ إنسان أن يظل على قيد الحياة. أينما نظرنا يوجد نمل.

لقد كانوا هنا قبلنا بمائة مليون سنة، وإذا وضعنا في الاعتبار أنهم كانوا أحد الأجسام النادرة التي قاومت القنبلة الذريّة، فإنهم سيظلّون بعدنا هنا بمائة مليون سنة. نحن لسنا أكثر من حادث طارئ لا يتجاوز الثلاثة ملايين سنة من تاريخهم. فضلاً عن

ذلك، إذا هبط سكان الفضاء يوماً على كوكبنا، لن يخطئوا أبداً. سيحاولون بلا ريب أن يحاوروهم. هم: أسياد الأرض الحقيقيون.

إدمون ويلز

موسوعة العلم النسبيّ والمطلق

في صباح اليوم التالي، اختفت القبّة نهائيّاً. بقت الأرومة السوداء مغروزة وسط المدينة، عارية تماماً.

خمسة ملايين من المواطنات قد ماتت. في الواقع، جميع النمال اللواتي كنّ داخل القبّة وما حولها مباشرة.

أمّا اللواتي كان لديهنّ ما يكفي من الفطنة ونزلن إلى الأسفل فقد بقين سالمات.

البشر الذين يعيشون تحت المدينة لم يلحظوا شيئاً. بلاطة الغرانيت الضخمة منعتهم من ذلك. وكلّ ما حدث كان أثناء إحدى لياليهم المصطنعة.

يبقى موت بيلو - كيو - كيوني التهديد الأثقل وطأة على المدينة؛ دون بيّاضته، يبدو القطيع مهدّداً جداً.

ساهم الجيش الشليبوكاني في إطفاء النار. وأوّل ما علمت المحاربات بموت بيلو -كيو - كيوني بعثت رسلاً إلى مدينتها. بعد بضع ساعات تصل شلي - بو- ني شخصياً محمولة على خنفساء وحيد القرن لتعاين الأضرار.

حين وصلت إلى المدينة المحرّمة كانت نمال الإطفاء لا تزال منهمكة برشّ الرماد. خمدت النار و لم يبق شـيء لمكافحته. تسأل، فيخبروها عن الكارثة غير المفهومة.

وبما أنّه لم يتبق ملكات خصـبات، تصـبح هي بيلو – كيو – كيوني الجديدة بشكل تلقائي وتحتلّ المقصورة الملكيّة للمدينة المركزيّة.

كان جوناثان أوّل من استيقظ، متفاجئاً بطابعة الحاسوب تطقطق.

يوجد كلمة على الشاشة.

لماذا؟

إذاً هم بثوا أثناء الليل. يريدون المحاورة. فيطبع الجملة التي تسـبق كل حوار.

إنسان: تحية، أنا جوناثان.

نملة: أنا بيلو – كيو – كيوني الجديدة. لماذا؟

إنسان: بيلو – كيو – كيوني الجديدة؟ أين القديمة؟

نملة: قتلتموها. أنا بيلو – كيو – كيوني الجديدة. لماذا؟

إنسان: ما الذي حدث؟

نملة: لماذا؟

ثمّ انقطعت المحادثة.

هي الآن تعلم كلّ شيء.

إنّهم هم، البشر، الذين فعلوا ذلك.

كانت الأم تعرفهم.

هي تعرفهم منذ زمن طويل.

احتفظت بالمعلومة سرّاً.

وأمرت بإعدام كلّ من كان يمكن أن يكشف أيّ دليل.

حتّى أنّها دعمتهم ضد خلاياها.

تتأمل بيلو - كيو - كيوني الجديدة أمّها الخامدة. حين يأتي الحرّاس ليأخذوا الجثّة إلى المكبّ، جفلت.

لا، لا ينبغي رمي هذه الجثّة.

تتفحّص بيلو - كيو - كيوني القديمة، والتي سرعان ما تصاعدت منها روائح الموت.

تقترح إعادة لصق الأطراف المتضرّرة بالراتنج. وبأن تفرّغ الجثة من أحشائها الطريّة ويوضع رمل بدلاً عنها.

تريد الاحتفاظ بالجسد في مقصورتها الخاصّة.

شلي - بو - ني، بيلو - كيو - كيوني الجديدة، تجمع بضع محاربات وتقترح إعادة إنشاء المدينة المركزيّة بطريقة أحدث. كانت القبّة والأرومة في رأيها شديدتي الهشاشة. ينبغي أيضاً تكريس الجهود للتنقيب عن الأنهار الجوفيّة، وإلى شق قنوات تصل كافّة المدن الفيدراليّة. بالنسبة لها المستقبل يكمن في تطويع الماء. سيمكننا من حماية أنفسنا من الحرائق والسفر أيضاً بسرعة أكبر دون مخاطر.

وبالنسبة للبشر؟

تبثّ جواباً مراوغاً

ليس لديهم أهمية كبيرة.

المحاربة تصرّ:

وإذا هاجمونا مجدّداً بنارهم؟

كلما كان الخصم قوياً كلّما أجبرنا أن نتفوّق على أنفسنا.

والذين يعيشون تحت الصخرة الكبيرة؟

لم تجب بيلو - كيــو - كيوني. تطلب البقاء بمفردها، ثم تلتفت إلى جثة بيلو - كيو - كيوني القديمة.

تحنــي الملكة الجديدة رأســها برقة وتضــع قرنيها علــى جبين أمّها. وتظــلّ ثابتة على هــذه الحالة لوقت طويل جدّاً كما لــو أنّها غارقة في اتصال مطلق أبديّ.

انتهى

مَسْرَد مُصطلَحات

اتّصال مطلق (ا.م): هو التبادل الكامل للأفكار بواسطة التلامس القرني.

اثنا عشري: طريقة تقييم رقمي نملي. نظام العدّ عند النّمل اثنا عشري لأنّ لديه اثني عشر مخلب (اثنان في كل رجل).

ارتفاع: كلّما كان العشّ مرتفعاً، كلّما كانت المدينة تبحث عن مساحات كبيرة متعرّضة لأشعّة الشمس، في المناطق الحارّة تكون أعشاش النّمل مدفونة بالكامل تحت الأرض.

أرض: كوكب مكعب الشكل.

أرَضَة: صنف منافس للنمل.

أرْقات: مواشي. صالحة للأكل.

أسلحة نمليّة: الفكوك -السيوف، الإبرة -السمّ، رشّاش الصمغ، جيب رشق حمض النّمليك، مخالب.

أسْوَد: تفضّل المدنيّات العيش في الظلمة.

أفعى: خطر.

أمراض: الأمراض الأكثر شيوعاً عند النّمال الصهباوات؛ الغبيرة (ناجم عن فطر طفيلي)، الإيجيرتيل (نوع من التعفّن يصيب الكيتين)، الدودة المخيّة (دودة طفيلية تعشّش على مستوى العقد تحت البلعوميّة) تضخم الغدد الشفويّة (نوع من انتفاخ غير عادي للصدر، يظهر ببداية المرحلة اليرقيّة)، **الألترناريا** (أبواغ قاتلة).

برج: مسلّة ثانويّة مبنيّة فوق القبّة. وينتشر تواجدها في أعشاش الأرَضَة أكثر من أعشاش أصناف النّمل.

برد: مُسَكّن عام في عالم الحشرات.

بشر: وحوش عملاقة ورد ذكرها في بعض الملاحم الحديثة. أكثر ما نعرفه عنها هو حيواناتها الورديّة المدجّنة: الأصابع. خطر.

بعوض: الذكور تمتصّ نسوغ النباتات. أمّا الإناث فلا يُعرفُ كيف تتغذّى. صالح للأكل.

بوّابات: فئة برأس مدوّر ومسطّح مكلّفة بسد الممرّات الاستراتيجيّة.

بيضة: نملة حديثة السن.

بيل – أو – كان: المدينة المركزيّة للفيدراليّة الصهباء.

بيلو – كيو – كيوني: ملكة بيل – أو – كان.

تحوّل: الانتقال من شكل حياة إلى آخر، وحدوثه شائع عند معظم الحشرات.

تربية المواشي: فنّ تمارسه بعض الأصناف لتدجين وقطف الإفرازات الشرجية للأرْقات والقرمزيات. يمكن أن تعطي حشرة أرْقة واحدة 30 قطرة من العسيل في الساعة خلال فصل الصيف.

تطاعم: وهب غذاء بين نملتين.

تغذية: نظام التغذية الشائع عند النّملة الصهباء: 43% من عُسَيل الأرْقة، 41% من لحم الحشرات، 7% من نسغ الأشجار، 5% من الفطر، 4% من مسحوق الحبوب.

تكييف هوائي: تضبط الحرارة في المدن الكبيرة بفضل الحجرة الشّمسيّة، والروث، وفتحات التهوية الموجودة داخل القبّة.

جثّة: جلد رقيق فارغ.

جواز مرور: رائحة عشّ مسقط الرأس أو عش التنشئة بالنسبة للمرتزقات.

حاسة الشمّ: عديمي الجنس يمتلكون 6500 خليّة حسيّة بكل قرن. ذوي الجنس 300000.

حاصدات: نمال مزارعات من المنطقة الشرقيّة.

حبّة: تفضّل الصهباوات بيوزوم الحبوب. أي الجزء الأصغر والأغنى بالزيت. عش متوسط الحجم يجمع 70000 حبة في الموسم الواحد.

حرارة العشّ: تكون حرارة مدينة الصهباوات مضبوطة بطريقة ذاتيّة، لتتراوح بحسب الطبقات بين 20° و30°.

حرارة: لا تستطيع الصهباوات الحراك إلّا بحرارة من 8° وما فوق. أمّا الجنسيّون فقد يستيقظون أحياناً أبكر قليلاً في نحو 6°.

حـرب نَبْـتِ الفريـز: في 99999886، حرب نَبْتِ الفريز وضـعت الصفر في مواجهة الصهباوات.

حرذون: التنين في الحضارة النّمليّة. خطر.

حضارة نمليّة: هي الحضارة التي أنشأها النّمل.

حفل الانبعاث: طيران ذوي الجنس، ويحدث عادة عند بداية فصـل الدفء.

حلزون: منجم غني بالبروتينات. صالح للأكل.

حمراوات نسّاجات: نمل مهاجر من الشرق تستخدم يرقتها كمكوك للنسيج.

حمض الخليك: مبيد أعشاب.

حمض الزيتيك: بخار ينبعث من جثث النّمل.

حمض النّمليك: سلاح الرشـق. حمض النّمليك الأشدّ فتكاً يكون مركّزاً بنسبة 40%.

خبز: كرات من الحبوب المجروشة والمهروسة.

خفّاش: وحش طائر يعيش في الكهوف. خطر.

خمر: تجيد النّمال تخمير عُسَيل الأرْقة وعصير الحبوب.

خُنفُس الروث: دافع كرة الروث. صالح للأكل.

خنفساء كولورادو: خنفسـاء بأجنحة مغمّـدة تميل للبرتقالي، مخطّطة بخمسـة خطوط طوليّة سـوداء. خنافس بطاطس كولورادو يتغذّون على البطاطا عامة. إفرازه سمّ قاتل.

دبّابـة: تقنية حربيّة تقوم على حمل عاملة ذات فكوك ضـخمة من قبل ستّ عاملات صغيرات متحرّكات.

درجة: وحدة حسـاب الزمن -الحراري والزمن -التأريخي. كلّما ارتفعـت الحرارة كلّمـا درجات -الزمن تضـيق؛ وكلما انخفضـت تتّسع.

دعسوقة: حيوان مفترس لدواب الأرْقات. صالحة للأكل.

ذبابة مايو: نوع من اليعسـوب الصـغيرة له ذيل متفرّع. تعيش يرقة هذه الذبابة 3 سنوات، أمّا الحشرة التي تخرج من اليرقة فلا تعيش أكثر من 3 إلى 48 ساعة. صالحة للأكل.

ذكور: حشرات خارجة من بيوض غير ملقّحة.

رأس: وحدة القياس عند النمل. تساوي 3 ميلّمترات.

رسل طائرة: تقنية القزمات لنقل الرسـائل بواسـطة الذباب. صالحة للأكل.

روّاغة: الخنفساء التي تزود بالمخدر القاتل. خطر.

روث: يزن روث نملة أقلّ 1000 مرّة من وزن جسدها.

رؤيـة: تـرى النّمال كمـا لو من خلال شـبكة. الجنسـيّون يميزون الألوان، ولكن جميع الأصبغة تميل إلى ما فوق البنفسجي.

ريح: تقلعك من الأرض لتحطّ بك لا يُعرَفُ أين.

زنابير: أبناء عمومة للنمل، بدائيون وسامّون. خطر.

زوبي – زوبي – كان: مدينــة في الجهة الشرقيّة، مشــهورة بقطعان الأرْقة الكبيرة.

سبات شتويّ: نوم طويل يستمرّ من تشرين الثاني إلى آذار.

سرعة المشي: في حرارة 10° تسـير صـهباء بسرعة 18 متر/سا. وفي 15° تبلغ سرعتها 54 متر /ســا. وقد تصــل سرعتهــا في 20° إلى 126 متر /سا.

سلالة: سلسلة من الملكات الابنة تتوالى على حكم ذات الأرض.

سلمون مرقّط: خطر.

شلي – بو – كان: مدينة فائقة الحداثة معمّرة من قبل شلي – بو – ني.

شلي – بو – ني: ابنة بيلو – كيو – كيوني.

شي – غا – بو: مدينة النّمال القزمات، في منطقة الشمال الغربي.

صرصور: جدّ الأرَضَة. أوّل حشرة ظهرت على الأرض.

صهريج: خزان لتجميع قطرات الندى.

صوم: بوسع النّملة أن تعيش ستّة أشهر دون طعام، في حالة السبات الشتويّ.

طبقـة: على العمــوم، نجد ثلاث طبقــات: الجنسـيّون، الجنديّات، العاملات. وهم مقسّــمون إلى فئات: عامــلات مزارعات، جنديّات مدفعيّات، إلخ.

طول: طول الصهباوات 2 رأس بشكل متوسّط.

عصافير: وحوش طائرة. خطر.

عقيـدة الملكات: مجموعة من المعلومـات الثمينة منقولة من قرنين إلى قرنين، ابنة ملكة عن أمّ ملكة.

عمر الملكة: تعيش الملكة الصهباء 15 عاماً، في المتوسّط.

عمـر عديمي الجنـس: عاملة أو جنديّة صـهباء، تعيشـ 3 أعوام على العموم.

عنكبوت: وحش يفترس طرائده قطعة تلو قطعة ويخدّرهم بعد كلّ بتر. خَطَر.

عومَة: خنفس بحريّ يغوص تحت الماء. صالح للأكل.

عيون: مجموعة من الأوجه موضوعة على كرة العين. كلّ وجه عينيّ يحتوي على بلورتين، عدسـة كبيرة خارجيّة وأخرى صغيرة داخليّة، وكلّ خليّة متّصـلة مباشرة بالدماغ. النّمال لا ترى إلّا الأشياء القريبة، ورغم ذلك تلتقط أدنى حركة من مسافة بعيدة.

عُيينـات مـا تحت الحمـراء: ثلاثة عيون صـغيرة متموضـعة على هيئة مثلّث في جبين ذَوي الجنس، وتسمح لهم بالرؤية في الظلمة الدامسة.

غابي - تيولو: عش صغير يستخدم في موسم الربيع.

غدّة ديفور: غدة تحتوي على فيرومونات الإشارات الطرقيّة.

غدّة سُمّية: جيب يخزّن فيه حمض النّمليك، مزوّد بعضلات خاصة يمكنها قذفه بضغط عال جدّاً.

فرس النبي: حشرة تهوى بإفراط ممارسة الحبّ والطعام. خطر.

فيدراليّـة: تجمّـع مدن من ذات الصـنف. تتضـمن فيدراليّة النمال الصـهباوات 90 عشّـاً بالمتوسـط، تمتد علـى مسـاحة 6 هكتارات،

متضمّنة 7.5 كيلو متر من المسالك المُمَهدة و40 كيلو متراً من المسارات الشمّية.

فيرومون: جملة أو كلمة سائلة.

فيلق: كمّية كبيرة من الجنديّات القادرة على التحرّك سويّة.

قزمات: عدوّات الصهباوات الأُوَل.

قلب: سلسلة من عدّة جيوب متداخلة على شكل إجاصة، يقع القلب في الظهر.

قوّة: بإمكان النملة الصهباء جرّ ضعف وزنها ستين مرّة، أيّ: 3.2×10^{-6} حصاناً.

كثافة: في أوربا، تبلغ الكثافة 80000 نملة (من جميع الأصناف) في المتر المربع.

كيتين: المادّة التي تتشكّل منها الدروع النّمليّة.

لا – شولا – كان: المدينة التي تقع في أقصى غرب الفيدراليّة.

مبيدات: ميرميكاسين، حمض الخليك.

مَجمع مخلّفات: حوض لتجميع روث المدنيّات.

مدينة محرّمة: حصن لحماية المقصورة الملكيّة. يوجد مدن محرّمة من الخشب، أو الإسمنت، أو حتى داخل صخر مجوّف.

مرتزقات: نمال منفردة تقاتل لمصلحة غير عشّ مسقط رأسها مقابل الطعام وهوية مدينية.

مسترقّات: صنف محارب، غير قادر على البقاء حيّاً دون مساعدة الخادمات.

مصارعة بالفكّ: رياضة نمليّة.

مصيدة فينوس: مفترس نباتي يتواجد بكثرة حول بيل - أو - كان. خطر.

مطر: طقس قاتل.

معدة الاجتماعيّة: عضو السخاء.

معركة الخشخاش: حدثت في سنة 100000666 أوّل حرب فيدراليّة تضع السلاح الجرثومي وجهاً لوجه مع سلاح الدبّابات.

مقصورة ملكيّة: المكان الذي تضع فيه الملكة بيوضها.

مكب: تلّ عند مداخل عشوش النّمل، تُلقي فيه الحشرات نفاياتها وجثثها.

مناعة: قدرة الحشرات الاجتماعيّة على التلاؤم مع سمّ قاتل، إلى درجة وضع بيوض مكتسبة في تركيبتها الجينية مناعة ضدّ ذلك الخطر.

موجات: القاسم المشترك الأصغر الذي ترسله - على هذا النحو أو ذاك - جميع الكائنات والأشياء المتحرّكة.

موسيقى: صوت أو ما فوق الصوت صادر عن الجداجد والزيزان بحكّ أغماد أجنحتها. وبوسع النمال مزارعات الفطر أيضاً إصدار موسيقى بتحريك عضلات بطنها.

نار: سلاح محرّم.

نباتات آكلة اللحوم: صائدات الحشرات، ساكاراسنيات، مصائد فينوس، ندويات. خطر.

نباتات سامّة: سورنجان، الغلسين، الدفلى، اللبلاب. خطر.

نسيج: عمليّة تحصل بواسطة يرقة.

نقل: لنقل أحد ما تمسكه النّملة من الفكّين. فيما ينكمش هو ليقلّل احتكاكه بالأرض إلى حدّه الأدنى.

نمسيّة: الزنبور يضع بيوضه الخائرة من الجوع في جسدك. خطر.

نملة مقنّعة: صنف موهوب في الكيمياء العضويّة.

ني: إحدى سلالات الملكات البيلوكانيّات.

وجهة المدينة: تشيد الصهباوات مدنها بجعل القسم الأكثر اتّساعاً باتّجاه الجنوب الشرقيّ، لكي تستقبل أكبر كمّية من أشعّة الشمس في أوّل النهار.

وحيد القرن: خنفساء لها قرن كبير في الجبين.

وزن: وزن النملة يتراوح بين 1 إلى 150 ملغراماً.

يراعة: خنفساء تصدر ضوءاً فوسفوريّاً. صالحه للأكل.

يرقة أسد – النّمل: رمل متحرك آكل لحوم. خطر.

رقم 56: اسم شلي – بو – ني وهي عذراء.

رقم 327: ذكر فتي بيلوكانيّ.

رقم 4000: صيّادة صهباء تعيش في غابي – تيولو.

رقم 103683: جنديّة بيلوكانيّة.

رقم 801: ابنة شلي – بو – ني مكلّفة بالتجسّس.

الأسماء الحقيقيّة «للمُمَثّلات»

(وفقاً للتّرتيب الأبجديّ):

الحاصدة	*Pogonomyrmex molefaciens*
الحمراء النسّاجة	*Œcophylla longinoda*
السوداء الراعية	*Lasius niger*
الصهباء الفيدراليّة	*Formica rufa*
طاحنة الحبوب	*Messor barbarus*
القزمة	*Iridomyrmex humiliis*
المانيان	*Doryline annoma*
مزارعة الفطر	*Atta sexdens*
المستَرقّة	*Polyergus rufescens*
النّملة الخزّان	*Myrmecocystus melliger*
النّملة المقنّعة	*Anergates atratulus*

الفهرست

المُوقِظ ٩

النزول أكثر فأكثر ١٣٥

أوديسّات ثلاث ٢٧٩

نهاية المطاف ٣٥١

مَسْرَد مُصطلَحات ٤٢١

الأسماء الحقيقيّة «للمُمَثّلات» ٤٣٢

منذ عمر السادسة عشرة، ولج برنار فيربير (المولود سنة 1961 في مدينة تولوز) عالم الأدب. فكتب قصصاً قصيرة، وسيناريوهات، ومسرحيّات. وبعد أن أنهى دراسته في علم الجريمة والصحافة، عمل محرّراً في الصحافة العلميّة.

أصدر سنة 1991 روايته الأولى (النمل) التي حظيت بنجاح منقطع النظير، وهو لم يتجاوز بعد الثلاثين من عمره. يقترح برنار فيربير في أعماله نوعاً جديداً من الكتابة الأدبيّة يدعوها "الخيال الفلسفيّ"، والتي هي مزيج من الخيال العلميّ والفلسفة والمعتقدات الروحيّة.

يصبو فيربير إلى فهم مكانة الإنسان داخل هذا الكون عبر وجهات نظر، متعدّدة وغريبة، خارجة عنه: حيوانات، أشجار، آلهة قديمة، وحتّى سكّان محتملون من خارج الكوكب.

تستقبل أعمال برنار فيربير بحفاوة ليس في فرنسا فحسب، وإنّما في العالم. غير أنّ ثلاثيةَ النمل -والتي تشكّل هذه الرواية كتابها الأوّل، إذ لحقها يوم النمل 1992، وثورة النمل 1996 -تبقى هي الجوهرة في تاجه الإبداعي، والسمة التي منحت تجربته النكهة الفريدة التي اختصّ بها، وألهمت كتّاباً آخرين.


ISBN 978-2-843090-40-0
9 782843 090400